

القُرْطُبِيُّ

حَيَاتُهُ وَأَثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ
وَمَنْهَجُهُ فِي التَّفْسِيرِ

تَأَلَّفَ

الدكتور زفتاح السنوسي باعم

أستاذ الدراسات الإسلامية
جامعة قار يونس - بنغازي

مَشُورَات
جَامِعَةُ قَارِ يُونُسَ
بِنَغَازِي




رقم الابداع 97/3131
دار الكتب الوطنية - بنغازي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الاولى 1998 م .

لايجوز طبع أو استساخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
الا بعد الحصول على الموافقة الكتابية من الناشر

مَشُورَات
جَامِعِيَّةُ بَنْغَازِي
بَنْغَازِي



القُطُوبِي

حَيَاتُهُ وَأَثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ
وَمَنْهَجُهُ فِي التَّفْسِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا نعمته، ورضى لنا الإسلام ديناً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالرحمة والهدى للناس أجمعين.

وبعد: فإن لكل أمة من أمم العالم فكرها الذي تعتر به، وتحافظ عليه، وتصونه من أي تحريف أو تزيف.

ونحن أمة مسلمة لها فكرها الذي تحترمه وتحرس على أن يظل مصدر حياتها الفكرية وأساس نهضتها في شتى مجالات الحياة.

هذا الفكر الذي يحاول أعداء الإسلام تشويهه وطمس حقائقه - يجب علينا أن نعمل على نشره بين المسلمين وتمكينهم من الاطلاع عليه ليأخذوا من ماضيهم الإسلامي المشرق العبرة والعظة وليشعروا بالعزة لانتمائهم إليه، ويدركوا أن أساس تقييمهم للناس وأفكارهم ومناهج حياتهم المعاصرة هو الإسلام، والإسلام وحده، وبينوا حياتهم المعاصرة على أسس راسخة من العلم والإيمان والتقوى والفكر المستنير حتى يحققوا ما يسعون إليه من الأمن والسعادة والحياة الكريمة.

إن هذا الفكر بكل مضامينه ودلالاته - هو الذي يربط أول هذه الأمة بآخرها، وكانت هذه الأمة أشد حرصاً عليه، لأنها ترى فيه بقاءها وحياتها.

لهذه الاعتبارات جميعها أشعر بثقل المسؤولية عن هذا الفكر والمحافظة عليه

وإحيائه.

وأول خطوة نخطوها في هذا المجال هي محاولة التأليف في موضوع له أبعاده وآثاره في حياتنا الفكرية المعاصرة، ويتناول هذا الموضوع:

حياة القرطبي وآثاره العلمية وطريقته في تفسير كتابه العزيز.

والذي دفعني للكتابة والتأليف في هذا الموضوع أسباب من أهمها:

1- للإمام القرطبي تفسير مشهور بين الباحثين وطلاب الثقافة الإسلامية، وقد اشتمل هذا التفسير على معارف متعددة، وبحوث علمية مفيدة. الأمر الذي دفعني إلى التفكير في دراسة هذا التفسير، وبيان منهج مؤلفه فيه.. خدمة لطلاب العلم ومساهمة في إحياء التراث الإسلامي.

2 - كان الإمام القرطبي من الأئمة والعلماء الأندلسيين الذين فرّوا من بلادهم إبان وقوع الأندلس تحت سيطرة النصارى، وكان البعض منهم قد اتجه شرقاً كالإمام القرطبي الذي رحل إلى أرض الكنانة ماراً في هذه الرحلة العلمية المباركة بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا.. معلماً ومتعلماً.

ولما كان الإمام القرطبي كذلك - رأيت أن أذكر نشاطه العلمي ومشاركته في نشر العلوم الشرعية والثقافية الإسلامية، ومناقشاته لعلماء عصره الذين التقى بهم في هذه الرحلة العلمية.

3- لما كان الإمام القرطبي قد نهج في تفسيره منهجاً يربط فيه بين الواقع والحكم الشرعي - رأيت أن أتناول تفسيره بالبحث والدراسة لأتعرّف على اتجاهاته النقدية لمعاصريه من القراء والحكام وعمامة الناس.

هذه هي أهم الأسباب التي دفعتني لتناول هذا الموضوع والكتابة فيه.. أدعو الله تعالى أن يوفقني لعرض قضاياها وبيان جوانبه العلمية المتنوعة.

المؤلف

بنغازي في: 1996/11/15

تمهيد

الحياة السياسية والعلمية في الأندلس ومصر في عصر القرطبي

إن مما تقتضيه مناهج البحث العلمي - في مجالات المعرفة الإنسانية المتنوعة أن يلقي الباحث أضواء كاشفة تسبق موضوع دراسته، ليربط أجزاءه بعضها ببعض حتى يصل في نهايته إلى تكامله وتوفيقه حقه من البحث والربط والتفصيل. فيمهد لموضوعه بمقدمة - حسب نوعية الدراسة والموضوع الذي يتطرق إليه - وذلك مدخل طبيعي لصلب البحث. وبذلك يحقق الموضوع - المطروق للدراسة - الغايات التي ينشدها الباحث.

ذلك المنهج هو الذي سنتبعه - إن شاء الله تعالى - في بحثنا: (القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير) فنقدم بين يديه بمقدمة تناول الحياة السياسية والثقافية في غرب العالم الإسلامي (المغرب والأندلس) وفي شرقه (مصر والشام) ثم نخرج للحديث عن الترجمة التفصيلية لحياة القرطبي ومؤلفاته - المطبوعة منها والمخطوطة وشيوخه الذين تلقى عنهم علومه وثقافته وتأثر بهم، وآثاره المختلفة في التفسير وعلومه والقراءات والحديث والعقائد (التوحيد) والفقه واللغة ونحوها والتصوف. ثم يعقب ذلك إعطاء فكرة موجزة عن التفسير القرآني: نشأته ومراحل تطوره ونمائه وجهود علماء الإسلام وآرائهم والشروط - أو العلوم - التي وضعوها، والتي يجب أن تتوافر في كل من يتصدى لتفسير كلام الله عز وجل، ومدى انطباقها على شخصية القرطبي التفسيرية.

ولا جدال في ان أجمع آثاره وأبرزها هو تفسيره الذي غرب فيه وشرق

وسماه: (الجامع لأحكام القرآن) وسنخصص له أبواباً مستقلة لبيان منهج مؤلفه ومميزاته والمركبات الفكرية التي قام على أسسها. وسنذكر - عند حديثنا عن الحياة السياسية والثقافية في شرق بلاد الإسلام وغربها - انطباع القرطبي عن هذه الحياة، وموقفه منها، ورأيه فيما اعوج من أمورها، وتأزم من شئونها.. والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير.

عاصر القرطبي - رحمة الله تعالى عليه - فترات زمنية من تاريخ الدول الإسلامية التي حكمت ديار الإسلام - غرباً وشرقاً - وكانت ظروف حياته هذه قاسية ومؤلمة وذلك لما أصاب المسلمين من التمزق والضياع واستيلاء النصارى على ديارهم، والاستعانة بهم على قتال بعضهم بعضاً وغير ذلك من المآسي التي كانت تحز في نفسه، وتؤلم فؤاده، وتحرق قلبه. والتي أشار إلى بعضها في تفسيره الجامع وفي كتابه التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة.

ففي الغرب الإسلامي حيث ولد القرطبي ونشأ في قرطبة عاصر بعض الظروف السياسية والثقافية التي أحاطت بالدول الإسلامية التي توالى حكمها على المغرب والأندلس، وكذلك الحال في الشرق الإسلامي حيث هاجر إليه وطاب به المقام في مصر حيث توفاه الله تعالى في مدينة منية ابن خصيب في 9 شوال سنة 671 هجرية.

ونبدأ هذا المدخل التاريخي بالحديث عن الحياة السياسية بالمغرب والأندلس ثم الحياة الثقافية والاجتماعية، ثم نتطرق للحديث عن الهزات العنيفة والأعاصير الجارفة التي اجتاحت المسلمين في هذه البلاد، حتى قتل وأسر الآلاف منهم وفر الباقون. أو بعبارة أوضح نتحدث عن مأساة الأندلس الأليمة وما أصاب مسلميها من الاضطهاد والقتل والنفي والتشريد. وأخيراً نذكر الرحالة الأندلسيين إلى الشرق الإسلامي، والأسباب التي دفعتهم إلى ذلك، والأهداف التي كانوا يرمون إليها من وراء هذه الرحلات المتكررة، والتي كانت الاسكندرية نقطة تجمعها ومركز التقائها. وتبدو صورة الحياة السياسية واضحة - في هذه الفترة - في المغرب والأندلس

بتسلم الموحدين لزمام القيادة والحكم فيهما، الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين، بعد معركة انتهت بانتصار الموحدين في شهر شعبان سنة 516 هـ (أغسطس 1123 م)⁽¹⁾. كان من أثرها أن وجه المهدي بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى امتثال أمره وطاعته، ويحذرهم بطشه ونقمته إذا لم يستجيبوا. وقد أورد الأستاذ محمد عبدالله عنان هذه الرسالة في كتابه: (عصر المرابطين والموحدين - القسم الثاني) نقلاً عن صاحب الحلل الموسية. وهذا نصها: «إلى القوم الذين استدلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية والشردمة الطاغية، لتونة، أما بعد / قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فان أدبتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتابنا هذا اليكم اعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم، سلام السنة، لا سلام الرضى»⁽²⁾.

ويتضح لنا من أسلوب رسالة المهدي هذه، أنه كان صاحب دعوة قد صبغت بالصبغة الدينية، وأنه عازم على نشرها وتبليغها للناس مهما لاقى في سبيلها من العنت والتضحيات. وما دامت تلك الدعوة ترتبط بالدين وتتخذ أساساً لها، فلا بد من القاء الأضواء الكاشفة لها، ومعرفة حقيقتها، وكيف أقام المهدي وأنصاره الدولة الموحدية على أسسها؟

ففي حوالي سنة 1107 م رحل إلى بغداد محمد بن تومرت، وهو من قبيلة بربرية تدعى (مصمودة). وكان قد قضى فترة يسيرة في قرطبة وشاهد احراق مصنفات الإمام أبي حامد الغزالي - ابان الحكم المرابطى - وكانت كتب ابن حزم قد

(1) محمد عنان / عصر المرابطين والموحدين ص 178 .

(2) ص 180 .

أثارت في نفسه كثيراً من التفكير والتأمل. وكان هدفه من هذه الرحلة المشرقية
إتمام تحصيله الفقهي من معينه الفياض في بغداد. وهناك وقف على التعاليم
الأشعرية⁽¹⁾. وسرعان ما اعتنقها بالغيرة التي امتاز بها بنو جنسه البربر⁽²⁾.

وينقل الأستاذ محمد عنان عن ابن خلدون قوله: «أنه (أي ابن تومرت) تأثر
بالتعاليم الأشعرية، وأخذ عنهم، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية
والدفاع عنها، وفي تأويل المتشابه من القرآن والحديث⁽³⁾».

كانت الاسكندرية - كما قلنا - مركز تجمع الرحالة المسلمين، وقد اتجه إليها
ابن تومرت بعد أن أتم تحصيله العلمي في بغداد للإقامة فيها. وبدأ ينشر فيها نظريته
الجديدة، القائمة على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل جر عليه نفيه
منها «وركب ابن تومرت البحر من الاسكندرية في أواخر سنة 511 هجرية
(1117م)، ويقال انه أخرج منفياً من الاسكندرية لما ترتب من شغب على نشاطه في
مطاردة المنكر⁽⁴⁾. وعلى الرغم من ذلك، فإن ابن تومرت لم يفتأ في نشر دعوته
حتى ولو أجبر على الرحيل والرجوع إلى المغرب. فنجده - وهو على ظهر السفينة
التي أقلته - يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وألزمهم (بإقامة الصلاة وقراءة
القرآن، واشتد في ذلك حتى قيل ان ركاب السفينة ألقوه إلى البحر، فلبث أكثر من
نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من رفعه
من الماء، وقد عظم في نفوسهم، وبالغوا في اكرامه⁽⁴⁾). وهذا يدل على إيمانه العميق
بفكرته وثباته عليها، واصراره على نشرها وبيانها للناس.

ولما رجع ابن تومرت إلى المغرب أعلن دعوته الجديدة التي تتمثل في الحرص
على التوحيد والتمسك بالسنة. وبدأ يجول ويطوف في أنحاء مراكش وغيرها من

(1) نسبة لأبي الحسن علي الأشعري المتوفى سنة 935 م.

(2) بروكلمان / تاريخ الشعوب الإسلامية ص 191 .

(3) عصر المرابطين والموحدين ص 163 .

(4) عنان / عصر المرابطين ص 164 .

المدن المغربية داعياً الناس لدعوته تلك. وعندما باءت دعوته - هناك - بالفشل وعدم الاستجابة، قفل راجعاً إلى قبيلته في الأطلس (جبال درن) ونجح في نشر مبادئه بين أفرادها. وبنى مسجداً في (تينملل)، وبذلك وضع الأساس لعاصمة دولة الموحدين. وكان حول صاحب هذه الدعوة مجلس يتألف من اتباعه العشرة السابقين إلى قبول دعوته، وهم المسمون «بالجماعة» ليضيف إليه بعد مجلساً آخر ينتظم خمسين مندوباً عن مختلف القبائل البربرية (ووضع لهم في التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه: المرشدة) يحتوي على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان بما يجب لله تعالى، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور، وقال لهم: ان من لم يحفظ هذا التوحيد ليس بموحد، وإنما هو كافر لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته⁽¹⁾. قال صاحب روض القرطاس «فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز لأنه وجدهم قوما جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا»⁽²⁾. «ولبت المهدي ابن تومرت يث دعوته، ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره، بفصاحته وذلاقتة، ورقيق وعظه، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ويدعون إلى امامته ومهديته، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة، يباعونه بالإمامة، ويتبركون برؤيته، حتى استفحل أمره، وعلا صيته، وكثر جمعه، وأضحى يمثل بما تنطوي عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة، خطراً داهماً على سلطان المرابطين»⁽³⁾.

وذكر الأستاذ / عنان صيغة التوحيد التي وضعها المهدي ابن تومرت لأتباعه وهي توحيد الله سبحانه وتعالى. وقد نقلها من كتابه «أعز ما يطلب» وهي صيغة

(1) بروكلمان: الامبراطورية الإسلامية 192 .

(2) عنان / عصر المرابطين ص 175 .

(3) نفسه ص 176 .

يبين فيها واضعها منهجه الذي سلكه للإيمان بالله عز وجل. وهو أقرب ما يكون إلى منهج الأشاعرة السنيين⁽¹⁾.

وهكذا أقام الفقيه ابن تومرت دولته على أسس دينية، وتحولت دولته هذه إلى ملك سياسي على يد زعيم بارع وقائد موهوب هو عبدالمؤمن بن علي الذي بلغت الدولة الموحدية في عهده ذروة المجد والتقدم «واستطاعت الدولة الموحدية، بعد أن قضت على الدولة المرابطية، أن تسيطر على نفس الرقعة الاقليمية الشاسعة التي كانت تحتلها، سواء في المغرب أو الأندلس وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلا بعد فترة من الصراع المحلي، ولا سيما ضد الثورة في شرقي الأندلس»⁽²⁾ التي تزعمها ابن مردنيش والتي انهارت بوفاته في سنة 567 هـ (1172 م). وبذلك وقعت مملكة مرسية في قبضة الموحدين، وخلصت الأندلس كلها لطاعتهم، واستطاعوا أن يدعموا مركزهم في الجزيرة، وأن يجعلوا من اشبيلية حاضرة الأندلس حيث خصوها بمتهى الرعاية، وعملوا على تحصينها.

وهذه الدولة كانت من أعظم الدول الإسلامية، تمتد من اواسط شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً حتى مشارف الصحراء الأفريقية جنوباً، ومن طرابلس الغرب شرقاً حتى شواطئ الأطلنطي غرباً⁽³⁾. وكان شعارها دائماً - هو الجهاد في سبيل الله. ولهذا عبر سلاطينهم في جيوش جرارة - مراراً - لمتابعة هذه الغاية، لمقاومة العدوان النصراني في شبه جزيرة الأندلس وبدلوا جهوداً جبارة في سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد الإسلامي بالأندلس وصد الاعتداءات المتكررة عليها من إسبانيا النصرانية وكانت جيوشهم مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح. ولكن هذه الجيوش - ابان قوتها - لم تحرز نجاحاً في حملاتها ضد النصارى. فحملة الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتاليين قد تحطمت تحت أسوار وبذة

(1) نفسه ص 551 .

(2) عنان / عصر المرابطين ص 27 .

(3) نفسه ص 396 .

(567 هـ - 1172 م)، وحملته ضد البرتغاليين تحطمت - أيضاً - تحت أسوار شنترين (580 هـ - 1184 م) ومنيت جيوش هذا الخليفة الموحي بالهزيمة الفادحة وقتل الخليفة نفسه في هذه الموقعة.. ولم يكتب النصر للجيش الموحي في جهاده ضد أعدائه النصارى إلا في معركة (الأرك الشهيرة) التي انتصر فيها الخليفة يعقوب المنصور انتصاراً باهراً على القشتاليين في رجب سنة 591 هـ (يوليه 1195 م) «على أن هذا النصر العظيم، لم يلبث أن محت آثاره موقعة العقاب المشؤمة التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور وذلك في صفر سنة 609 هـ (يونيه سنة 1212 م) والتي كانت ضربة قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من الحن المؤلمة»⁽¹⁾ «ويعتبر المؤرخون المسلمون هذا اليوم من أسود أيام تاريخهم»⁽²⁾ ذلك لأن دولة الموحدين كانت مثال القوة والعظمة، وجلال الشأن، ورفعة السلطان. ودامت على هذه الحالة إلى آخر أيام الناصر ولد المنصور⁽³⁾. وعن هاتين الموقعتين يتحدث الإمام القرطبي. فبعد أن بين أن معركة الأرك كانت سنة 599 هـ قال: «كان بالأندلس تلك السنة وقعة الأرك التي أهلك الله فيها الروم ولم يزل المسلمون في نعمة وسرور إلى سنة تسع وستمائة فكانت فيها وقعة العقاب. هلك فيها كثير من المسلمين. ولم يزل المسلمون في تلك الواقعة بالأندلس يرجعون القهقري إلى أن استولى عليهم العدو وغلبهم بالفتن الواقعة بينهم. والتفصيل يطول. ولم يبق - الآن - من الأندلس إلا اليسير. فعوذ بالله من الفتن والخذلان والمخالفة والعصيان وكثرة الظلم والفساد والعدوان»⁽⁴⁾.

(1) عنان / عصر المرابطين 28 .

(2) أشباخ / تاريخ الأندلس جـ 1212 .

(3) كنون / النبوغ المغربي في الأدب العربي جـ 1 175 .

(4) التذكرة 628 .

ونتيجة لموقعة العقاب الفاصلة، المؤسفة فإن عدد المسلمين الذين هلكوا أثناء فرارهم أكثر مما هلك في المعركة ذاتها. ويفسر لنا المؤرخ الألماني يوسف أشباخ هذه الظاهرة بقوله: «لما كان الملوك الإسبان قد أُنذروا بالموت كل إسباني يأسر مسلماً، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك في الموقعة ذاتها. ذلك أن الإسبان لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين ويقتلون كل من ظفروا به»⁽²⁾.

وقد علق الشاعر أبو إسحاق بن الدباغ الإشبيلي على موقعة (العقاب) بقوله:

وقائلة أراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب

ما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب⁽¹⁾

وترتب على موقعة العقاب تلك انهيار الحكم الموحد في شبه الجزيرة، عندئذ تغيرت الأمور، وتجهت الحوادث، ولم يقتصر الأمر - عندئذ - على استيلاء الممالك المسيحية، وضغطها على نواحي مختلفة من الأندلس، وتحفزها للاستيلاء على قواعدها العظمى. ولكن حدث في الوقت نفسه أن بوادر الثورات المحلية بدأت تتحرك داخل الأندلس، وكان موطنها شرقي الأندلس. وعلى رأس هذه الثورات زعيمان أحدهما: زيان بن مردنيش، والثاني: أبو عبدالله محمد بن يوسف بن هود. وبينما كانت ثورة زيان ببلنسية، إذ بثورة ابن هود تجتاح مرسية وألمرية وقرطبة ومالقة...

وانتهز النصارى هذه الفرصة السانحة لانتزاع قواعد الأندلس الكبرى «فقام الفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية: ماردة وبطليوس وغيرها (627 هـ) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة عاصمة الخلافة القديمة (شوال 633 هـ - يونية 1236 م) وذلك في الوقت الذي تخلى فيه ابن هود عن انجادهما، وشغل بالعمل

(1) المقري / نفح الطيب ج 2 ص 582 الطبعة الأولى سنة 1302 هـ وانظر أيضاً نهاية الأندلس

لتوطيد سلطانه في جنوبي الأندلس، وكان لسقوط قرطبة أعمق وقع في تلك الأندلس المفككة المنهوكة القوى، ولكنه كان أمراً محتوماً لا سبيل إلى اتقائه. ولم يمض قليل وقت على ذلك حتى توفي ابن هود في أوائل سنة 635 هـ، وهو في ابان قوته وطموحه، وانهارت بوفاته أمانى ومشاريع كثيرة، وفي العام التالي استطاع خايبي الأول أو الفاتح ملك أراجون أن يستولي على بلنسية عاصمة الشرق (صفر 636 هـ - سبتمبر 1238 م) وكان قد استولى قبل ذلك في سنة 628 هـ على الجزائر الشرقية في الوقت الذي أخذ يتوالى فيه سقوط القواعد الشرقية والوسطى في أيدي النصارى كان محمد بن الأحمر⁽¹⁾ من جانبه يعمل بكل ما وسع لبط سلطانه على القواعد الجنوبية⁽²⁾ «وسارع سنة 1231 م إلى إعلان نفسه أميراً على الأندلس وتم له الإستيلاء على جيان، ووادي آش، وبسطة. وفي سنة 1235 احتل غرناطة، وجعلها عاصمة لدولته النصرية، لتظل كذلك حتى سقوط هذه الدولة نهائياً... ولكي يدفع ابن الأحمر عن دولته خطر المنافسين دخل في حماية فرديناند الثالث ملك قشتالة (1217 - 1252) كتابع له، مقابل جزية ضخمة. وفي سنة 1248 م اضطر الى أن يقدم اليه مساعدة حربية على اشبيلية فلما آل الأمر إلى خلفه، محمد الثاني (1273 - 1302) سعى إلى التخلص من التزاماته الاقطاعية عن طريق التعاون مع دولة بني مرين في مراكش»⁽³⁾ الذين نفذوا إلى المغرب بعد هزيمة موقعة العقاب سنة 609 هـ حيث «توغلوا في جنباته، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة في سنة 613 هـ إذ حاول الملك المستنصر أن يقضي عليهم، فأرسل جيوشه لقتالهم، ولكنها هزمت، ووصل بنو مرين إلى أحواز فارس، وكان أمير بني مرين - يومئذ - أبو محمد عبدالحق بن خالد ابن محيو، ولكنه قتل في بعض المواقع في سنة 614 هـ، فخلفه في الإمارة ولده أبو سعيد عثمان، واستمر يقود قومه في ميدان النضال ضد

(1) هو محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الذي عرفت أسرته ببني الأحمر.

(2) عنان / عصر المرابطين ص 32، 33 .

(3) بروكلمان / الامبراطورية الإسلامية ص 201، 202 .

الموحدين. وفي سنة 639 هـ (1241 م) سير الرشيد خليفة الموحدين جيشاً لقتال بني مرين فهزم الموحدون هزيمة شديدة، واستولى المرينيون على معسكرهم»⁽¹⁾ .

وهكذا أصبحت أندلس الإسلام مرتعاً خصباً للفتن والحوادث المتوالية التي جعلتها فريسة هينة، ولقمة سائغة لعدوها الخالد - إسبانيا النصرانية - ينتزع قواعدها وأراضيها تباعاً، ولا تجد وسيلة ناجعة لدفع هذا العدوان الجارف، بعد أن ضعفت الدولة الموحدية في الأندلس، وتساقت قواعده واحدة بعد الأخرى حتى أذن الله - جلت قدرته - أن تبعث قوة فنية جديدة تتمثل في قيام مملكة غرناطة، آخر دول الإسلام في الأندلس المفقود⁽²⁾ . «وكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت في يد إسبانيا النصرانية، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس، سوى بضع ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبي وعاد النذير يهيب بالمسلمين، أن يغادروا ذلك الوطن الخطر، الذي يتخاطف العدو أشلاءه الدامية، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم»⁽³⁾ «وكانت الأمة الأندلسية، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة، في يد عدوتها القديمة المتربصة بها - إسبانيا النصرانية - ألقت عزاءها في قواعدها الأخرى وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية، استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة»⁽⁴⁾ .

هذه بعض الظروف السياسية التي سادت المغرب والأندلس في القرنين: السادس والسابع الهجريين. وهي تمثل صفحة من صفحات المأساة التاريخية في هذه البقعة من الدولة الإسلامية. وتبين لنا لتلك الصفحة المظلمة الصراع القائم بين

(1) عنان / نهاية الأندلس ص 96 .

(2) عنان / عصر المرابطين ص 33 بتصرف.

(3) عنان / نهاية الأندلس ص 21 .

(4) المرجع السابق ص 17 .

النصارى والمسلمين، وبين المسلمين بعضهم مع بعض، حيث نشبت بينهم الحروب والمعارك الطاحنة. واستعان بعضهم على بعض بدول الكفر - وقتئذ - ولم يتعاونوا على الوقوف صفاً واحداً ويعلموا الجهاد الجماعي ضد هذه الدول.. وهذه الظروف المحزنة قد عاصر القرطبي بعضها، وسجل أسفه وألمه على ما شاهده في كتابيه: الجامع لأحكام القرآن والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة. فنجدته يذكر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ (1) يذكر أن أبا عبيدة قال: «(عسى) من الله ايجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم» (2). وهنا يعلق الإمام القرطبي على هذا بقوله:

«قلت: وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟ وأسر وقتل وسبى واسترق، فإننا لله وإنا إليه راجعون. ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته» (2). وفي موضع آخر من تفسيره يذكر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر، وأن الطغيان قد عمّ، وقل الهدى والرشاد «حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، براً وبحراً، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم» (3).

وعند تفسير قول الله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، انظر كيف نصرَف الآيات لعلهم يفقهون﴾ (4). وبعد أن نقل القرطبي عن الحسن قوله: ان هذه

(1) البقرة من الآية 216 .

(2) القرطبي / الجامع لأحكام القرآن جـ 3 ص 39 .

(3) المرجع السابق جـ 3 255 .

(4) الأنعام الآية 65 .

الآية تخص أهل الصلاة. علق على ذلك بقوله:

«قلت: وهو الصحيح، فانه المشاهد في الوجود. فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً واستباحة بعضنا أموال بعض. نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»⁽¹⁾.

أورد الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في كتاب التذكرة، حديثاً يبين أن ما وقع في الأندلس من استيلاء ملة الكفر عليها ونهب أموالها وسبي نساءها قد أخبر عنه رسول الله ﷺ، كما روي ذلك عن معاوية ابن أبي سفيان في حديث⁽²⁾ فيه طول عن النبي ﷺ أنه قال: (ستفتح بعدي جزيرة تسمى بالأندلس فيتغلب عليهم أهل الكفر فيأخذون من أموالهم وأكثر بلدهم ويسبون نساءهم وأولادهم ويهتكون الأستار ويخربون الديار ويرجع أكثر البلاد فيافي وقفارا. ويتخلى أكثر الناس عن ديارهم وأموالهم فيأخذون أكثر الجزيرة ولا يبقى إلا أقلها. ويكون في المغرب الهرج والخوف. ويستولي عليهم الجوع والغلاء. وتكثر الفتنة ويأكل الناس بعضهم بعضاً. فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من أهل فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهو المهدي القائم في آخر الزمان وهو أول اشراط الساعة⁽³⁾. وبعد أن سرد القرطبي حديث معاوية هذا قال: «كل ما وقع في حديث معاوية هذا فقد شاهدناه بتلك البلاد وعانينا معظمه إلا خروج المهدي»⁽³⁾.

ويصور القرطبي بشاعة استيلاء الكفار على بلاد المسلمين في الأندلس وما قام به من أعمال إجرامية، ومجازر لذبحهم والقضاء عليهم نهائياً، فيقول: «ولقد أخبرني صاحبنا أبو القاسم - رحمه الله - أخو شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر - رحمه الله: أنه ربط نحواً من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في جبل واحد مخافة

(1) الجامع لأحكام القرآن جـ 7 ص 9، 10 وانظر أيضاً التذكرة (كتاب الفتن) ص 523 .

(2) حققنا الحديث في مفتاح كنوز السنة والنهاية في غريب الحديث وتيسير المنفعة فلم نثر عليه.

(3) التذكرة ص 618 .

سبي العدو لما خرجوا من قرطبة - أعادها الله -» (1) .

ولم يكتف العدو الظالم بذلك، بل لاحق المسلمين الفارين من ديارهم وطاردهم وهذا ما وقع للقرطبي نفسه، حيث هرب أمام العدو، وانحاز إلى ناحية عنه. فخرج يبحث عنه. ولكن الله خيب آماله، ونجى إمامنا القرطبي من مؤامراته ودسائسه (2) . وكتبت له الحياة وترك لنا ثروته الفكرية الرائعة التي استفاد منها المسلمون من بعده.

هذا، ولا يجوز - بعد استعراضنا لتلك المحن والحوادث المؤلمة التي مرت في تاريخنا الإسلامي - أن نستسلم للضعف ونستكين لوساوس الشياطين الإنسية والجنية، ونظن أنه لا أمل في استئناف الحياة الإسلامية الكريمة - التي يسودها نظام الإسلام في شئونها المختلفة - وأنه من المستحيل جمع كلمة المسلمين والتفافهم حول عقيدتهم ومبادئهم، ذلك أن ما وقع بالأمس لا يصح أن يؤخذ حجة للتقاعس والتباطؤ اليوم، لأن الذي وقع ليس إلا امتثالاً لسنة الله في خلقه. فدولة تؤسس وتبسط سلطانها - شرقاً وغرباً - وتأتي أخرى - أقوى منها - تزيها وتحتل مكانها... وهكذا الحال إلى قيام الساعة.

بعد أن استعرضنا حياة المغرب والأندلس السياسية، وشاهدنا الصورة الأليمة، لما كان يقع في تلك الحياة من حروب داخلية وخارجية، ومؤامرات سياسية لمناصرة هذا الحاكم أو ذلك، التي أدت إلى نتيجة وخيمة، وهي استيلاء الكافر على تلك البلاد، حيث استعبد أهلها وفعل بهم فعل المنتصر المغرور على خصمه المغلوب. وشردهم من ديارهم وأقام لهم مجازره الهمجية ومحاكمه التفتيشية التي قضت أن تعلق المشانق وتعد المقاصل لقتلهم قتلاً جماعياً «ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

(1) المرجع السابق ص 639 .

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن ج 10 ص 270 .

على المحاربين من خصومهم، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ»⁽¹⁾ بعد استعراض هذه الصفحة القاتمة من تاريخ أندلسنا المفقود، فانه من الواجب أن نستعرض الصفحة المضيئة، المشرقة المتمثلة في الحياة الثقافية والحضارية التي سادت المغرب والأندلس في تلك الفترة التاريخية التي نحن بصدد الحديث عنها.

قد يظن المرء أن هذه الحياة الحضارية والثقافية لا مكان لها في بلاد قد تألّبت عليها دول الكفر من كل جانب، وكثرت - بين أهلها - الفتن والكوارث. وليس هذا الظن في محله. كما أنه ليس من الغرابة والدهشة أن تقوم مثل هذه الحياة الفكرية التي اندهش لقيامها المؤرخ الألماني يوسف أشباخ حين قال «بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمي الأندلس في تلك العصور المضطربة التي ساد فيها الخراب والعبث، ينافسون اخوانهم في المشرق في جميع نواحي العلوم والحضارة»⁽²⁾. وهذه الحياة الثقافية الحضارية التي شاهدها مغربنا الإسلامي لا تقتصر على جانب من جوانب الثقافة الإسلامية دون آخر، بل تشملها جميعاً سواء ما تعلق منها بالقرآن وعلومه والحديث وفنونه والفقهاء بمذاهبه المختلفة والعربية وما تفرع عنها من نحو وصرف وبلاغة ونقد وشعر ونثر.. الخ وكذلك كانت هذه الحياة زاخرة بالعبادة والاهتمام في ميادين الزراعة والصناعة والفنون التي جلبت الرخاء والرفاهية لأبناء المجتمع الإسلامي، الذين كانوا يقدرون العلم وأهله وقد كان «العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة. يشار اليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة. وما أشبه ذلك»⁽³⁾.

ويعقد ابن خلدون في مقدمته مقارنة بين طرق التعليم ومذاهبه في المغرب والأندلس وأفريقية، في الفصل الذي سماه.. (فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأنصار الإسلامية في طرقه) فيقول: «واختلفت طرقهم في تعليم القرآن

(1) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 154، 155 .

(2) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 233 .

(3) المقرئ / نفع الطيب ج 1 ص 102 الطبعة الأولى سنة 1302 هـ .

للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات. فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه. لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره. وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأُسُّهُ ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما. وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم. ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستعداد إذا وجد المعلم. وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه. وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك»⁽¹⁾.

(1) مقدمة ابن خلدون ص 343, 344 .

هذه هي مذاهب التعليم في الغرب الإسلامي - كما بينها العلامة ابن خلدون - وهي تتفق جميعاً في تعليم أطفال المسلمين لكتاب الله العزيز، ذلك أن هذا الأمر قد درج عليه المسلمون، وأحاطوه بعنايتهم ورعايتهم، ليشب أطفالهم عليه، وتشرب نفوسهم معانيه ومثله السامية، وأفكاره المستنيرة، وبذلك تتم تربيتهم الإسلامية على أساس القرآن الكريم وهدى رسول الله ﷺ وتحصل لهم بذلك منافع جمة. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبني عليه»⁽¹⁾.

بيد أن اختلافهم في العلم الذي يبدؤن به تعليم ولدانهم قد ترتبت عليه نتائج وملكات اختلفت باختلاف نقطة البدء في التعليم. ويذكر لنا العالم الكبير عبدالرحمن بن خلدون هذه النتائج وتلك الملكات فيقول: «فأما أهل أفريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصاد على القرآن القصور عن ملكة الإنسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله. فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام. وربما كان أهل أفريقيا في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها - كما قلناه - فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة. وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول

(1) مقدمة ابن خلدون ص 343، 344 مطبعة الأزهرية سنة 1311 هـ.

ملكة صاروا بها أعرف من اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا»⁽¹⁾.

وبعد أن نقل ابن خلدون عن القاضي أبي بكر بن العربي مذهبه في التعليم الذي يبدأ فيه الطالب بالعربية ثم ينتقل إلى الحساب ثم إلى دراسة القرآن الكريم وأصول الدين والفقه، ثم الجدل والحديث وعلومه قال: «ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط»⁽¹⁾.

هذه هي المناهج التربوية التي تلقى المسلمون - في المغرب والأندلس تعليمهم على أسسها، فكانت منهم مفكرين وعلماء نبغوا في مجالات المعرفة الانسانية وألّفوا فيها كتبهم وموسوعاتهم العلمية. فقصدتهم الطلاب - من كل مكان - وشدوا الرحال لمعاهدهم ومراكزهم العلمية في جامع القيروان والزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، وجامع قرطبة الشهير في الأندلس.

لم يكتف المسلمون بحفظ القرآن الكريم، بل دفعتهم غيرتهم عليه وهمتهم العالية إلى أن يتزودوا بعلم القراءات، إذ فاق متأخرو أهل الأندلس متأخري الشرق والفضل في ذلك لمجاهد العامري - أحد أمراء شرقي الأندلس - فانه كان عالماً فرغب العلماء، وأعانهم على التأليف فيه. فنبغ في عصره أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (المتوفي سنة 444 هـ) الذي يقول فيه ابن خلدون: «وبلغ الغاية فيها ووقعت عليه معرفتها، وانتهدت اليه رواية أسانيدها، وتعددت تأليفه فيها وعول الناس عليها، وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له، ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيرّه من أهل شاطبة فعهد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة⁽²⁾ لغز فيها أسماء القراء بحروف أ ب ج د ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ

(1) المقدمة ص 343 - 344 طبعة سنة 1311 هـ.

(2) انظر وفيات الأعيان ج3 234 الطبعة الأولى 1367 هـ - 1948 م.

لأجل نظمها فاستوعب فيها هذا الفن استيعاباً حسناً وعنَى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس.

وقد وجد قبل الشاطبي كتاب تلخيص العبارات في القراءات السبع للإمام أبي علي الحسن بن بليمة الهواري القيرواني المتوفى باسكندرية سنة 514 هـ. و(كتاب الكامل) في القراءات العشر والأربع الزائدة عليها للإمام أبي القاسم يوسف بن علي الهذلي المغربي، نزيل نيسابور وتوفى بها سنة 465 هـ. و(كتاب العنوان) في القراءات السبع تأليف الإمام أبي الطاهر اسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران الأنصاري الأندلسي الأصل ثم المصري المتوفى بها سنة 455 هـ و(كتاب الكافي) في القراءات السبع للأستاذ أبي عبدالله محمد بن شريح بن أحمد بن محمد بن شريح الرعييني الاشبيلي المتوفى بأشبيلية من الأندلس سنة 476 هـ و(كتاب الهداية في القراءات السبع) للشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدي المتوفى فيما قاله الحافظ الذهبي بعد سنة 430 هـ. و(كتاب التبصرة) في القراءات تأليف الإمام أبي محمد مكّي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي المتوفى بقرطبة سنة 437⁽¹⁾ هـ.

أما التفسير فقد كان له حظه الأوفى عند مسلمي المغرب والأندلس، إذ أُلّف فيه كثير منهم كتباً شتى، منها ما بقي محفوظاً إلى الآن على كر الأزمان ومر الأيام ومنها ما ضاع تحت تأثير المصائب والحن التي أصابت المسلمين في مختلف ظروف حياتهم. فمن كتب التفسير تلك (التفسير الكبير) للإمام المجتهد أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي (المتوفى سنة 276 هـ) وقد قال عنه الحافظ أبو محمد ابن حزم: «ما صنّف تفسير مثله أصلاً»⁽²⁾. وكذلك نبغ الإمام، العالم، أبو محمد ابن أبي طالب القيسي القرطبي في فن التفسير حيث وضع فيه كتابه المسمى (الهداية

(1) الضباع / المطلوب في بيان الكلمات المختلف فيها عن أبي يعقوب ص 14 .

(2) حاجي خليفة / كشف الظنون ج 1 نهر 444 طبعة 1360 هـ / 1941 م.

إلى بلوغ النهاية) في سبعين جزءاً في معاني القرآن الكريم وأنواع علومه⁽¹⁾. والإمام القاضي أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي الغرناطي (481 هـ - 546 هـ) صاحب التفسير العظيم المسمى بـ «المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» الذي «لا يزال مخطوطاً إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط: الجزء الثالث، والخامس، والثامن، والعاشر»⁽²⁾. وقد وصفه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بقوله: «وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فملخص تلك التفاسير كلها - أي تفاسير المأثور - وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها. ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالشرق»⁽³⁾ وهو الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان للإمام الجليل أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المتوفى بمبنة ابن الخصيب سنة 671 هـ / 1273 م من صعيد مصر.

ويبدو تأثر القرطبي بالإمام ابن عطية واضحاً. إذ اتبع منهجه في تفسير آيات الله، ونقل عنه نصوصاً وأقوالاً كثيرة في جل تفسيره الجامع لأحكام القرآن وكتابه: التذكرة والتذكار. وهناك تفسير آخر ينهج فيه صاحبه منهج استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها القطعية. وهو كتاب (أحكام القرآن) للقاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي المالكي (468 هـ - 543 هـ) وقد حققه الأستاذ علي محمد البجاوي وتم طبعه في أربعة أقسام. وهو متداول بين أهل العلم وأصحاب البحوث والدراسات الإسلامية.

أما السنة، وهي قول رسول الله ﷺ وفعله وتقريره، وهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فقد جاءت مفصلة لما أجمله القرآن الكريم، ومفسرة لما

(1) نفسه ج 2 نهر 2041 .

(2) الذهبي / التفسير والمفسرون ج 2401 .

(3) المقدمة ص 348 م. التقدم القاهرة سنة 1322 هـ .

أبهم فيه. وهي وحي الله - سبحانه وتعالى - أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»⁽¹⁾. ولما كانت السنة المطهرة - بهذه المكانة الرفيعة - اهتم المسلمون بتدوينها وحفظها، وألفوا كتباً في معرفة الصحيح منها والسقيم والسند والمتن ووضعوا قواعد وشروطاً لرواتها، منها: أن يكون الراوي عادلاً، تقياً، قوي البديهة سريع الحفظ... الخ. والسنة علم من العلوم الشرعية وهو «من أفضل العلوم الفاضلة، وأنفع الفنون النافعة. يحبه ذكور الرجال وفحولتهم. ويعني به محققو العلماء وكملتهم. ولا يكرهه من الناس إلا رذالهم وسفلةهم. وهو من أكثر العلوم تولجاً في فنونها. لا سيما الفقه الذي هو إنسان عيونها... وكانت علومه⁽²⁾ بحياتهم حية، وأفنان فنونه بيقائهم غضة. ومغانيه بأهله أهلة»⁽³⁾.

هذا، وقد صنف المسلمون في الشرق الإسلامي مؤلفات رائعة في علم الحديث النبوي كصحيح البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك بن أنس... أما في الغرب الإسلامي فقد رضى الاندلسيون فيه بالكتب الستة⁽⁴⁾ التي وضعها أئمة الحديث من المشاركة، وأعجبهم في ترتيبه صحيح الإمام مسلم، فشرحوه ونوهوا بفضله. ومن صنف منهم في الحديث وفنونه أبو الوليد عبدالله بن محمد الأندلسي، القرطبي، المعروف بابن الفرضي (341 هـ/403 هـ)⁽⁵⁾.

وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي (384 هـ - 456 هـ) الذي ألف في فقه الحديث كتاباً سماه: «الايصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والاجماع»⁽⁶⁾ وأبو عبدالله محمد بن

(1) النجم الآيتان 3، 4 .

(2) أي الحديث.

(3) الحافظ العراقي / التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح ص 11، 12، 13 .

(4) هي: البخاري ومسلم وسنن الترمذي وأبي داود وابن ماجه والنسائي.

(5) ابن خلكان / وفيات الأعيان ج 2 ص 290 طبعة 1948 م.

(6) وفيات الأعيان ج 3 ص 13 .

أبي نصر فتوح بن عبدالله الحميدي الميورقي (418 - 491 هـ) صاحب كتاب «الجامع بين الصحيحين البخاري ومسلم» وهو مشهور⁽¹⁾. وهو من الكتب التي اعتمد عليها إمامنا القرطبي في جامعه لأحكام القرآن. وأبو محمد عبدالله بن علي الأندلسي المرى المعروف بالرشاطي (466 هـ/542 هـ) وأبو بكر محمد بن عبدالله الأشبيلي المعروف بابن العربي (468 هـ/543 هـ) ومن مصنفاته في مجال الحديث النبوي (عارضه الأhozدي في شرح الترمذي)⁽²⁾ وقد طبعه الصاوي وأبو العباس أحمد بن عمر القرطبي - شيخ صاحبنا - (578 هـ/656 هـ) مؤلف كتاب (المفهم لشرح اختصار كتاب مسلم⁽³⁾ وغيرهم. كثيرون⁽⁴⁾. ويتحدث الشيخ المؤرخ أحمد المقرئ التلمساني (المتوفى سنة 1041 هـ) عن أهل الأندلس وعنايتهم بالحديث وروايته فيقول: «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم ربيعة»⁽⁵⁾.

والفقه من العلوم الشرعية التي اهتم بدراستها المسلمون، وذلك لإيمانهم بأن حياتهم الخاصة والعامة لا تستقيم، ولا تنتظم إلا إذا كانت الأحكام الشرعية - في مجالاتهم المتعددة - مسيطرة على هذه الحياة. تأخذ بيدها إلى بلوغ أهدافها العليا، وغاياتها المثلى. وعلم الفقه هو الذي يبحث في هذه الأحكام الشرعية باعتبارها خطاب الله تعالى للمكلفين وما يترتب على أفعالهم التي يأخذ كل فعل منها حكماً معيناً من الأحكام الشرعية الخمسة وهي: الوجوب والمحرم والمكروه والمندوب والمباح، فيتبعون ما أوجبه الله تعالى عليهم وأباحه لهم، ويجتنبون ما حرمه عليهم في كتابه الكريم وما نص عليه رسوله محمد ﷺ في سنته الطاهرة. يعرف العلامة ابن خلدون الفقه فيقول: «الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب

(1) وفيات الأعيان ج 3 ص 13 .

(2) نفسه ج 3 ص 424 .

(3) كشف الظنون ج 1 نهر 557 طبعة سنة 1941 م.

(4) انظر وفيات الأعيان ج 3 152، 234، 423 .

(5) نفع الطيب ج 1 ص 103 الطبعة الأولى سنة 1302 هـ.

والحظر والكرهه والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفةها من الأدلة. فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها: فقه⁽¹⁾. وكذلك اهتم المسلمون بعلم ذي صلة وثيقة بعلم الفقه وهو علم «أصول الفقه» الذي يبحث في كيفية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، المتمثلة في الكتاب والسنة والاجماع والقياس. فعلم «أصول الفقه» من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة. وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف. وأصول الأدلة الشرعية هي: الكتاب الذي هو القرآن، ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبي ﷺ كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس. ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر. وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلهما لإجماع الصحابة على التكبير على مخالفهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات. ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم، وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الوقعات بعده - صلوات الله وسلامه عليه - لم تندرج في النصوص الثابتة ففاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد. وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس، وهو رابع الأدلة⁽²⁾.

وعناية المسلمين - في المغرب والأندلس - بالفقه لا تقل عن عناية اخوتهم

(1) تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 372 .

(2) المرجع السابق ج 1 ص 378 .

المشاركة، إذ برزوا فيه وصنفوا مؤلفات فقهية عديدة مثل كتاب (المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس) للأمام القرطبي، والتبصرة في الفقه لأبي الحسن اللخمي والمنتقى في شرح موطأ مالك لأبي الوليد الباجي. وكانت رحلة أبي محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، فقيه الأندلس في عصره من أهل قرطبة والمتوفى بها سنة (234 - 849 م)⁽¹⁾ إلى الشرق الإسلامي عاملاً مهماً من عوامل ازدهار الفقه في تلك البلاد، إذ حمل إليها موطأ الإمام الجليل مالك ابن أنس - رضي الله عنه - بعد أن سمعه ورواه عنه، وهو يمثل الشرارة الأولى لانتشار المذهب المالكي في الأندلس الذي عم أرجاء البلاد. وأصبح الجميع يتمذهبون به ويسيرون أعمالهم وتصرفاتهم وفق ما جاء فيه من أحكام شرعية. يقول صاحب كتاب (نفع الطيب) متحدثاً عن أهل الأندلس وتقديرهم للفقه والفقهاء «وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم - الذي يريدون التنويه به - بالفقيه. وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق. وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال»⁽²⁾ وممن نبغ في الحديث والفقه «علي ابن أحمد بن محمد الغساني من أهل وادي آش، وقد ألف في شرح (الموطأ) كتاباً ضخماً سماه: (نهج السالك للفقهاء في مذهب مالك). ووضع شرحاً لكتاب مسلم، وتوفى سنة 609 هجرية (1212 م)، وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي الرندي المحدث، المتوفى سنة (616 هـ 1218 م)⁽³⁾.

أما الدراسات اللغوية فقد نالت حظها الأوفر من البحث والدرس والتأليف، وأخرجت لنا معاهدها ومراكزها أكابر العلماء اللغويين والنحويين والأدباء أمثال علي

(1) الزركلي / الأعلام ج 3 1157 طبعة 1347 هـ .

(2) المقري / نفع الطيب ج 1 ص 103 الطبعة الأولى سنة 1302 هـ .

(3) عنان / نهاية الأندلس ص 458 .

ابن اسماعيل المعروف بابن سيده المرسي الذي ظهرت مواهبه في اللغة وهو صاحب المخصص وهو كبير، وقد طبع في ست مجلدات في المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة 1320 هجرية. والمحكم وهو كتاب كبير جامع مشتمل على أنواع اللغة، يقال أنه بدىء في تحقيقه بالكويت وهو في عشرين جزءاً. وكتاب الأنيق في شرح الحماسة في ست مجلدات وغير ذلك من المصنفات النافعة⁽¹⁾ والشريشي شارح المقامات، وابن عبد ربه مؤلف (العقد الفريد) وابن زيدون وابن خفاجة وعلي بن محمد بن خروف الاشبيلي المتوفى سنة 609 هـ (1212 م) شارح كتاب سيبويه. كما أن بيئة الأندلس الثقافية قد أسهمت في تكوين علماء مؤرخين وجغرافيين من أمثال:

الشريف الإدريسي (492 - 570 هـ) (1099 - 1175 م) صاحب الكتاب الضخم الذي سماه: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقد طبع مختصره «سنة 1597 م في رومة في مجلد واحد ويوجد بدار الكتب نسخة فوتوغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق، وقد طبعت منه أجزاء مختلفة، وتولى العلامة المستشرق دوزى نشر القسم الخاص بالأندلس والمغرب مع ترجمته الفرنسية⁽²⁾ وأبي القاسم خلف ابن بشكوال القرطبي المتوفى سنة 578 هـ/1183 م صاحب كتاب الصلة، وغيرهم كثيرون.

هذا وقد كان «النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان الا جدة وهم كثير البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه. وكل علم - في أي عالم - لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء»⁽³⁾.

وهكذا شارك أهل الأندلس في العلوم الإسلامية فأضافوا إليها، وأتموها،

(1) ابن خلكان / وفیات الأعيان جـ 3 ص 17 .

(2) أشباخ / تاريخ الأندلس جـ 2 ص 260 (الهامش).

(3) المقرئ / نفع الطيب جـ 1 103 ط. 1302 هـ.

وبرزوا فيها. بيد أن العلوم الفلسفية والتنجيم لم تلق العناية التامة إلا من خواصهم الذين لم يجرؤوا على إعلان أفكارهم الفلسفية، وذلك لنقمة عامة الناس عليهم ومطاردة الحكام إياهم، واتهامهم بالكفر والضلال. يقول المقرئ متحدثاً عن حال أهل الأندلس في فنون العلوم، وموقفهم من الفلسفة والتنجيم «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم. ولا يتظاهر بها خوف العامة. فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه. فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة»⁽¹⁾ وفي العصر المرابطي لم تنل العلوم والفنون حظها من التعمق في الدرس والبحث العلمي، ولم تمنح حرية التفكير لأصحاب المواهب الفلسفية، حيث ناهض حكام ذلك العصر أصحاب النظريات الفلسفية والكلامية وأحرقوا كتبهم ومؤلفاتهم، كما فعلوا مع الإمام أبي حامد الغزالي الطوسي المتوفى سنة 513 هـ (1119 م) «ولم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر، وتقدم المعارف، وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل، وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم المرابطية، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها وأحرقوها علناً»⁽²⁾ وذلك أنه عندما ألف أبو حامد الغزالي كتابه: (أحياء علوم الدين) «أفتى جميع معاهد الأندلس والمغرب بإشارة سلطان المرابطين بأن هذا الكتاب يحتوي على آراء إلحادية، فمنعت قراءته وأحرقت نسخه أينما وجدت»⁽³⁾ غير أن مطارة المرابطين للثقافة والحضارة لم تدم، إذ كان الأواخر من سلاطين المرابطين قد عدلوا عن هذه الفكرة، وبدأوا يتقربون بصدقاتهم للشعراء والعلماء، ولا

(1) نفع الطيب ج 1 ص 102 الطبعة الأولى سنة 1302 هـ.

(2) أشباخ / تأريخ الأندلس ج 2 ص 239 .

(3) المرجع السابق ج 2 ص 257 .

سيما أولئك الذين مجدوا بطولاتهم وغزواتهم ضد الأعداء⁽¹⁾. أما في ظل الدولة الموحدية التي قامت على أنقاض دولة المرابطين فقد انتعشت الثقافة والعلوم وأخذت مكانها في حياة المجتمع الإسلامي، إذ كان الموحدون «أوسع أفقاً، وأكثر قبولاً لثمار التمدن. وكان لدولتهم - بالأخص - صبغة علمية دينية، كان مؤسسها المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني. وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه إهتماماً بالعلوم والفنون. وأطلقت حرية التفكير والبحث. وكانت قد صفدت في عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري الشرق، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس. وفي تلك الفترة بالذات أعني في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، بلغ التفكير الأندلسي ذروة النضج، وتفجرت ينبوع النبوغ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب»⁽²⁾ أمثال أبي الوليد محمد ابن أحمد بن رشد (520 هـ - 1126 م/595 هـ - 1198 م) الذي اشتهر بصيته من بين الفلاسفة الأندلسيين «وكان كثير الكتابة متضلعا في علوم كثيرة، وقد تفوق بنوع خاص في الطب والفلسفة، ومن مؤلفاته التي طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو، وشرحه لجمهورية أفلاطون... ورده على كتاب الغزالي» تهافت الفلاسفة بكتاب «تهافت التهافت»⁽³⁾ «واتهمه بعض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلدة اليسانة على مقربة من غرناطة، وفرضت عليه رقابة شديدة، ثم عفا عنه واسترد مكانته في أواخر حياته، واستدعى ثانية إلى مراكش، وهناك توفي بعد قليل في سنة 595 هـ (1198 م)»⁽⁴⁾.

وهكذا وقع الموحدون في تناقض بين، فتارة يشجعون الفكر الفلسفي الكلامي وأهله، وتارة أخرى يضيّقون الخناق عليهم تقرباً للأغلبية الساحقة من المجتمع.

(1) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 251 .

(2) عنان / نهاية الأندلس ص 436, 437 .

(3) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 258 .

(4) نهاية الأندلس ص 438 .

ويبدو هذا التناقض واضحاً في شخصية يعقوب المنصور (1184 - 1199 م) حينما تولى «عرش الخلافة قرب إليه الفلاسفة ورفع شأنهم، وكانت الفلسفة من قبل ذلك محرمة. فوفد على بلاطه من الأندلس، أعظم فيلسوفين أنجبهما الغرب الإسلامي: ابن طفيل وابن رشد»⁽¹⁾ «وكان مقر الخلافة في مراکش. بيد أن موقف ابن رشد «من مسألة قدم العالم (وقد دافع عنها ضد عقيدة الخلق من العدم) ومسألة علم الله لم يلبث أن أثار نقمة فقهاء الأندلس عليه، كما حمل الكنيسة على تحريم نظرياته، في القرن الثالث عشر. فحاطه خليفة يوسف، يعقوب المنصور بادىء الأمر، بحمايته ورعايته شأن أبيه من قبل، ولكنه اضطر في النهاية إلى أن يتخلى عنه لشديد حاجته إلى تأييد فقهاء الأندلس في نضاله ضد النصارى، وكان يطلب عندهم ثأر أبيه - فنفاه إلى أليسانة، قرب قرطبة، بعد أن امتحنه محنة مؤلمة باحراق مضافاته جميعاً خلا الطبية والرياضية والفلكية»⁽²⁾ يقول صاحب كتاب نهاية الأندلس: «وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطيراً في ظل حكومة الموحدين، وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد ونفيه بسبب آرائه الفلسفية، وقد كان من ضحايا هذا الاضطهاد، في هذا العصر، مفكر أندلسي آخر، هو ابن حبيب الإشبيلي، الذي اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية، أيام المأمون بن المنصور، وقتل لهذا السبب. وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكري العصر»⁽³⁾. ولعل الإمام أبا عبدالله القرطبي قد تأثر بهذا الجو الفكري، وانعكست آثاره على نفسيته، إذ كان يعلن حرباً شعواء، وسخطاً حاداً على الفلسفة وأصحابها كما سنرى فيما بعد ويتضح ذلك في جامعته لأحكام القرآن.

وواجه أبو محمد بن حزم هذا التيار المعادي للفلسفة، وطالب خصومه بإقامة البراهين على ما يعادونه من أفكار فلسفية. أما إحراق الكتب واضطهاد مؤلفيها فليس

(1) بروكلمان / الامبراطورية الإسلامية ص 195 .

(2) نفسه ص 196، 197 .

(3) عنان / نهاية الأندلس ص 438 .

من منطق العقل والفكر، بل الحجة تفرع بالحجة. وتتضح وجهة نظره هذه في قوله:

دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يرى
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس، إذ هو في صدرى⁽¹⁾

وفي الوقت الذي تضطهد فيه الدولة الموحدية الفلاسفة ونظرياتهم الفلسفية نجدها تشجع العلوم والثقافة، والفكر المستنير والرأي الصائب. ولما أدرك الموحدون أهمية الحضارة الإسلامية ودورها في حياة الشعوب «غدوا من حماتها، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم والفنون وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في نفس الوقت في جميع أنحاء المملكة»⁽²⁾ «التي انتظمت الأندلس وأفريقية كلها إلى تخوم مصر، وهي رقعة واسعة لم تجتمع لأي من الدول الإسلامية من قبل»⁽³⁾ «وغمرت الشعب موجة من الرخاء، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي بين الشعوب، وازدهرت الزراعة في الأندلس بنوع خاص، وعولجت بالأساليب الفنية»⁽⁴⁾.

وانتشرت معاهد العلم ومدارس الثقافة هنا وهناك، وفي مراكش وفاس وتونس وقرطبة وأشبيلية وغيرها من مدن الدولة الإسلامية التي أنجبت كبار العلماء وعظماء المفكرين، الذين تركوا لمن جاءوا بعدهم ثروة فكرية رائعة، يشهد لروعتها وعظمتها الأعداء بجانب الأصدقاء، وقامت على تلك الثروة الفكرية النهضة العظيمة في مجالات الحياة المختلفة. وقد تحدث الدكتور جودة هلال عن دور قرطبة في حمل مشعل المعارف والعلوم الإنسانية، مقارناً بينها وبين أخواتها من مدن الشرق الإسلامي وإسهام كل منها في تقدم الحضارة البشرية فقال: «إذا كانت القاهرة وبغداد والإسكندرية قد حملت كل واحدة مشعل الثقافة والنور في الشرق

(1) المقري / نفع الطيب ج 1 ص 78 م. الميرية المصرية.

(2) أشباخ / تأريخ الأندلس ج 2، 251، 252 .

(3) بروكلمان / الامبراطورية الإسلامية ص 197 .

(4) تأريخ الأندلس ج 2 ص 252 .

وأضحت كل مدينة من هذه المدن مركز إشعاع للعلوم والحضارة الإنسانية فان الشقيقة قرطبة كانت تحمل نفس المشعل في الغرب. واحتلت مركز الصدارة بين دول أوروبا وأفريقيا وغدت هذه العاصمة الغربية موطن رحيل العلماء، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة والباحثين عن المعرفة. وطبقت شهرة جامعتها ومدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق، ونمت فيها العلوم والفنون.. وبرز العلماء في الفقه والحديث والتفسير، واللغة والأدب، والعلوم الرياضية من هندسية وحساب وفلك. ثم في علوم الطب والموسيقى، وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان⁽¹⁾ وقد ظل مسجدها «كعبة القصاد، تهفو إليه القلوب، ويجذب إليه طلاب العلم من كل من الشرق والغرب، من مسلمين ومسيحيين، وذاع ذكره بين الناس، ونافس المدرسة النظامية في بغداد، والأزهر في مصر⁽¹⁾ كما أن قرطبة كانت «مدينة العلم ومستقر السنة والجماعة نزلها جملة من التابعين وتابع التابعين»⁽²⁾.

بالإضافة إلى وجود قرطبة مركزاً للإشعاع الفكري وجدت في الأندلس - خاصة مراكز أخرى تجمع حولها الطلاب من كل صوب وحذب. ونبغ فيها أئمة التفكير وقادة المعرفة. وعلى العموم فقد «ازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس، وكانت المعاهد الأندلسية في اشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة في تلك العصور، وكانت مقصد الطلاب من كل فج، وكانت مزودة بالمكتبات التي تضم أنفس الكتب والمصنفات في مختلف العلوم والفنون»⁽³⁾. وكانت معاهد العلم بالأندلس والمغرب تقدم لطلابها كتباً دراسية في كل العلوم وكان الطلبة يؤدون - بعد اتمام الدراسة - إمتحاناً

(1) قرطبة في التاريخ الإسلامي ص 44 .

(2) المقرئ / نفع الطيب جـ 1 ص 217 .

(3) عنان / نهاية الأندلس ص 439 .

في مختلف العلوم التي درسوها⁽¹⁾. «وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد الموحدين، وازدهرت الزراعة بنوع خاص، وارتقت أساليبها الفنية، وتنوعت المحاصيل، وانتشرت زراعة الفاكهة في أحواز بلنسية وأشبيلية، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ولا سيما صناعة الأقمشة الممتازة، والصناعات الجلدية، وصناعة الورق، وغيرها»⁽²⁾ فكانت مصانع الصناعات الجلدية في قرطبة، ومصانع الورق في شاطبة. وقد عرف ورق الكتان في اسبانيا منذ القرن الثاني عشر⁽³⁾ «وازدهرت التجارة وعم الرخاء. وكانت ثغور الأندلس بلنسية ودانية واشبيلية وأمرية ومالقة، من أعظم التجارة الخارجية في هذا العصر»⁽²⁾.

ومما يجدر ذكره أن بلدان الغرب الإسلامي في العصر الموحي قد ارتبطت مشاعرها وأفكارها، وتأثرت بعضها ببعض، لدرجة أنها أضحت كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وخاصة بعد أن تمكن الكفار من الاستيلاء على معظم ثغور الأندلس ورحل أهلها إلى إخوانهم - في الإيمان والعقيدة - حيث عاشوا متعاونين على السراء والضراء. وأصبحوا كما قال فيهم رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن: يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»⁽⁴⁾ وفي حديث آخر عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»⁽⁵⁾. وهكذا «تميز عصر الموحدين بامتزاج بلدان الغرب الإسلامي ووحدة تقاليدها الاجتماعية والثقافية وتأثير بعضها على بعض، وبلغ هذا الامتزاج ذروته حين استولى المسيحيون على معظم أجزاء

(1) أشباخ / تأريخ الأندلس ج 2 255 .

(2) عنان / نهاية الأندلس 439 .

(3) تأريخ الأندلس ج 2 252 .

(4) المنذري / مختصر سنن أبي داود ج 7 234 .

(5) الحافظ المنذري / مختصر صحيح مسلم ج 2 232 - صحيح البخاري ج 8 ص 14 طبعة الشعب.

الأندلس وهاجر كثير من أعلامها إلى المغرب وإفريقية والشرق، حاملين معهم ثقافتهم وحضارتهم. وكانوا من عوامل الإزدهار العلمي والأدبي في البلدان التي أقاموا فيها ونشروا بها علومهم وآدابهم⁽¹⁾. وكان ذلك في أوائل القرن السابع الهجري لما ضعف شأن الموحدين في المغرب والأندلس، وعمت دولتهم الثورات العارمة التي شملت قواعد الأندلس وثورته، الأمر الذي سبب انهيار الحكم الموحد. وعند ذلك «شعرت إسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة، وبدأت قواعد الأندلس التالدة، تسقط تباعاً في يد النصارى. وشغلت الأندلس بمحتتها الغامرة، وانصرفت إلى متابعة الجهاد، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت. فانكشفت فنون العلم، وتضاءلت دولة التفكير والأدب»⁽²⁾. بيد أنه لما سقطت دولة الموحدين، وهاجر كثير من رعاياها - تحت تأثير الاضطهاد المسيحي - إلى البلدان الإسلامية التي نجت من وقوعها في قبضة الكافر ورفضت التنصر والعيش تحت حكمه الجائر. ومن تلك البلدان التي استقر فيها المهاجرون مملكة غرناطة في الجنوبي الغربي من الدولة الإسلامية القديمة التي أسسها محمد بن الأحمر، زعيم بني نصر «بدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظل هذه المملكة الفتية الجديدة، وأخذت الحركة الفكرية في الاستقرار وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة. وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين، من حماة العلوم والآداب... وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء. واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر، بحمايته للعلم والأدب، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم»⁽³⁾.

(1) محمد بن شريفة / أبو المطرف أحمد بن عميرة الخزومي: حياته وآثاره ص 27 طبعة 1385 هـ. الرباط.

(2) عنان / نهاية الأندلس 439, 440.

(3) المرجع السابق ص 460.

وهكذا ظلت الأندلس أمينة على تراث أسلافها مخلصه في رعايته وحمايته إلى أن دارت عليها الدائرة، وسقطت آخر دولها في غرناطة على يد إسبانيا الكافرة سنة 897 هـ (1492 م). وكانت إسبانيا تهدف إلى سحق الأمة المغلوبة، والقضاء على عقيدتها وفكرها، وعلى جميع ما يربطها بماضيها الإسلامي التليد «وقد نجحت السياسية الإسبانية، يدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد، فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً، حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد، يستبدل دينه القديم - الإسلام - بالنصرانية المفروضة، ويتكلم القشتالية، وتغيض البقية الباقية من خصائصه القديمة، شيئاً فشيئاً، تحت ضغط التشريعات والاجراءات التعسفية المرهقة»⁽¹⁾. وبالرغم من هذا كله، فإن مسلمي الأندلس قد ظلوا تحت الحكم النصراني الظالم، لم يتنكروا لإسلامهم وماضيهم، بل استمروا يؤدون عباداتهم الإسلامية في خفية - كما بدأت الدعوة الإسلامية في جاهلية العرب الأولى - ويتكلمون بلغة قرآنهم ودينهم إلى أن صدرت القوانين الوحشية، التعسفية، تمنع التخاطب باللغة العربية، لغة الإسلام وعقيدته السمحة⁽¹⁾.

وقد أثارَت هذه المأساة - مأساة سقوط الأندلس وتكفير أهله - شاعرية أبي - البقاء الرندي. ففاضت بأبيات كلها أسى وحزن، فمن ذلك قوله:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحدٌ وانهد ثهلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى نخلت منه أقطار وبلدان
فسأل بلنسية: ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن؟؟⁽²⁾

تحدثنا - فيما سبق - عن دور المغرب والأندلس في صنع المفكرين والعلماء

(1) عنان / نهاية الأندلس ص 493، 494 .

(2) علي مظهر / محاكم التفتيش ص 134 طبعة 1366 هـ / 1947 م.

الذين نبغوا في كل العلوم والفنون، وتركوا فيها آثاراً مختلفة في فاس، وتونس، وقرطبة، وغيرها من المدن الهامة التي انضمت تحت لواء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، حيث أسهمت كل مدينة إسلامية بدورها في تكوين أجيال مثقفة، واعية، فنيغ في هذه المدينة القراء والمفسرون والمحدثون، وفي تلك النحاة والأدباء واللغويون، وفي غيرها الأطباء والمؤرخون والنباتيون، لدرجة أن أصبحت جميع هذه المدن تمثل مدرسة إسلامية واحدة، لها خصائصها الفكرية وثقافتها المتميزة، حيث كانت يضمها وطن إسلامي واحد، وأمة مسلمة واحدة تجمع أعضائها عقيدة واحدة، وفكر واحد، وشعور واحد، ونظام إسلامي واحد.. ولما دار الزمان دورته، وأحاطت بالمسلمين دوائره وصروفه من كل جانب، واستسلموا لأهوائهم وشياطينهم، فنسوا الله فأنساهم أنفسهم.. ووقعت بينهم الفتن والكوارث فتسلط عليهم الكفار ومزقهم شر ممزق. فجعلهم يتناحرون ويقتتلون ليخلو له الجو ويمعن في التحكم والتسلط والاضطهاد.. وكانت نتيجة ذلك كله أن سقطت ثغور المسلمين في الأندلس، وتعرضوا لأخطر مأساة عرفها التاريخ البشري. وفي هذا المعنى يتحدث الأستاذ محمد عنان فيقول: «يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحلها الأولى، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان. ولكنه يقدم إلينا في مراحلها الأخيرة، صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الجذود وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم، إلى معتك الهزيمة، والذلة والسقوط»⁽¹⁾. وأخذت الأندلس تواجه شبح الفناء والدمار، وهبت على أمة الإسلام رياح من الخوف والفرع، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً الواحدة بعد الأخرى - شرقاً وغرباً في يد العدو التقليدي، اسبانيا المسيحية وذلك منذ أوائل القرن السابع الهجري، فسقطت بياسة سنة (623 هـ - 1226 م) وجزيرة ميورقة سنة (627 هـ - 1229 م)، وبظليوس - في غرب الأندلس - سنة (627 هـ - 1230 م)، وماردة - في الغرب - (628 هـ - 1231 م) وأبدة (630 هـ - 1233 م) وقرطبة سنة (633 هـ -

(1) نهاية الأندلس / ص 16 .

1236 م) «وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها، قد سقطت في يد إسبانيا النصرانية»⁽¹⁾.

ولما كان الإمام القرطبي - رحمة الله تعالى عليه - قد ولد في قرطبة ونشأ فيها، وعاصر بداية حوادث سقوطها - كما يفهم من الحوادث التي ذكرها في تفسيره. والتي سنذكرها فيما بعد - فإننا ينبغي أن نستعرض - في شيء من الإيجاز - بعض الظروف التي أحاطت بقرطبة قبل وقوعها في قبضة العدو الغاصب، والدور الذي اضطلع به أهلها في سبيل صد عدوانه الآثم ومؤامراته التصفية التي يرمي من ورائها إلى إذابة الوجود الإسلامي وسحقه في أنحاء الأندلس جميعها.

وتبدأ قصة سقوط قرطبة بعد أن طوق فرديناند الثالث ملك قشتالة «مدينة أبدة بالآت الحصار حتى سلمت ودخلها القشتاليون في سبتمبر سنة 1234 م (631 هـ)، بعد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب»⁽²⁾. وبعد الاستيلاء على مدينة أبدة اتجهت نية فرديناند الخبيثة إلى احتلال أعرق مدن الأندلس ثقافةً وعلماً، وحضارةً ومدنيةً، التي ظلت قرونًا تحت حكم المسلمين ألا وهي مدينة قرطبة. فجمع فرديناند جموعه وقصد بهم قرطبة. ولما علم ضعف وسائل الدفاع بها «ضرب الحصار حول المدينة، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعي، يطلبون الغوث والإنجاد، وقدر ابن هود خطورة الموقف واعتزم في الحال أن يسير إلى إنجاد المدينة المحصورة، فسار في قواته نحو قرطبة، ونزل في استجة على مقربة منها، ولكنه لبث جامدًا لا يحاول الاشتباك مع النصارى. وفي بعض الروايات، أن ابن هود رأى جيش القشتاليين يفوقه في الأهبة والكثرة،

(1) عنان / نهاية الأندلس ص 20، 21 .

(2) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 182، 183 .

فنكل (1) عن الاشتباك معه. وفي بعضها الآخر (2) أن ابن هود، وصله وهو على مقربة قرطبة صريع أبي جميل زيان زعيم بلنسية لمعاونته ضد خايي ملك أراجون، الذي اشتد في مناوآته وارهاقه، ولاح له أن السير إلى بلنسية التي كان يطمع إلى امتلاكها أيسر وأجدى» (3) فترك قرطبة إلى مصيرها، وهو يعزي نفسه ويمينها بأن أهل قرطبة وهم كثرة حاشدة، قد يستطيعون رد النصارى، وأنه حتى إذا سلمت المدينة فإنه من الميسور استردادها، خصوصاً وأنه يتعذر على النصارى أن يكتنوا سلطانهم من السكان المسلمين. وكانت تضطرم في تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة (4) «ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحررياتهم، أعنف دفاع وأروع، ولكنهم اضطروا في النهاية، وبعد أن أرهقهم الحصار، وفقدوا كل أمل في الغوث والإنقاذ، إلى التسليم. ودخل القشتاليون قرطبة في 23 شوال سنة 633 هـ (29 يونيو سنة 1236 م) وفي الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة. وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية، وذلك إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام» (5). وهكذا فإنهم لم يتركوا مسجداً من مساجد المدينة التي يحتلونها إلا ويهدمونه ويحولونه - على الفور - إلى كنيسة يذكر فيها غير الله، وترفع فيها شعائر الكفر والضلال، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على حقارة معتقداتهم وأفكارهم، وعلى ما يضمرونه للمسلمين ودينهم من كراهية سوداء، وبغض أحمق. لأن هذه المساجد - في اعتقادهم - كانت تمثل أعظم المعاهد العلمية في ذلك الوقت، وكانت تمد المسلمين بروح الاستعلاء على الكفر وأهله، وتمنحهم القوة، المتمثلة في الفكر

(1) نكل: عن العدو وعن اليمين من باب دخل أي جبن. مختار الصحاح ص 679 .

(2) أنظر أيضاً أشباخ جـ 2 ص 185 .

(3) عنان/ نهاية الأندلس 33، 34 .

(4) أشباخ / تاريخ الأندلس جـ 2 ص 186 .

(5) نهاية الأندلس ص 34 .

الإسلامي الذي كان يشحذ أتباعه بالإيمان ورفض العبودية لغير الله، والامتثال لأنظمة البشر الفاسدة.

وهذا الموقف العدائي القديم يذكرنا بموقف عدائي، صليبي، حديث، وذلك عندما دخل القائد الفرنسي الجنرال غورو إلى دمشق سنة 1920 م - في الحروب الصليبية الآثمة - اتجه إلى ضريح القائد الإسلامي الكبير، صلاح الدين الأيوبي، وركله برجله، وقال قولته اللعينة القذرة «قم يا صلاح الدين فنحن هنا ولن نعود» وهو يريد أن يقول: إننا - يا صلاح الدين - قد استطعنا أن نقتل جنودك شر قتلة، ولكنها قتلة من نوع آخر، قتلة للفكر الإسلامي الذي كان يدمهم بأسباب القوة والنصر ويدفعهم إلى إزهاق الأرواح، المعادية، فاكثسوا لأمتهم الظفر والغلبة على الأعداء، وتحطمت أصنام الكفر على صخرة إيمانهم وثباتهم على مبدئهم الإسلامي الرفيع.

هذا هو دور المسجد في صنع المفكرين، الأمر الذي لم يجهله أعداء الإسلام في الأندلس، فحولوا كل المساجد إلى كنائس تعلق فيها الصليبان ويعبد فيها غير الله. وكان بقرطبة وحدها ما يقرب من ألفي مسجد «فالمساجد كلها قد هدمت، أو حولت إلى كنائس، أو بنيت فوق أنقاضها»⁽¹⁾ «الأمر الذي لم يفعله المسلمون إبان قوتهم وعظمتهم، إذ تركوا الكنائس لعبادة رعاياهم النصراري ويصف لنا الأستاذ عنان مواقف المسلمين تجاه هذه الكنائس، ويبين السر في اتخاذ هذه المواقف النبيلة حيال أمة تخالفهم في العقيدة والنظام «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»⁽²⁾ فيقول: «وقد لبث المسلمون قروناً سادة في هذه القواعد الأندلسية، ولم يفكروا في هدم هذه الآثار القديمة من رومانية أو غيرها، مع كونها وثنية أو نصرانية، والسر في ذلك بسيط واضح، هو أن المسلمين كانوا بعقليتهم المستنيرة، ودينهم السمح، يرون أن هذه الآثار إنما هي ذخائر فنية من تراث العصور الغابرة يجب

(1) عنان / الآثار الأندلسية ص 10 .

(2) البقرة من الآية 256 .

الابقاء عليها، وكانوا بذلك يرتفعون بالقيم الفنية إلى مستوى لا تصدع منه الاعتبارات الدينية. وهذه الاعتبارات الدينية الضيقة هي التي حملت السياسة الإسبانية في عصور التزمت والتعصب، على أن تقصد بالحو والإفناء الشامل كل ما خلفته الأمة الأندلسية من مساجد وصروح وآثار جليلة. وربما كان ثمة إلى جانب الاعتبارات الدينية، اعتبار معنوي آخر هو أن لا تبقى الأمة الغالبة على شيء أو على كثير من روائع الفن الأندلسي، حتى لا تكون شاهد أمام الأجيال اللاحقة. بما كانت عليه حضارة الأمة المغلوبة من مستوى رفيع باهر⁽¹⁾.

ولم يقف الأمر على قتل المسلمين وطردهم من ديارهم، وملاحقتهم بالأذى والتعذيب، بل تعداه إلى إحراق أئمن الكنوز التي خلفوها وراءهم، وهي مؤلفاتهم ومصنفاتهم في كل علم. وعلى رأس ذلك تفسير أقدس كتاب عرفه تأريخ الفكر الإيماني - كتاب الله سبحانه وتعالى - فقد «ذكر الفيلسوف (أرنست رنان) أنه وقف على ثبت يدل على أنه قد كان في إحدى مكاتب الأندلس التي أحرقت تفسير للقرآن في ثلاثمائة مجلد»⁽²⁾.

وكان أعداء الإسلام في الأندلس، لا يرحمون أحداً من المسلمين، ولا يفرقون بين المحاربين وغيرهم، بل كانوا يشنون حملاتهم الإبادية ضد الأمنين في بيوتهم ومزارعهم لتصفية الوجود الإسلامي في أندلس الإسلام المفقود.. وفي هذا السياق يذكر صاحبنا القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾⁽³⁾ في المسألة الخامسة أن العدو إذا هاجم قوماً في منزلهم - فجأة - ولم يعلموا به، فقتل منهم، فهل يكون حكم المقتول كحكم قتيل المعركة، أو حكم سائر الموتى؟، فيقول القرطبي:

«وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة - أعادها الله -: أغار العدو - قصمه الله -

(1) الآثار الأندلسية الباقية ص 12 .

(2) الرافعي / إعجاز القرآن ص 140 .

(3) آل عمران الآية 169 .

صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله⁽¹⁾. وذكر - بعد هذا - الحكم الشرعي في هذه المسألة، بعد أن سأل عنه بعض شيوخه وكبار علماء الإسلام.

ويبدو أن القرطبي - رحمه الله تعالى - كان شخصية عظيمة تشكل خطورة على الحكم الإسباني الغاصب. ولعله كان يمثل حركة تحررية من الحركات الإسلامية المجاهدة، المخلصة لدينها وأمتها. فيجمع حوله قادة التحرير الإسلامي ويدفع بهم إلى مواجهة الكافر وأعوانه الذين عاثوا فساداً في الأرض. وحكموا المسلمين بالحديد والنار. لهذا كله نرى أن أعداء القرطبي يطاردونه أينما حل، ويدبرون له المؤامرات والمكائد لقتله والقضاء عليه. وقد تحدث القرطبي نفسه عن ذلك. فبعد أن ذكر قصة حفظ الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ونجاته من مؤامرة قريش المشهورة، وقد خرج ينثر التراب على الأعداء، وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يس. والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم - إلى قوله - وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾⁽²⁾ بعد أن ذكر الإمام القرطبي ذلك قال: «ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منشور من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أنني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبني فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة (يس) وغير ذلك من القرآن. فعبراً عليّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا دَيْبِلُهُ، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك»⁽³⁾.

(1) الجامع لأحكام القرآن جـ 4 ص 272 .

(2) يس من الآية 1 إلى 9 .

(3) الجامع لأحكام القرآن جـ 10 ص 270 .

ولعل هروب القرطبي من قرطبة كان بداية لرحلة طويلة نحو الشرق الإسلامي حيث طاب له المقام واستقر في مصر - كما سنرى فيما بعد - .

وقد بلغت إهانة المسلمين وذلهم بالأندلس درجتها القصوى، إذ كان في إمكان العدد القليل - من الأعداء - أن يهزم أمامه العدد الكثير من المسلمين، كما شاهد القرطبي هذه الذلة غير مرة. فيقول بعد أن بين الهدف من قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽¹⁾ وهو التحريض على القتال واستشعار للصبر، واقتداء بمن صدق ربه:

«قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة، منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا»⁽²⁾ .

ولما كان المسلمون يدركون أن المرأة عرض يجب أن يسان، لهذا فقد دفعتهم غيرتهم الإسلامية عليها - امتثالاً لأمر الله تعالى - أن يبذلوا ما وسعهم من الحفاظ عليها ورعايتها حتى لا تقع أسيرة في أيدي الأعداء المغيرين الذين فقدوا أبسط المعاني الإنسانية. فراحوا يمتهنون المسلمات ويهتكون أعراضهن.. لهذه الأسباب جميعها فقد أسهم المسلمون بدور عظيم عند سقوط قرطبة - فبذلوا مساعيهم الطيبة لإنقاذ أخواتهم المسلمات من الوقوع تحت بطش وجبروت العدو الظالم. يقول القرطبي:

«ولقد أخبرني صاحبنا أبو القاسم - رحمه الله - أخو شيخنا أبو العباس أحمد ابن عمر - رحمه الله -: أنه ربط نحو من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في حبل واحد مخافة سبي العدو لما خرجوا من قرطبة - أعادها الله -»⁽³⁾ .

(1) البقرة من الآية 249 .

(2) الجامع لأحكام القرآن ج 3 ص 255 .

(3) التذكرة ص 639 .

وهكذا في 23 شوال سنة 633 هـ الموافق 29 يونية سنة 1236 م. «سقطت قرطبة في يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين خمسمائة وخمسة وعشرين عاماً»⁽¹⁾ وقد غادرها أهلها بقلوب تقطر دماً - من شدة المأساة وقوة الصدمة كما غادر مسلمو المدن الأخرى - التي سقطت تحت الاحتلال المسيحي - إلى البلاد الإسلامية في المغرب وشمال أفريقية والمشرق حيث عوضهم إخوانهم المسلمون هناك ما فقدوه من المال والأهل والبنين، وأكرمهم وأحسنوا إليهم، ذلك أن المسلمين - باعترافهم للإسلام - كانوا يمثلون عائلة إسلامية واحدة يفرح كل منهم لأخيه إذا أكرمه الله بالنعيم وحياة السعادة والاستقرار. ويتألمون إذا اشتكى أحدهم من ضر وقع به أو مصيبة أحاطت بدينه وأمته. لهذا فهم لا يعرفون الحدود الجغرافية المصطنعة التي أوجدها الكافر بعد نجاحه في تزيق المسلمين وتشيت شملهم وإثارة بعضهم ضد بعض، حتى أصبحوا كالدمى يحركها كيفما شاء وفي أي اتجاه يشاء.

وخلاصة القول: إن إخواننا - مسلمي الأندلس - حينما اشتدت عليهم وطأة الكافر وجبروته اضطروا إلى اللجوء إلى البلاد الإسلامية المجاورة في المغرب والمشرق. فراراً بدينهم وحفاظاً على كرامتهم وأعراضهم، وصيانة لأبنائهم من حركات التنصير التي اجتاحت الأندلس بعد أن عصفت به رياح الفرقة والتنازع والحن الأليمة المتكررة، والتي كان من أقسى نتائجها مطاردة المسلمين واضطهادهم - أينما حلوا - وارغامهم على الرحيل والهجرة، وأن يقتسم المحتلون الكفرة أملاكهم ودورهم. بعد أن أقاموا في الأندلس ما يزيد على ثمانية قرون، وسجل لهم التاريخ أنهم كانوا أعلى أمة في العالم وأرقى شعوب الأرض حضارة ومدنية وثقافة وعلماء، ونشروا في ربوعه الأمن والسلام والسماحة. وذلك حينما كانت دولة الإسلام لم تزال في عنفوان شبابها وقوتها، وحينما كان الإسلام غايتهم والجهاد في سبيله أسمى أمانهم..

(1) أشباخ / تاريخ الأندلس ج 2 ص 186 .

ويعصف الأستاذ محمد عبدالله عنان سياسة اسبانيا التنصيرية ووسائل العنف التي اتبعت لتنفيذ هذه السياسة، ومقاومة المسلمين لها فيقول:

«وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً، ولم تحجم السلطات الكنسية والمدنية، عن اتخاذ أشد وسائل العنف. ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تدمير ودون مقاومة. وسرت إليهم أعراض الثورة ولا سيما في المناطق الجبلية، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية. وكانت السياسة الأسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة، فألفت في التدمير والمقاومة سندها، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة، ولا سيما بعدما تبين من جنوحهم إلى الثورة، ومحاولتهم الاتصال بإخوانهم في المغرب ومصر وقسطنطينية، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية، ونفي المخالفين منهم من الأراضي الإسبانية»⁽¹⁾.

ظل المسلمون - خلال عصورهم المختلفة وقبل أن يتعرضوا للاستعمار الفكري الأوروبي وغزوه الثقافي - أمة واحدة، رغم المحن والفتن التي مروا بها، تعبد رباً واحداً، وتتجه نحو قبلة واحدة، وتؤمن بدين واحد، ويربطها رباط الإسلام المقدس، مهما تباينت أجناسها وتناوت ديارها، وهي كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾⁽²⁾. فهي أمة قد التحمت أفكارها ومشاعرها وأصبحت كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ذلك أن الذي ألفت بينهم وجمعهم على صعيد واحد، هو الإسلام، والإسلام وحده ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽³⁾ فالإسلام يحرص على اندماج المسلمين في جماعة واحدة ليكونوا قوة جبارة يخشاها أعداؤهم ويحسبوا لها ألف حساب. قال رسول

(1) نهاية الأندلس ص 322، 323 .

(2) الأنبياء الآية 92 .

(3) الأنفال الآية 63 .

الله ﷻ: (مالي أراكم عزيزين)⁽¹⁾ وقال: (إن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ القاصية والشاذة)⁽²⁾.

لهذه الاعتبارات الإسلامية كان المسلمون في الشرق الإسلامي يتطلعون - بشغف - إلى أبناء إخوتهم المسلمين في الغرب الإسلامي فيسرون لسرورهم واستقرارهم، ويتألمون لأحزانهم ومحنهم. وكان هذا الشعور متبادلاً - دائماً - بين المسلمين.. لهذا فلا غرابة إذا رحب المسلمون في المشرق وتونس والمغرب وغيرها بإخوانهم الوافدين عليهم من أندلسهم الضائع، وأحسنوا استقبالهم، وفتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم وآثاروهم على أنفسهم، وانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾⁽³⁾.

ولم يفكر المسلمون الأندلسيون حينما أحاطت بهم الكوارث، وأملت بهم الأزمات - من كل جانب - أن يرحلوا إلى بلدان الكفر: فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، وإنما آثروا اللجوء إلى بلادهم الإسلامية الأخرى في الشرق وفي الغرب للاعتبارات التي تحدثنا عنها - فيما سبق - والتي كانت مستوحاة من عقيدتهم الإسلامية.

لقد أورد الأستاذ أحمد خالد في مجلة الفكر التونسية أغراض رحلة الأندلسيين والمغاربة إلى الشرق الإسلامي، وحصرها في النقاط الثلاثة الآتية:

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ج 153، 152، 153 الطبعة الأولى 1347 هـ - القاهرة / النهاية في غريب الحديث ج 3 ص 94 . عزيزين: متفرقين جماعة جماعة. معناه النهي عن التفرق والأمر بالاجتماع. شرح النووي لصحيح مسلم ج 4 ص 153 .

(2) ابن الأثير / النهاية ج 260 3 (لفظ قصا). الشاذة: المنفردة عن القطيع يريد أن الشيطان يتسلط على الخارج من الجماعة وأهل السنة. النهاية ج 3 ص 260 .

(3) الحشر الآية 9 .

1 - أداء فريضة الحج.

2 - طلب العلم، والشرق كان موطن العلم.

3 - حنين المسلمين إلى البلاد المشرقية⁽¹⁾.

ويضاف إلى ذلك هدف آخر من أهداف تلك الرحلة المباركة وهو: ضغط المسيحيين على مسلمي الأندلس والتنكيل بهم «وكانت الرحلة في طلب العلم تقليداً من تقاليد المجتمع العربي الإسلامي، فإذا برز عالم في مدينة من المدن جلب الشهرة لمدينته، ومن هنا نسبت الغالبية العظمى من علماء الإسلام إلى مدنهم كالدمشقي والمقدسي والسيوطي... والقرطبي⁽²⁾... الخ».

وكان الرحالة الأندلسيون والمغاربة - غالباً - ما يطيب لهم المقام إلا في الإسكندرية، إذ كانت ثغراً هاماً من الثغور الإسلامية يتمتع بموقع جغرافي عظيم. وكان المسلمون يعتقدون أن الإقامة في تلك الثغور ضرب من الجهاد في سبيل الله، لأن المدينة الإسلامية التي لها ثغور، هي أول ما تتعرض لهجوم الأعداء وشن حملاتهم.. ولهذا فالمسلمون المقيمون بها متأهبون لرد العدوان ومستعدون للتضحية حفاظاً على دينهم وأعراضهم وكرامتهم. يقول الدكتور جمال الدين الشيال في هذا السياق:

«كان لموقع مدينة الإسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس في العصور الوسطى، فالإسكندرية كانت ثغراً من الثغور الإسلامية الهامة، وكانت رباطاً كبيراً ترابط فيها - منذ دخلها المسلمون - حامية مسلحة كبيرة»⁽³⁾ «فالمسلمون الأولون كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد، ومن يموت أثناء مقامه فيها فهو شهيد، ولهذا

(1) تحت عنوان: «عناصر مذهب الموحدين» العدد 8 مايو 1959 م السنة 4 ص 9 .

(2) د. جمال الدين الشيال / من أعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي ص 7 .

(3) المرجع السابق ص 50، 51 .

جذبت الإسكندرية إليها في العصور الإسلامية الأولى عدداً كبيراً من المسلمين ومن العلماء بوجه خاص، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص».

وكانت نفوس مسلمي المغرب والأندلس تتطلع إلى الشرق الإسلامي، مقر الدعوة الإسلامية، ومنبت المعاهد العلمية المختلفة. فكانوا - دائماً - في شوق شديد إلى الرحلة إلى بلادهم المشرقية: «ويُكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الإسكندرية، الرباط والثغر الإسلامي الكبير، يصلون إليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية عبر الصحراء حيناً، وعلى ظهور السفن حيناً آخر. وكانوا إذا وصلوا إليها أقاموا فيها فأطالوا الإقامة، طلباً للراحة من عناء السفر، ولزيارة معالمها التاريخية التي كانت تبهرهم وقتذاك... ولكن كثيراً منهم - وخاصة العلماء وطلاب العلم - كانوا يؤثرون البقاء في الإسكندرية واتخاذها وطناً ودار إقامة لينالوا شرف المقام في هذا الثغر والرباط العظيم وليستزيدوا من علم يطلبونه أو لينشروا علماً حصلوه»⁽¹⁾ وفي هذه البيئة العلمية نشأ كثير من علماء الإسلام الذين شاركوا مشاركة فعالة في بناء النهضة، وخطوا بالإنسانية خطوات فسيحة في سبيل الرقي والتقدم، وفي الحق إنه لميراث ضخم مشرف يحق لنا أن نفاخر به»⁽²⁾.

ولعل السبب المباشر لإقامة الوافدين في الإسكندرية هو رغبتهم في بناء تعاون علمي مع مسلمي المشرق، وما لمسوه منهم من الإخاء والتقدير، وما أحاطوهم به من الرعاية والعناية، ذلك أنهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم قادة الجهاد الإسلامي المقدس، الذين قد واجهوا أشنع حملة مسيحية، وأعنف المعارك بين الكفر والإيمان. فالمسلمون في مصر - في القرون الوسطى - كانوا «ينظرون إلى الوافدين على بلادهم من الأندلس وشمال أفريقية، نظرة عطف وتقدير. وكانت لهؤلاء الوافدين منزلة حسنة في نفوسهم، إذ كانوا يتمتعون، متى حلوا في ديارهم - بأفضل

(1) د. الشيال / من أعلام الإسكندرية ص 52 .

(2) د. عبد الحلیم منتصر / التراث العلمي العربي ص 22 . مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الرابع والعشرون سنة 1388 هـ - القاهرة.

ما يتمتع به امرؤ بين أهله وعشيرته. وكان السبب في هذا العطف وهذا التقدير، راجعاً إلى أن المصريين كانوا يرون في سكان الأندلس وأهالي شمال أفريقيا ما يرونه في الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، العاملين على أن تكون كلمته هي العليا، من الإجلال والإكبار، واعتبارهم من أبطال الإسلام، لأنهم كانوا إذ ذاك محوطين بالأعداء المغيرين، الذين يتحينون كل فرصة للاستيلاء، وإجلالهم عن ديارهم. فهم كانوا مرابطين في ثغر من أهم الثغور الإسلامية التي يجب حفظها والدفاع عنها بالنفس والنفيس»⁽¹⁾ ولا نعجب من هذا الشعور الأخوي الفياض - إذا علمنا أن الشرق نفسه كان يعاني أصعب فترات حياته التاريخية، ويمر بمرحلة خطيرة من مراحل وجوده على هذه البسيطة، حيث كانت الحروب الصليبية على أشدها، والغزوات البربرية التتارية تنذرته بالإفناء والتدمير. وكادت تعصف به رياح الانتقام والاضطهاد لو لم يرسل الله - سبحانه وتعالى - رحمته ولطفه، فهياً سيف - الدين قطز - سلطان المسلمين في مصر والشام للتصدي لها، والوقوف ضدها فألحق بها الهزائم الفادحة، وردّها على أعقابها ذليلة، خاسرة في إحدى معارك الإسلام الكبرى، بـ «عين جالوت» سنة 656 هجرية.

وكانت العقيدة الإسلامية هي الرابطة الوحيدة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وتخلق فيهم الإيثار والإخلاص والصدق، ولهذا فإن المسلمين بمصر «حظي عندهم الأندلسيون والمغاربة بمنزلة حسنة للغاية، وقد ساعد على ذلك أن الدين الإسلامي لا يعترف بحدود أو حواجز بين الأمم والأجناس التي تعتنقه وتشهد بوحداية الله تعالى، فهو أمة واحدة وجنسية واحدة، تستغرق الأمم والأجناس التي تنضوي تحت قول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)⁽²⁾ صلى الله عليه وسلم. فكان المسلمون الوافدون إلى الديار المصرية «بهذا الروح يرون في أهل مصر (أهلاً بأهل،

(1) حسن السنديوي / أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالإسكندرية ص 9، 10، 12 طبعة سنة

1944 م.

(2) د. محمد بن شريفة / أبو المطرف أحمد بن عميرة ص 28 .

وجيراناً بجيران)»⁽¹⁾. وبالطبع فقد حملوا معهم «ثقافتهم وحضارتهم. وكانوا من عوامل الازدهار العلمي والأدبي في البلدان التي أقاموا فيها ونشروا بها علومهم وآدابهم»⁽¹⁾. فمثلاً قد «سعدت بلاد المغرب بمن وصل إليها من الأندلسيين، وخاصة تونس التي فتحت أبوابها لهم: فنهضت زراعتها، وظهرت صناعتها، وبرز عمرانها، ونشطت حضارتها، من بنايات على الطراز الأندلسي، وعمارات على أحسن شكل هندسي»⁽²⁾. وهكذا كان حالهم في كل بلد إسلامي يقيمون فيه. فهم شعلة متوقدة من النشاط والحياة في مجالات الحياة المختلفة، وبذلك ضموا جهودهم المضنية، المخلصة، إلى جهود إخوانهم المقيمين معهم، وتمخضت عن هذه الجهود الأخوية المشتركة (الحضارة الإسلامية) الرائعة التي تجلت «في العلوم والفنون والصناعات كما تجلت في الآداب»⁽²⁾.

وكان من أولئك الوافدين إلى مصر الإسلامية عالم من علماء الإسلام الأجلاء وأحد أبنائها البررة الذين فروا من قسوة ووحشية النصارى بالأندلس، ذلك هو الإمام العلامة محمد بن أحمد القرطبي. قال عنه الذهبي: «رحل وكتب وسمع وكان يقظاً، فهماً، حسن الحفظ، مليح النظم، حسن المذاكرة، ثقة، حافظاً»⁽³⁾ وذكر أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرئ (المتوفى سنة 1041 هـ) في كتابه التاريخي الجامع: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أن القرطبي - رحمه الله تعالى - من العلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق الإسلامي، حيث اتجهت عزيمته إلى الإقامة بمصر واستقر بإحدى مدنها الهامة، وهي منية بني الحصيب التي توفي بها سنة 671 هـ. ولم نعثر - فيما بين أيدينا من مصادر - على تاريخ رحلته هذه تفصيلاً، بحث يتبين لنا خط سيره فيها، والوسيلة التي أقلته إلى المشرق،

(1) البتنوني / رحلة الأندلس ص 169، 170 .

(2) أحمد العظمة / الحضارة الإسلامية ص 60 مجلة الشهاب العدد الأول 1367 هـ / 1947 م - القاهرة.

(3) المقرئ / نفح الطيب ج 2 ص 410 .

والبلاد التي أقام فيها أثناء سفره، والعلماء الذين قابلهم واستفاد منهم، واستفادوا منه، ومتى وفد إلى مصر ومع من وفد؟؟ كل هذه الأمور، لا تزال - بالنسبة لنا - مجهولة وأن المصادر والمراجع - التي بين أيدينا - لم تسعفنا في توضيحها وبيان معالم تلك الرحلة القرطبية.. وعلى العموم فقد وصل الإمام القرطبي إلى مصر وعاصر بعض ظروف حياتها السياسية والثقافية في مدن الإسكندرية والمنصورة ومدينة بني الخصب.. ونوه بذكر بعضها في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) مما سنعرض له - في إيجاز - فيما يلي:

ليس لدينا سند تاريخي يحدد لنا - بصورة يقينية - الفترة التاريخية التي خرج فيها القرطبي مهاجراً من قرطبة، والتي دخل فيها مصر، حين وفد عليها مع علماء الأندلس الكثيرين. الذين غادروا بعد مأساته ومحنته الأليمة التي ألمت به. وعصفت بأبنائه رياح الانتقام المسيحي البغيض، فاستعمرت بلادهم، وشردوا منها. ليس لنا سند في ذلك سوى بعض الترجمات التي ربما - تقرب لنا صورة تلك الفترة التاريخية التي نحن بصدد الحديث عنها. فنستطيع على ضوءها أن نعرف الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تحيط بمصر الإسلامية في الوقت الذي وفد إليها القرطبي واستقر في إحدى مدنها.

لقد أشرنا - فيما سبق⁽¹⁾ - أن القرطبي قد واجه مطاردة عنيفة من قبل جنود أسبانيا النصرانية. فخرج هارباً من حصن منثور - من أعمال قرطبة - إلى أرض الله الواسعة - حيث لا استعباد ولا اضطهاد - فلحقه الأعداء لقتله والقضاء عليه. ولكن الله خيب ظنهم، ونجى صاحبنا القرطبي من الموت المحقق به، ليشارك في بناء صرح أمته الثقافي والفكري. فقد خلف لها خلاصة فكره، وغزارة فقهه، وروعة ثقافته، في كتابه العظيم (الجامع لأحكام القرآن). من هذا الحدث التاريخي نرجح أن خروج القرطبي من مسقط رأسه - قرطبة - كان بعد أن وقعت مدينته هذه في يد الإسبان

(1) أنظر ص 44 من هذا الكتاب.

المسيحيين في شوال سنة 633 هـ الموافق يونيه سنة 1236 م. كما أننا نرجح أنه دخل مصر - أو بتعبير أدق - الإسكندرية قبل سنة 648 هـ، إذ في هذه السنة قد توفي شيخه الحاج الراوية أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح القرشي، المعروف بابن رواج الذي سمع منه وحده الكثير بمسجده بثغر الإسكندرية. كما يذكر في كتابيه: (التذكار في أفضل الأذكار)⁽¹⁾ و(التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)⁽²⁾ في مواضع كثيرة منهما.

ومن البديهي أن التلمذة تحتاج إلى فترة زمنية ليتمكن الطالب من النبوغ والتمرس بالعلم الذي يتلقاه عن شيخه.. لهذه الاعتبارات فإننا سنقتصر الحديث عن بعض الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية في مصر، وما تبعها من بلدان إسلامية في الشام، في القرن السابع الهجري.

وكانت مصر الإسلامية ولاية تابعة للخلافة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة (11 هـ - 40 هـ) ثم في العصرين الأموي (40 هـ - 132 هـ) والعباسي (132 هـ - 254 هـ). وفي نهاية خلفاء بني العباس قامت عدة دول في مصر، حيث انفصلت عن الخلافة الإسلامية في بغداد، واستقلت عنها سياسياً. وهذه الدول هي: الدولة الطولونية (254 هـ - 324 هـ) والإخشيدية (324 هـ - 358 هـ) والفاطمية (358 هـ - 566 هـ) والأيوبية (566 هـ - 648 هـ) ودولة المماليك البحرية (648 هـ - 784 هـ).. ولما كان القرطبي قد عاصر فترة من عمر الدولتين: الأيوبية والمملوكية. وأفصح عن رأيه في سلاطين المماليك، وما جلبوه لمصر من الفساد والإرهاب والبطش⁽³⁾... فإننا سنفصل القول للحديث عن الملامح السياسية والاجتماعية والثقافية لهاتين الدولتين، وعلى وجه الخصوص دولة المماليك البحرية

(1) أنظر مثلاً ص 66، 101 .

(2) أنظر ص 187، 262 .

(3) أنظر الجامع لأحكام القرآن جـ 13 ص 124، 125 .

التي عاش القرطبي - في ظلها - فترة طويلة من حياته.. ولما كانت دولة المماليك هذه قد قامت على أنقاض الدولة الأيوبية، حيث كان هؤلاء المماليك موالى في البلاط الأيوبي، فإننا سنشير - بشيء من الإيجاز - عن بعض ما يتعلق بدولة بني أيوب تلك، من النواحي السياسية والثقافية، وعن الظروف التي أحاطت بها، والأزمات الداخلية والخارجية التي مهدت لانحلالها وانهارها، وخروجها من المسرح السياسي الذي تربع عليه - بعد ذلك - المماليك الأتراك.

أقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولته، بعد أن زالت الدولة الفاطمية سنة 566 هـ ذات المذهب الشيعي الذي حل محله المذهب السني، حيث شرع صلاح الدين «في نصره أهل السنة وتوهين أهل البدعة والانتقام من الروافض وكانوا أكثر من في أرض مصر يومئذ»⁽¹⁾ ولم يكتف بذلك بل «عزل قضاة مصر كلهم، لأنهم كانوا شيعة»⁽¹⁾.

بيد أن هذا المسلك السياسي قد أثار حفيظة الفاطميين الشيعة فبدأوا يحيكون المؤمرات والدسائس للانقضاض على هذه الدولة السنية في مهدها. واستعانوا في ذلك بأمة كافرة جاءت إلى الشرق الإسلامي، تحمل معها الصليب، للقضاء على الإسلام وأتباعه المؤمنين به. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمد سيد كيلاني:

«ولما ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية، اجتمع نفر من أنصار الفاطميين وأرسلوا إلى الصليبيين في الشام وإلى صاحب صقلية طالبين منهم تجريد حملة على مصر لإرجاع الخلافة الفاطمية إليها، وطرده صلاح الدين منها. وبناء على هذا قدم إلى ثغر الإسكندرية أسطول عظيم من جزيرة صقلية قوامه ثلاثمائة سفينة، ولكنه لم يقو على الاستيلاء على المدينة، وذلك لبلاء أهلها في الدفاع عنها. فغادر

(1) الشرقاوي / تحفة الناظرين ص 121 .

الإسكندرية في عام 570 هـ»⁽¹⁾ .

وقد مكن الله تعالى لصلاح الدين من أعدائه ويسر له «فتح بلاد الشام كلها وفتح بيت المقدس سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بعد استيلاء الإفرنج عليه. وعلى الخليل إحدى وسبعين سنة. وهدم ما أحدثوه من الكنائس وبنى موضع كنيسة منها مدرسة للشافعية. وكان يقدمهم لكونه كان شافعيًا وأبطل المكوس والمظالم وأخلى ما بين الشام ومصر من الإفرنج»⁽²⁾ .

وهكذا سار القائد المسلم، العظيم يحقق لأمته الانتصارات الباهرة «وكان أعظم هذه الانتصارات وقعة حطين عام 583 هـ التي قتل فيها جم غفير من الصليبيين، وأسر منهم ما لا يحصى. وكان من جملة الأسرى ملك بيت المقدس.. وقد أحدث دخول المسلمين بيت المقدس رنة فرح تردد صداها في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فذهب الشعراء من كل صوب وأخذوا يتبارون في نظم آيات المدح لهذا البطل العظيم الذي طهر المسجد الأقصى من دنس الكفر والطغيان»⁽³⁾ . ومن ذلك قول العماد الأصفهاني، بعد انتصاره في حطين واستيلائه على القدس: نزعنا لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا وعادت ببيت الله أحكام دينه فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا⁽¹⁾

وكانت الروح القتالية التي تدفع الصليبيين لمواجهة المسلمين، هي الروح الصليبية البغيضة، التي تكن للمسلمين الحقد والكراهية، وتدبر لهم المكائد والمؤامرات. وكان هؤلاء الصليبيون قد تجمعوا في صور بعد أن تم للمسلمين الاستيلاء على حصون الإفرنج بالشام. وبدأت ترد إليهم السفن من أوروبا محملة بالمؤن والعتاد والمقاتلين «ثم بعثوا أسقف صور إلى أوروبا ليحض أهلها على النهوض

(1) الحروب الصليبية ص 210 .

(2) الشرقاوي / تحفة الناظرين ص 122 .

(3) محمد سيد كيلاني / الحروب الصليبية ص 24, 26, 27 .

لمساعدة إخوانهم في الشرق. وليشرح لهم مركز الصليبيين في الشام بعد سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين» وفي عام 586 هـ زحف الصليبيون نحو عكا في خلق لا يحصون، ومعهم من عدد القتال شيء كثير واستبسل الفريقان في النزال والطعان دون أن يصل أحدهما إلى نتيجة حاسمة». وكان يقود هذه الحملة الصليبية (ريكاردوس) الذي اتجه نحو الديار المصرية لاحتلالها. بيد أن السلطان صلاح الدين انتهز هذه الفرصة واتجه نحو يافا فأخذها. وغنم المسلمون فيها غنائم لا تحصى «وحدث أن ريكاردوس مرض، ثم وصلته أخبار سيئة عن بلاده. فسعى إلى عقد الصلح مع المسلمين. وتم ذلك في 588 هـ. وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً وفي سنة 589 هـ انتقل صلاح الدين الأيوبي إلى الرقيق الأعلى، فتألم المسلمون لذلك وحزنوا حزناً شديداً.

وبعد وفاة صلاح الدين - رحمة الله تعالى عليه - تغير مجرى الحياة السياسية لدولة بني أيوب، إذ قسمت هذه الدولة بين أبنائه الذين دب التنازع والصراع فيما بينهم. وتكررت المأساة الأليمة في الشرق الإسلامي، وهي التي شاهدنا مثلها في الغرب الإسلامي، وذلك لطغيان شهوة التسلط على الحكم في النفوس التي كانت تطمع في أن يكون زمام الحكم بيدها. وبدأت - نتيجة لذلك - تظهر الفتن والثورات وعزم الثائرون على الاستعانة بأعدائهم وأعداء أمتهم الإسلامية التي تمزقت وحدثها، وانفصمت عرى الود والإخاء بين أبنائها.

لهذا، فعندما وصلت دمياط، الجيوش الصليبية من فرنسا وإيطاليا، وعزمت على غزو الديار المصرية في عصر الملك الكامل أبي الفتح ناصر الدين محمد سنة 615 هـ. استطاع الكامل أن ينتصر عليها. بيد أن المسلمين في الشام انهزموا أمام العدو الصليبي «وذلك بسبب اختلاف الأيوبيين وتنازعهم فيما بينهم. وطمع كل منهم في ملك الآخر. فشرع بعضهم يغزو بعضاً، وتحالف بعضهم مع الصليبيين على بعضهم الآخر. وهكذا استطاع الإفرنج أن يستولوا على القدس صلحاً في عام

625 هـ. وفي عام 637 هـ استطاع الملك الناصر صاحب الكرك أن يسترد القدس من أيدي الصليبيين⁽¹⁾. وفي سنة 616 هـ أعاد الصليبيون عدوانهم على دمياط حيث «قتلوا وأسروا من بها. وجعلوا الجامع كنيسة، وطمعوا في الديار المصرية. فحينئذ بنى الملك الكامل المنصورة عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طنّاج ونزلها بعساكره»⁽²⁾.

وكان الحقد الدفين في نفوس أعداء الإسلام يدفعهم إلى الإنتقام والعسف والجبروت.. فما من بلد إسلامي تطوّه أقدامهم، إلا وقد حولوا مساجده إلى كنائس، تماماً، كما فعل أسلافهم في اسبانيا النصرانية. وكأن المخطط الصليبي المسيحي يسير في خط واحد، ولتحقيق غاية واحدة، وهي القضاء على الإسلام وأحكامه العادلة، واستعباد المسلمين. فبعد أن وصلوا إلى دمياط سنة 615 هـ «أعملوا السيف في رقاب أهلها وحولوا المساجد إلى كنائس»⁽³⁾. وهكذا سيظل الصراع قائماً بين الكفر والإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولم يرضخ المسلمون أو يستسلموا للأمر الواقع، بل دفعتهم عقيدتهم الإسلامية إلى تطهير أرضهم من نجس الكافرين وتخليصها من استعبادهم ووحشيتهم. ففي سنة 618 هـ فكر الصليبيون في احتلال مصر، ووصلوا المنصورة حيث اشتد القتال بينهم وبين المسلمين برأً وبحراً. وعندما وصل خبر هذا القتال إلى المسلمين بالشام «سار المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إلى أخيه الأشرف»⁽⁴⁾ بيلاده - الشرقية وطلب منه المسير إلى أخيهما الكامل. فجمع الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب واستصحب الناصر صاحب حماه.. واستصحب أيضاً الأمجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه بن محمد بن

(1) محمد كيلاني / الحروب الصليبية ص 29 .

(2) ابن الوردي / تمة المختصر ج 2 ص 137 .

(3) محمد كيلاني / الحروب الصليبية ص 28 .

(4) في حران.

شيركوه صاحب حمص وسار المعظم بعسكر دمشق ووصلوا إلى الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة فركب وتلقاهم وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعف الفرنج مما شاهدوه من كثرة عساكر الإسلام وتحملهم واشتد القتال بين الفريقين⁽¹⁾.

وبينما رحى المعركة دائرة بين عباد الصليب وعباد الله، ظهرت بعض المساعي من قبل الملك الكامل للصلح بينه وبين المعتدين، يتنازل فيه عن القدس وعسقلان واللاذقية باستثناء الكرك والشوبك، في مقابل انسحابهم من دمياط، فرفضوا ذلك، وطلبوا تسليم الكرك والشوبك «وبينما الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون، إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من دمياط فحفروا حفرة عظيمة من النيل لزيادة قوته والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل فركب الماء تلك الأرض وصار حائلاً بين الفرنج ودمياط»⁽²⁾. وأصبح الكفار محصورين فقل طعامهم ونفذت ذخيرتهم فأصابهم الجوع والخوف واضطروا إلى عقد الصلح، ينسحبون بموجبه من مصر دون أن ينالوا شيئاً⁽³⁾. وفي سنة 629 هجرية اجتمع الملك الكامل مع أهل بيته، وسار من مصر لحصار (آمد) التي تسلمها من الملك المسعود بن الصالح محمود، كما تسلم منه حصن (كيفنا)، وذلك لسيرته السيئة وتعرضه لحريم الناس. وأقطعه بمصر «أقطاعاً جليلاً وأحسن إليه. ثم بدت منه أمور اعتقله الكامل بسببها. ولما مات الكامل خرج من الاعتقال ثم اتصل بالتر فقتلوه. وجعل الكامل في مملكة (آمد) ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه شمس الدين صواب العادلي»⁽⁴⁾. وقد توفي الملك الكامل سنة 635 هـ بعد أن حكم عشرين سنة، ودفن بدمشق. وتولى بعده ابنه العادل أبو بكر الذي «خلع وسجن

(1) ابن الوردي / تنمة المختصر ص 142 .

(2) ابن الوردي / تنمة المختصر ج 2 ص 142, 143 .

(3) كيلاني / الحروب الصليبية ص 29 بتصرف.

(4) تنمة المختصر ج 2 ص 158 .

سنة تسع وثلاثين وستمائة. وقتل بعد ذلك»⁽¹⁾ «وتولى من بعده أخوه الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فأقام عشر سنين إلا أربعة أشهر»⁽¹⁾. وفي زمنه توترت العلاقات بينه وبين عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق الذي سلم (صفد) و(الشقيف) إلى الصليبيين ليساندوه في غزو مصر. فلذلك شنع عليه الشيخان عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وجمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، وخافا منه، فسافرا إلى مصر سنة 638 هـ.

أما في سنة 641 هـ فقد تمت بينهما المراسلة من أجل أن يصطلحا وتعود المياه إلى مجاريها. وأن يطلق صاحب دمشق سراح المغيث فتح الدين عمر ابن صاحب مصر وحسام الدين بن أبي علي الهذباني «وكانا معتقلين عند الصالح إسماعيل. فأطلق حسام الدين بن أبي علي وجهه إلى مصر. واستمر المغيث في الاعتقال»⁽¹⁾ إلى أن مات في سجن قلعة دمشق⁽³⁾. وفي هذه السنة أيضاً «اتفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين... ووافقا الفرنج على أنهما يكونان عوناً لهم على الملك الصالح نجم الدين وواعداهم أن يسلما إليهم القدس. وسلماهم طبرية وعسقلان. فعبر الفرنج قلعتيهما وحصونهما، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها بالخمير، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى»⁽⁴⁾.

وفي السنة التي توفي فيها الملك الصالح أيوب وهي سنة 647 هـ واجهت مصر الإسلامية أشرس حملة صليبية، وهي الحملة السابعة التي قامت «من أوروبا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وقصدت غزو مصر، فوصلت إلى دمياط فلم يلبث أهلها قليلاً حتى هربوا فخلت المدينة فدخلها الغزاة في عام 647 هـ»⁽⁵⁾.

(1) الشرقاوي / تحفة الناظرين ص 126، 125 .

(2) ابن الوردي / تمة المختصر ج 2 ص 173 .

(3) المقرئزي / السلوك ج 1 القسم الثاني ص 342 .

(4) المرجع السابق 314، 315 .

(5) كيلاني / الحروب الصليبية ص 30 .

بيد أن أبناء هذا الغزو الصليبي قد وصلت إلى أهل القاهرة ومصر، فانزعجوا لذلك انزعاجاً عظيماً، ويمسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر، وقدمت الشواني المصرية بالعدد الكاملة والجند. وتدقق المسلمون - من كل النواحي - للانخراط في حركة الجهاد الإسلامية المقدسة. والتقوا مع الإفرنج يقاتلونهم ويغيرون عليهم⁽¹⁾. وفي هذه الأثناء توفي الملك الصالح بالمنصورة. وأخفت جاريتها شجرة الدر خبير وفاته - في هذه الظروف الحرجة - وأقامت في السلطنة تحكم مدة ثلاثة أشهر، إلى أن تولى الحكم الملك الأشرف موسى بن الملك الكامل. ولكن الفرنج علموا بوفاة الملك الصالح واتجهوا ناحية فارسكور، والتحموا مع المسلمين، غير أن المماليك البحرية حملوا عليهم حملة صدقوا بها اللقاء حتى أزالوهم عن مواقعهم فانهزموا. وكان من جملةهم الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي أبلى بلاءً حسناً في هذه المعركة. وفي أثناء هذه الفترة حضر السلطان توران شاه، واستقر بقصر المنصورة فأحاط بالفرنج وظفر منهم باثنتين وخمسين مركباً، وقتل وأسر ألف رجل. وانقطعت الميرة عن الفرنج الذين فروا وقد حل بهم الخزي والعار وتسلم المسلمون دمياط، وأعلنوا فيها كلمة التوحيد والإسلام بعد أن ظل بها الأعداء أحد عشر شهراً وسبعة أيام⁽²⁾.

وبعد أن توفي الملك المعظم توران شاه تزوجت شجرة الدر بالأمير عز الدين أيبك التركماني في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة 648 هـ. وظل حكم مصر في يده إلى أن ساءت العلاقات الزوجية بينهما. وأبعد أيبك زوجته شجرة الدر عن جو الحياة السياسية. فدبرت له مؤامرة لقتله، وقتلته قتلة غير إنسانية في شهر ربيع الأول سنة 655 هـ، بيد أن جواري ابنه نور الدين المنصور - الذي تولى بعده الحكم - قتلته ولم تدفن إلا بعد أن نتنت⁽³⁾.

(1) السلوك جـ 1 القسم الثاني ص 336, 337 .

(2) الإسحاقى / أخبار الأول 137, 138 .

(3) السلوك جـ 1 القسم الثاني 404 .

وكان الأمير سيف الدين قطز قد نافس الملك المنصور حكم البلاد، إذ تطلعت نفسه إلى خلعه خاصة بعد أن استفحل أمر التتار واستولوا على حلب والشام.

ورأى قطز أنه لا بد من مواجهتهم وإخراجهم من ديار الإسلام «فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل احد، وينتصب للجهاد في التتار، فأجابه الجميع: ليس لها غيرك»⁽¹⁾ فاعتقل قطز الملك المنصور وبايعته الأمة على تولي شئون حكم مصر وذلك في يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة سنة 657 هـ.

وفي فترة سقوط بغداد في أيدي التتار كان خليفتها المستعصم يتميز باللين وضعف الرأي. فعرض - نتيجة لذلك - نفسه وأمه للزوال والاندثار وانتهاك الأعراض وتخريب البيوت والعمار. حتى أن (هولاكو) منع المسلمين من الإعلان بالآذان بعد أن أريقتم الخمر في المساجد⁽²⁾. وكان لسقوط بغداد في قبضة التتر أثره العميق، ووقعه الأليم في نفوس المسلمين وعلمائهم الذين عاصروا تلك النكبة ودونوها في مؤلفاتهم.. ومن هؤلاء الإمام الكبير أبو عبدالله القرطبي الذي يذكر ما أصاب المسلمين في هذا الخطب المفجع، إذ أن العدو قد «قتل من كان فيها وسباه، وذلك عمود الإسلام وماؤه، فانتشر الخوف وعظم الكرب وعم الرعب وكثر الحزن بانتشار التتر في البلاد وبقي الناس حيارى سكارى بغير خليفة ولا إمام فزادت المحنة وعظمت الفتنة إن لم يتدارك الله سبحانه بالعمو والفضل والمنة»⁽³⁾ وهكذا حفل هذا العصر إلى جانب الحروب الصليبية بغزو تترى مدمر كاد أن يمحو الإسلام من فوق

(1) ابن بردى الأتابكي / النجوم الزاهرة ج 7 ص 55 .

(2) السبكي / طبقات الشافعية ج 5، 109، 110 .

(3) التذكرة 636، 637 .

البيسطة، لولا أن صد تياره أولئك الأبطال الذين صدوا تيار الصليبيين⁽¹⁾ ؛ إنهم المماليك البحرية الذين سجل لهم التاريخ الإسلامي صفحة ناصعة، مشرقة، ولن ينسى لهم المسلمون - عبر عصورهم المختلفة ذلك الموقف البطولي الذي أبدوه حين تعرضت بلادهم الإسلامية في الشام لأقصى أنواع، التعذيب والاضطهاد والأذى. وخرجت الجيوش الإسلامية من مصر في آخر شهر شعبان سنة 658 هـ الموافق 3 سبتمبر سنة 1260 م بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز الذي «جدّ في السير إلى أن وصل عين جالوت من أرض كنعان فالتقى بالتيار هناك. ووقع بينهم القتال»⁽²⁾ «وانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم (كتبغا)⁽³⁾ وأسر ابنه، وتعلق من سلم منهم برؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأفنؤهم وهرب من سلم إلى الشرق وجرّد قطز ببيرس البندقداري في أثرهم فتبعهم إلى (أطراف)⁽⁴⁾».

ولم ينس الإمام القرطبي أن يسجل هذا الحادث التأريخي الخطير، وقد عاصره. فذكر أن أولئك التتر قد اقتحموا عاصمة الخلافة الإسلامية - بغداد - وعاثوا فيها فساداً، ثم اتجهوا إلى الشام، غير أنه لم يطل بهم المقام، ولم يهنأوا بما حققوه من انتصارات، إذ خرج إليهم السلطان المظفر قطز من الديار المصرية والتقى بهم في معركة فاصلة، أبادتهم وأجلتهم عن ديار الاسلام. يقول القرطبي عنهم، بعد استسلام بغداد ودخولهم إليها، حيث «قتلوا جميع من كان فيها من الملوك والعلماء والفضلاء والعباد، وحاصروا (ميافارقين) واستباحوا جميع من فيها من الملوك المسلمين. وعبروا الفرات إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب فخرّبوها وقتلوا من فيها إلى أن تركوها خالية يباب. ثم أوغلوا إلى أن ملكوا جميع الشام في مدة يسيرة من الأيام، وفلقوا بسيوفهم الرؤوس والهام. ودخل رعبهم الديار المصرية ولم يبق إلا

(1) أحمد بدوي / الحياة الأدبية 545 .

(2) الشرقاوي / تحفة الناظرين ص 132 .

(3) نائب هولاءكو على الشام.

(4) ابن الوردي / تمة المختصر ج 2 ص 207 .

للحوق بالدار الأخروية. فخرج إليهم من مصر الملك المظفر الملقب قطز - رضي الله عنه - بجميع من معه من العسكر وقد بلغت الحناجر القلوب والأنفس، بعزيمة صادقة، ونية خالصة، إلى أن التقى (بعين جالوت) فكان له عليهم من النصر والمظفر كما كان لطالوت. فقتل منهم جمع كثير وعدد غزير، وانجلوا عن الشام من ساعتهم ورجع جميعه - كما كان - إلى الاسلام. وعبروا الفرات منهزمين ورأوا ما لم يشاهدوه منذ زمان ولا حين. وراحوا خائبين خاسرين مدحورين أذلاء صاغرين⁽¹⁾.

وبعد أن عين الملك قطز نواباً له في دمشق وحلب وقرر أمر الشام، عاد إلى مصر ليواجه مصيره على يد أحد قاداته بيبرس البندقاري في السابع عشر من ذي القعدة سنة 658 هـ، بعد أن حكم أحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً. وعين الظاهر بيبرس حاكماً على البلاد⁽²⁾. وبقي فترة طويلة من سنة 658 هـ إلى سنة 676 هجرية واستمال إليه الخليفة العباسي المخلوع الذي فر هارباً من بغداد، بعد أن قوض المغول دعائم العرش العباسي. فأقام بيبرس خليفة من نسل بني العباس، فقلده السلطنة وشاركه في الملك بعد أن أقسم له يمين الولاء. وأعانه بجيشه من أجل استخلاص بغداد من أيدي التتر، ولكن السلطان بيبرس كان قد أعان الخليفة بجيش قليل العدد والعدة. فاستطاع أعداؤه القضاء عليه في سهولة ويسر. ومن ذلك الوقت أصبح الخلفاء آلات طيعة في أيدي المماليك⁽³⁾. ومن الخلفاء الذين بايعهم الملك الظاهر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي القبي الذي استمرت خلافته نيفاً وأربعين سنة حيث تولى الحكم بالقاهرة يوم الخميس ثامن المحرم سنة 661 هـ وتوفي ليلة الجمعة الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 701 هـ. وبعد أن تمت البيعة للخليفة خطب خطبة يوم الجمعة «ذكر فيها الجهاد والإمامة وتعرض إلى ما جرى من هتك حرمة الخلافة ثم قال: وهذا السلطان الملك الظاهر قد

(1) التذكرة ص 595 .

(2) ابن الوردي / تمة المختصر ج 2 ص 209، 210 .

(3) بروكلمان / الإمبراطورية الإسلامية ص 242 .

قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار»⁽¹⁾ «ومن مات في أيام الحاكم من الأعلام الشيخ عز الدين بن عبد السلام.. والقرطبي صاحب التفسير والتذكرة»⁽²⁾ .

وفي زمن السلطان بيبرس تم كثير من الفتوحات الإسلامية. ففي سنة 664 هـ سافر الملك الظاهر من مصر إلى البلاد الشامية، وجعل نائبه بديار مصر ابنه الملك السعيد «وسار الملك الظاهر حتى نزل عين جالوت وبعث عسكرياً مقدمه الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزي، ثم عسكرياً آخر مقدمه الأمير يوسف الدين قلاوون الألفي للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد وسبوا وغنموا ما لا يحصى»⁽³⁾ .

وكان حصن الأكراد الذي وفق المسلمون في انتزاعه من أيدي فرسان الإبتارية من أعظم حصون الصليبيين مناعة، كما أنهم قد انتزعوا مدينة صفد من أيدي فرسان الداوية⁽⁴⁾ . وفي 28 رجب سنة 668 هـ، بينما كان الظاهر بيبرس موجوداً بحصن الأكراد بالشام إذ «بلغه أن مراكب الفرنج دخلت ميناء الإسكندرية، واستولت على مركبين للمسلمين، فأزعجته هذه الأنباء، وبادر بالرحيل من فوره إلى الديار المصرية. فوصل إلى القاهرة في 12 شعبان من نفس السنة»⁽⁵⁾ وفي ذلك الوقت ورد خبر بأن «اثني عشر مركباً للفرنج عبروا على الإسكندرية ودخلوا ميناءها وأخذوا مركباً للتجار واستأصلوا ما فيه وأحرقوه، ولم يجسر والي الإسكندرية أن يخرج الشواني من الصناعة لغيبه رئيسها في مهمّ استدعاه الملك الظاهر بسببه»⁽⁶⁾ .

(1) السيوطي / فهرسة تاريخ الخلفاء ص 318 .

(2) المرجع السابق ص 320، 323 .

(3) ابن بردي الأتابكي / النجوم الزاهرة ج 7 ص 138 .

(4) بروكلمان / الإمبراطورية الإسلامية ص 243 .

(5) د. السيد عبد العزيز سالم / تاريخ الإسكندرية ص 283 .

(6) النجوم الزاهرة ج 7 ص 149 .

ولقد خشي الملك بيبرس أن يكون هذا العدوان مقدمة لحملة صليبية واسعة النطاق، خاصة وأنه قد وصله خبر بأن «الفرنسيين وعدة من ملوك الفرنج قد ركبوا البحر ولا يعلم قصدهم، فاهتم السلطان بالثغور والشواني، وسار إلى مصر فدخلها في ثاني شوال»⁽¹⁾ «ولكن بدلاً من أن تتوجه الحملة الصليبية المتوقعة إلى مصر، توجهت إلى تونس في عصر المستنصر الحفصي، فكتب بعض أدباء المستنصر واسمه أحمد بن إسماعيل الزيات يقول:

أفرنسيس تونس أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وحواشيك منكر ونكير
فقضى الله أن يموت لويس التاسع في هذه الحملة وهو على أبواب قرطاجنة
سنة 668 هـ (1270 م)⁽²⁾.

وقد اهتم السلطان بيبرس بالأسطول الإسلامي البحري ليحمي سواحل البلاد الإسلامية في مصر والشام من اعتداءات الكفار وتحرشهم بالمسلمين، ويسهم في العمليات الحربية فبذل جهوداً جبارة «وأنشأ عدة شواني بثغري دمياط والإسكندرية ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده بير مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحرايق والطرائد ونحوها»⁽³⁾. ولا ننسى أن نذكر أن السلطان بيبرس قد تحدى صلافة وغطرسة التتار الذين هددوا العالم الإسلامي بالافناء والتدمير والاستعمار. فاستلم راية الجهاد الإسلامي بعد الملك المظفر سيف الدين قطز، وأبلى بلاءً عظيماً في قتالهم. وفرح المسلمون بما حققه من انتصارات باهرة، وقام شعراؤهم بمجدون بطولته، ويسجلون فروسيته «ولعل من أعظم هذه المعارك وأعجبها تلك التي كان فيها التتار على شاطئ

(1) المقريري / السلوك جـ 1 القسم الثاني ص 587, 588 .

(2) د. السيد عبد العزيز سالم / تاريخ الإسكندرية ص 284 .

(3) المقريري / السلوك جـ 1 القسم الثاني ص 447 .

الفرات، فلقي يهاجم بيبرس العدو ويقضي عليه، خاض الفرات على رأس جيشه، وعبر إلى التتار، وأبىد منهم عدد عظيم، ولم ينج سوى القليل، وأسر منهم زهاء مائتين، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين وستمائة هجرية⁽¹⁾.

وهكذا دبح السلطان العظيم بيبرس حياته بأروع الأعمال وأمجد البطولات وسجل له تاريخ الإسلام أنصع صفحة من صفحاته المشرقة. وبقي اسمه حياً في نفوس المسلمين، يتذكرونه متى حلت بهم المحن وتسلط عليهم الكافر بجيوشه العسكرية والفكرية. وأخذوا من سيرته النضالية قسماً يضيء لهم دروب الكفاح والتضحية. وكما سجل التاريخ له هذه الصفحة الناصعة البياض، فإنه لم ينس أن يسجل له أيضاً ما قام به في حياته من تأمر على الآخرين ومحاولة التنكيل بهم.. وفي مقدمة ذلك تأمره على الملك المظفر قطز حيث نصب له فخاً لقتله والتخلص منه. ليتربع على عرش السلطنة ويصبح سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية⁽²⁾.

هذه بعض الظروف السياسية والحربية التي حدثت في مصر والشام على عهد الأيوبيين والمماليك، والتي عاصر بعضها العالم الفاضل الإمام القرطبي. وقد تخللتها جهود عظيمة في ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية نبغ فيها كبار العلماء ورواد الفكر والمعرفة الذين ألفوا كتباً في مجالات متعددة من الثقافة والعلم. كما سنرى فيما بعد.

لاحظنا - فيما سبق ذكره - أن الدولة الإسلامية في العهدين: الأيوبي والمملوكي، قد واجهت حروباً صليبية وتترية، هدفها إسكات صوت الإسلام، والتوسع على حساب الآخرين، بثتى وسائل القمع والاضطهاد، بيد أن هذه الحروب الوحشية لم تظفر بما كانت تحلم به من آمال الاحتلال وإذلال المسلمين

(1) أحمد بدوي / الحياة الأدبية ص 550 .

(2) ابن بردى الأتابكي / النجوم الزاهرة ج 7 ص 94 .

واستعبادهم، ولم تنجح مخططاتها التي رسمتها من أجل تحقيق تلك الآمال، ذلك أن المسلمين - الذين صنعهم الإسلام - لم يستسلموا لهذه الحروب الهجمية، ولم يرضوا أن تدنس أرضهم الطاهرة، ولم يقبلوا الذلة والضميم، لأن الإسلام رباهم على الاستعلاء في غير تكبر، وعلى العزة في غير تجبر ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾⁽¹⁾ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾⁽²⁾. لهذا فقد تصدى المسلمون - على المستويين: القيادة والجندي - لأولئك الذين خرجوا من الغرب يحملون الصليب، ومن الشرق عبّاد الشمس حيث خرجت جيوش التتر - كالجراد المنتشر - كلهم متوجهون - من أجل الإفناء والتدمير - إلى أمة لا تحمل في نفسها عداً إلا لمن عاداها، ولا تضر شراً إلا لمن سولت له نفسه إلحاق الأذى بها وبدينها، وإخراجها من ديارها ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾⁽³⁾. ولولا أن تدخلت إرادة الله - سبحانه وتعالى - في هذه الظروف القاسية، الصعبة، ووفق المسلمين لكسب معركة المصير، لسقطت المدن الإسلامية في الشرق الإسلامي تباعاً - كما سقطت أخواتها في الأندلس - ولظل المحتلون الكفرة يعيثون فساداً في أرض الإسلام مدى الحياة، ولوقعت كارثة الأندلس ومأساته الأليمة التي لا زلنا نتألم بسببها، وتحسر لها. وكيف لا يوفق الله عباده الصالحين، وهم ليس لديهم سند في حياتهم إلا هو، جلت قدرته، ولا يستمدون قوتهم وتوجيهاتهم إلا منه وحده. وها هو السلطان الظافر قطز يصرخ في جنوده وقد خرجوا لمواجهة الغزو التتري (وإسلامه) ثلاث مرات، ويقول: «يا الله، انصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة

(1) آل عمران الآية 139 .

(2) المنافقون من الآية 8 .

(3) الممتحنة الآيتان 8 ، 9 .

الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض، وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم»⁽¹⁾ .

نحن نعلم أن عصر الحروب الصليبية قد امتد زهاء قرنين من الزمن (492 هـ - 692 هـ) وكان «عصر مواجهة الغرب للشرق، واستفادته منه، تلك الاستفادة التي دفعت الغرب إلى النهضة، كما اعترف بذلك مؤرخوهم»⁽²⁾ . وكانت الشام ومصر تشكلان - في هذه الفترة التاريخية - بيئة إجتماعية وثقافية واحدة. وكانت تربط بين مجتمعيهما روابط الود والإخاء الإسلامي الذي خلق منهما مجتمعاً واحداً، حيث امتزجت القلوب بعضها ببعض، وتوحدت المشاعر والأفكار، واتفقت الغايات على التصدي للكافر والتعاون على حربه والوقوف في وجهه كرجل واحد، وذلك حتى لا يتمكن منهم ويظفر بهم، فيذيقهم ألواناً من التعذيب والظلم، وينشر بينهم أفكاره الكافرة، وقوانينه الجائرة ﴿ان يشقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا﴾⁽³⁾ . فكان إقليما مصر والشام «يخضعان لسلطة واحدة في أغلب هذا العصر، وكان العلماء يتنقلون بين بلاد القطرين معاً. فكان - في كثير من الأحيان - يصعب تخصيص عالم بقطر دون سواه، فهما بيئة معنوية واحدة في هذا العهد فضلاً عن كون هذين البلدين قد ذاقا عنف الحروب الصليبية معاً وجرت على أرضيهما، وهوجمت مدنهما، وعلى يديهما متحدين طرد الصليبيون من الديار»⁽²⁾ .

وليس معنى هذا أن الأجواء السياسية قد دخلت من وجود ما يعكرها من التنازع والاختلاف، وإنما الطابع الذي يغلب على المسلمين هو الشعور الإسلامي النبيل، والتعاون على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم.. لهذا فإن المظاهر الاجتماعية والثقافية التي سادت البلدين إن لم تكن واحدة، فهي متشابهة في جل

(1) المقرئزي / السلوك ج 1 القسم الثاني ص 431 .

(2) أحمد بدوي / الحياة العقلية ص 4 .

(3) الممتحنة الآية 2 .

جزئياتها فنتيجة للحروب التي خاضها تدهورت الحالة الاقتصادية فيهما «وقد بلغت درجة من السوء لم يسبق لها مثيل، وذلك من جراء أمر القتال، فخربت مدن وأقمرت حقول من الزراعة وتعطلت الصناعة واختل الأمن وأصبح الناس عرضة للسلب والنهب ومصادرة الأموال، بل عرضة للموت. وارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً حتى عجز الفقراء في أعوام كثيرة عن الحصول على ما يقيم أود حياتهم. هذه كانت حالة الشام، ولم تكن الحالة في مصر بأفضل منها. كان على مصر أن تمون الشام وتمد الجيوش بكل ما تحتاج إليه من مال وطعام. وقد ابتليت في كثير من سني الحرب بمجاعات كانت تودي بالآلاف الناس»⁽¹⁾. ففي سنة 656 هـ وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وبيع المكوك⁽²⁾ القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهماً والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً، وبقية الأسعار من هذه النسبة»⁽³⁾.

وفي سنة 662 هـ ارتفعت بمصر أسعار القمح والشعير والخبز واللحم، وارتفع القمح بالإسكندرية، وأصدر السلطان الظاهر أوامره بتسعير تلك الحاجيات الضرورية، فازداد الأمر تعقيداً، وانتشر الفقر، وانعدم الخبز. وبدأ الناس يأكلون ورق اللفت والكرنب وغير ذلك، ويخرجون إلى الأرياف ليأكلوا عروق الفول الأخضر.. بيد أن السلطان سرعان ما أبطل التسعير، وفتح مخازن الغلال الخاصة به، لبيع خمسمائة أردب - يوماً لضعفاء الناس ومساكينهم. ومنعاً للاحتكار والاستغلال حدد السلطان الكمية التي يسمح بشرائها وهي من ويبتين إلى ما دون ذلك. كما أنه أسند مهمة إحصاء الفقراء إلى الحجاب الذين جابوا جميع جهات القاهرة ومصر. وبلغ عددهم ألوفاً. ثم قال السلطان: «والله لو كانت عندي غلة تكفي هذا العالم لفرقتها»⁽⁴⁾. وهذا يدل على مدى الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتق

(1) كيلاني / الحروب الصليبية ص 38, 39 .

(2) المكوك / مكيال للحبوب مختار الصحاح ص 630 .

(3) المقرئزي / السلوك ج 1 القسم الثاني ص 406 .

(4) نفسه ج 1 القسم الثاني ص 507 .

الحاكم المسلم الذي يرى أنه مسؤول أمام الله تعالى على جميع رعاياه. قال رسول الله ﷺ: (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته...) (1) .

وقد وزع السلطان بيبرس ذلك العدد الضخم من الفقراء على ذوي السعة من أرباب السلطة والمال في المجتمع الإسلامي. ولم تكن مهمته إصدار الأوامر والتوجيهات لتوزيع المؤن على الفقراء، بل هو وحده كان أول السباقيين إلى ذلك، فقد «أخذ ألوفاً منهم، وأعطى لنواب ابنه الملك السعيد مثل ذلك، وأمر ديوان الجيش فكتب باسم كل أمير جماعة على قدر عدته، وأعطى الأجناد والمفاردة من الحلقة والمقدمين والبحرية، وعزل التركمان ناحية، والأكراد ناحية. وأمر أن يعطى كل فقير كفايته مدة ثلاثة أشهر، وأعطى للتجار طائفة من الفقراء، وأعطى الأغنياء على اختلاف طبقاتهم كل واحد بقدر حاله» (2) .

وهكذا استمر الحال حتى تلاشت الأزمة الاقتصادية وارتفعت الغمة عن العباد وانخفضت الأسعار في البلاد.

وبالرغم مما أصاب المسلمين - في هذه الفترة العصيبة - من الفقر والعوز، إلا أنهم لم يحنوا رؤوسهم، ويدلوا أنفسهم لكافر مستعمر، بل كانوا أعزاء كرماء. وفي هذا السياق يتحدث الدكتور عبد اللطيف حمزة فيقول: «نقرأ تاريخ مصر السياسي والإقتصادي في القرون السادس والسابع والثامن للهجرة، فإذا مصر مجهدة من أثر الحروب الصليبية التي أفقدتها كثيراً من المال والرجال، وردتها إلى لون من الحياة فيه شعور حقيقي بالفقر، وإن كان فيه شعور إلى جانبه بالكرامة والفخر» (3) .

(1) البخاري ج 9 ص 77 طبعة الشعب. مختصر صحيح مسلم ج 2، 87، 88 .

(2) السلوك ج 1 القسم الثاني ص 507، 508 .

(3) الحركة الفكرية في مصر ص 95 .

ونتيجة للخطوب والحروب الطاحنة التي مرت بها أمة الإسلام في هذه الفترة التاريخية، بدأ المسلمون يتقربون إلى الله تعالى، ويقوون صلتهم به ويتكلمون عن القيامة وعلاماتها، والساعة وأشراتها، والدجال وظهوره، وعيسى ونزوله. وقد كتبوا في ذلك رسائلهم ومقالاتهم. وتحدثوا كثيراً عن الجنة وأبوابها ووصفوا أهلها ومنازلهم⁽¹⁾... ومن الذين تأثروا بهذا الجو الرهيب الإمام العالم القرطبي المفسر الذي ألف كتاباً ضخماً سماه: (التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة) استعرض فيه أبواباً متعددة تبحث في ذكر الموت وفضله والاستعداد له، وما جاء في عذاب القبر وأنه حق، والحشر والجنة والنار وما جاء في صفة أهلها... الخ. كما سنعرف ذلك في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب، وهو الباب الذي ناقشنا فيه ثقافة القرطبي وآثاره العلمية واتجاهه فيها..

ومما يجدر ذكره أن عصر السلطان بيبرس كان مليئاً بالحروب وإقامة المنشآت هنا وهناك. ومتابعة تحركات الذميين، واستتباب الأمن والاستقرار في البلاد. ونحن إذا أطلنا الحديث عنه، فإنما هذا يرجع إلى أن الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - قد عاصر فترة طويلة من حكمه لمصر والشام. وأنه كان مستحقاً لذلك، كما يقول ابن تغرى بردى الأتابكي «لأنه فرع فاق أصله، كونه كان من جملة ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب فزادت محاسنه عليه»⁽²⁾.

اهتم السلطان بيبرس بإقامة المساجد والإكثار منها، لأنها تمثل مدرسة إسلامية عظيمة تخرج أجيالاً مسلمة يخدمون دينهم وأمتهم. فأنشأ مسجداً في يافا سنة 666 هـ⁽³⁾ وجامع العافية بالحسينية سنة 665 هـ، وأنشأ حماماً وطاحوناً وفرناً، وعدة جوامع بالديار المصرية⁽⁴⁾. وفي سنة 663 هـ، كثرت الحرائق بمصر والقاهرة،

(1) كيلاني / الحروب الصليبية ص 49 .

(2) النجوم الزاهرة ج 7 ص 199 .

(3) المقرئ / السلوك ج 1 القسم الثاني ص 565 .

(4) ابن تغرى / النجوم ج 7 ص 192 .

وأشيع أن ذلك من النصارى واليهود، فأمر السلطان بجمعهم، وأنكر عليهم ما فعلوه، وأمر بإلقائهم في النار، بيد أنهم سألوه العفو، فعفا عنهم بعد أن تعهدوا بدفع الأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت مال المسلمين خمسين ألف دينار⁽¹⁾ ... وهكذا سار السلطان بيبرس بوجه عنايته إلى خدمة رعيته وتوفير وسائل الراحة لها من الأمن والاستقرار والمواد الغذائية الضرورية.. وقد فاقت عنايته بثغر الاسكندرية، من سبقه من الأمراء والسلاطين. ومن جاء بعده منهم على السواء، حيث اتجهت عنايته به إلى إقامة الإصلاحات الإنشائية والأعمال الهامة. ففي صفر سنة 664 هـ زار السلطان الإسكندرية «عندما بلغه شكوى أهل الإسكندرية من عدم وصول الماء إليها في سائر شهور السنة، بسبب ما تكسب من الرمال في المجرى الممتد من النقيدي إلى فم الخليج. فسير لحفره الأمير علم الدين سنجر المسروري، ثم خرج من قلعة الجبل وبصحبه عامة الأجناد والأمراء، وباشر الحفر بنفسه، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس حتى زالت الرمال»⁽²⁾ .

ولما كانت المرأة في المجتمع الإسلامي عرضاً يجب على المسلمين جميعاً صيانتها والمحافظة عليه، فقد اتجهت عناية حكام المسلمين إلى إصدار القوانين التي تحفظ للمرأة دينها وعرضها، وتزيل أسباب الفتنة والغواية.

ففي سنة 653 هـ «أمر الملك المعز ألا تخرج المرأة من بيتها، ولا يمشی رجل بلا سراويل، فقال أبو الحسين الجزار في ذلك:

حنا الملك المعز على الرعايا وألزمهم قوانين المروة
وصان حريمهم من كل عار وألبسهم سراويل الفتوة»⁽³⁾
ولعل سبب صدور أمر المعز بذلك هو منع ما قد يترتب - من فتنة وفساد -

(1) السلوك جـ 1 القسم الثاني ص 535 .

(2) د. السيد عبد العزيز / تأريخ الإسكندرية ص 282 .

(3) المقرئزي / السلوك جـ 1 القسم الثاني ص 397 .

من جراء خروج المرأة من بيتها بدون عذر شرعي.. وكان الحاكم المسلم يخرج - ليلاً - في بعض الأحيان، يطوف في أنحاء دولته لمعرفة سلوك الرعية وأحوالها، ليرى - بنفسه - الأمراض الاجتماعية ويعالجها ويضع لها الدواء الناجع. ففي سنة 663 هـ نزل السلطان بيبرس من قلعة الجبل بالليل متنكراً «وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعراها سروالها بيده، ولم يجسر أحد ينكر عليه. فلما أصبح السلطان قطع أيدي جماعة من نواب الولاية والمقدمين، والخبراء وأصحاب الرباع بالقاهرة»⁽¹⁾.

ولعل وجود مثل هذه الانحرافات الاجتماعية، هي التي جعلت الإمام القرطبي يثور ويعلن سخطه على دخول النساء للحمامات والأسواق العامة، لما قد يترتب على ذلك من الإغراء والفتن ما ظهر منها وما بطن، كما سنعرف ذلك فيما بعد.

أما الحياة الثقافية في شرق بلاد الإسلام، فقد كانت تشبه إلى حد كبير ما كان في الغرب، من حيث اتخاذ القرآن الكريم مادة أساسية من مواد التربية والتعليم إذ اتخذ المسلمون دراسة القرآن الكريم وتعليمه لأولادهم شعاراً درجوا عليه في جميع أمصارهم، كما يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته⁽²⁾. ومن حيث أن العقيدة الإسلامية التي يعتنقها المسلمون في الشرق والغرب، فرضت عليهم نوعاً خاصاً من الثقافة، ينبثق عنها ويرتبط بها ارتباطاً كلياً، كعلوم القرآن والحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة، وما إلى ذلك من المعارف الإسلامية التي تعاون مسلمو الغرب والشرق على إثرائها وازدهارها، وظهر ذلك واضحاً في المؤلفات والموسوعات العلمية الرائعة التي آل كثير منها إلى التبدد والضياع، وكثير منها تزدان به مكتبات أوروبا في استكهولم، وبرلين، ولندن، ومدريد، ولا يعرف المشتغلون

(1) المرجع السابق ص 540 .

(2) ص 343 المطبعة الأزهرية سنة 1311 هـ القاهرة.

بالعلم عنها شيئاً، اللهم إلا هذه الشذرات التي تنشر أحياناً في هذا البلد أو ذاك. ولا يكاد يوجد في مكتباتنا إلا القليل من هذه المؤلفات التي تعد بالألوف⁽¹⁾... إلى جانب تلك الثقافة المميزة عن غيرها من ثقافات العالم، كانت هناك العلوم البحتة في الطب والهندسة والفلك... الخ التي اشتد فهم المسلمين إليها، وقوي حماسهم لها، فنبغوا فيها، وتركوا لنا مؤلفاتهم الضخمة في هذه المجالات الثقافية والعلمية.

ولكي نعرف الطريقة التي اتبعها مسلمو الشرق في تعليم أولادهم، نذكر ما أوصى به الخليفة هارون الرشيد معلم ابنه محمد الأمين فقال: «يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه فصير يدك عليه مبسوطه وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعتك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ورؤه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام، وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته»⁽²⁾ وقد اعتبر العلامة ابن خلدون هذا المذهب الرشيدي للتعليم من أحسن المذاهب التعليمية⁽²⁾. ولخص لنا مذهب المسلمين المشاركة في التعليم. فبعد أن ذكر أنهم يخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب - كمذهب أهل أفريقية - قال: «والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيبية ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفرادهم كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجابة. ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه وبيتيه من أهل صنعته»⁽³⁾.

ويلاحظ أنه في العصر الأيوبي لم تنل الفلسفة وفلاسفتها عناية العلماء والمفكرين إذ كان صلاح الدين يكره البحث في المسائل الفلسفية، ويبغض المشتغلين

(1) د. عبد الحليم منتصر / التراث العلمي العربي ص 22 بتصرف، مجلة مجمع اللغة العربية 1388 هـ / 1969 م القاهرة.

(2) ابن خلدون / المقدمة ص 345، 346.

(3) المرجع السابق ص 344.

بها - كما لا حظنا عند الموحدين في المغرب والأندلس - وذلك لتمسكه القوي بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ومما يروى عن مناقبه وسيرته أنه كان: «مبغضاً للفلاسفة والمعتلة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأً يقال له السهرودي، قيل إنه كان معانداً للشرائع، مبطلاً، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياماً»⁽¹⁾.

وقد اتجهت عناية السلاطين إلى نوع من الدراسات الإسلامية، وهو دراسة الحديث النبوي وسماعه، وأنشأوا - تبعاً لذلك - المدارس التي تقوم بتدريسه لأبناء المسلمين. وفي هذا السياق يحدثنا الأستاذ محمد سيد كيلاني فيقول: «كان الملوك الأيوبيون يعنون بسماع الحديث عناية كبيرة... وقد عنى الأيوبيون بإنشاء مدارس خاصة أطلقوا عليها (دار الحديث) وعينوا فيها كثيراً ممن عرفوا بسعة الرواية في الأحاديث»⁽²⁾. وكان من هؤلاء الإمام المحدث أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري المتوفى سنة 656 هـ، أحد شيوخ الإمام القرطبي. وقد تولى المنذري التدريس في الجامع الظافري ثم مشيخة الدار الكاملية وانقطع بها لنشر العلم عشرين سنة. وكانت تسمى (دار الحديث) وهي «تعتبر الدار الثانية في الترتيب بين الدور التي تخصصت في الشرق الإسلامي لدراسة الحديث. أما الدار الأولى فهي التي بناها نور الدين محمود بدمشق»⁽³⁾ وكذلك بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب المدارس الأربعة بين القصرين⁽⁴⁾.

وفي سنة 639 هـ أنشأ أيضاً - المدرسة التي نسبت إليه وسميت بالمدرسة الصالحية «وكانت أشبه شيء بجامعة كبرى ذات كليات أربع تختص كل واحدة

(1) محمد كيلاني / الحروب الصليبية ص 47 .

(2) كيلاني / الحروب الصليبية ص 87 .

(3) د. عبد اللطيف حمزة / الأدب المصري ص 26 .

(4) الشرفاوي / تحفة الناظرين ص 126 .

منها بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة: وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي⁽¹⁾ .

وفي هذا الجو الثقافي نبغ كثير من علماء الإسلام الذين أدلوا بدلوهم في مجالات متعددة من الثقافة والمعرفة الإنسانية. ومنهم الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الذي عاصر دولة بني أيوب. وتوفى سنة 643 هـ. وكان فقيهاً، محدثاً «تولى تدريس الحديث بدار الحديث بدمشق التي بناها الأشرف بن العادل بن أيوب. ثم تولى التدريس بمدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب... وله (مناسك الحج) و(إشكالات على الوسيط). وجمع بعض أصحابه فتاويه⁽²⁾ وفي السنة ذاتها توفي «علم الدين علي بن محمد بن عبدالله السخاوي، له (المفضل في شرح المفصل) و(سفر السعادة وسفير الإفادة) فيه مشكلات نحوية وأبيات معاني ولغة وعربية. وله (شرح الشاطبية)⁽³⁾ وقد قرأها على ناظمها أبي القاسم بن فيره الشاطبي. وكذلك توفي بحلب سنة 643 هجرية الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد النحوي المشهور الذي عرف بابن الصائغ. وكان ظريفاً محاضراً شرح (المفصل: للزمخشري غاية في الشرح والبيان. وله من المؤلفات غير هذا⁽³⁾ .

وفي سنة 646 هـ «توفي الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب. كان والده كردياً حجب الأمير عز الدين موسك الصلاحي وقرأ ابنه المذكور في صغره بالقاهرة القرآن ثم الفقه على مذهب مالك والعربية وبرع. ثم درس بجامع دمشق. وأكب الخلق عليه بالاشتغال، ثم قدم القاهرة ثم الإسكندرية فتوفي بها. ومولده أواخر سنة سبعين وخمسمائة بإسنا من

(1) الأدب المصري ص 26 .

(2) ابن الوردي / تنمة المختصر ج 2 ص 176, 175 .

(3) ابن الوردي / تنمة المختصر ج 2 ص 176, 175 .

الصعيد وكان متفنناً وغلب عليه النحو وأصول الفقه. ومختصراته الثلاثة (في النحو والتصريف والأصول) قد طبقت ذكرها البلاد، ولا سيما العجم. ومصنفاته كثيرة⁽¹⁾. وفي هذه السنة نفسها توفي الطبيب البارع ضياء الدين عبدالله بن أحمد بن البيطار المالقي مؤلف كتاب «الأدوية المفردة» وقد «انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه. وله اتصال بخدمة الملك الكامل ثم ابنه الصالح»⁽²⁾.

أما سنة 649 هـ ففيها توفي أحد أئمة الرياضيات، وهو علم الدين قيصر بن أبي القاسم، الفقيه الحنفي، اشتغل بمصر والشام⁽³⁾. وقد بلغت مدينة (قوص) المصرية أهمية عظيمة، حين اتخذها حجاج مسلمي الأندلس وشمال أفريقية نقطة عبور إلى ثغر عيذاب - بعد سقوط فلسطين في أيدي الصليبيين - ومنها يتوجهون - بحراً - إلى البلاد الحجازية لأداء فريضة الحج المقدسة. وترتب على ذلك التقاء علماء الإسلام المشاركة بإخوانهم المغاربة، لهذا فقد «اتسعت وكثرت بها المدارس والمعاهد وراجت بها سوق العلم والأدب. وظهر فيها كثير من المحدثين والنحويين والفقهاء والأدباء والشعراء»⁽⁴⁾.

وعندما توفي الملك الصالح نجم الدين بن الكامل سنة 647 هـ خلفه ابنه غياث الدين تورانشاه الذي اقتفى أثر والده، وسار على مناهجه في اهتمامه بالعلوم والمعارف، وتشجيع العلماء وذوي الرأي والبصيرة. فقد جرت بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع من العلوم. وكان السلطان تورانشاه عارفاً للمسائل الخلافية والفقهية والأصولية. وقد أحبه جده الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر بن أيوب لتفوقه العلمي. وكان يلقي عليه منذ صباه مسائل العلم المشكلة ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجالسه العلمية. كما أنه كان مغرمًا بمجالسة أهل العلم

(1) المرجع السابق ص 179 .

(2) المرجع السابق ص 180، 181 .

(3) المرجع السابق ج 2 ص 188 .

(4) كيلاني / الحروب الصليبية ص 51 .

والمعرفة من الفقهاء والشعراء⁽¹⁾. ومن ذلك أنه في ذي الحجة سنة 647 هـ اجتمع بجماعة من الفقهاء منهم، الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزي - شيخ صاحبنا القرطبي، وسراج الدين الأرموي. وقد ناقشهم السلطان المعظم وناظرهم في مسائل علمية⁽²⁾. وكان جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم بن واصل صاحب كتاب (مفرج الكرب في أخبار بني أيوب) قد حضر أحد هذه المجالس، والمناظرات العلمية. وكان موضوع النقاش في الحديث النبوي «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»⁽³⁾.

أما دور المماليك البحرية - الذين تولوا حكم مصر والشام بعد الأيوبيين - في الحركة العلمية والنشاطات الثقافية، فقد بلغ شأواً عظيماً، إذ كان عصرهم أكثر نشاطاً وأدأب عملاً وأضحى إنتاجاً. وقد استطاعت مصر أن تكون لنفسها ثقافة إسلامية تأثرت بها البلاد الإسلامية الأخرى، وبخاصة بلاد الشام⁽⁴⁾.

وتتمثل دور العلم في عصر دولة المماليك في المدارس والمساجد. بالإضافة إلى مكاتب صغيرة ملحقة بها «تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة وطرفاً من العلوم الأولية وتحفيظ القرآن الكريم، وتمهد للالتحاق بالمدارس الجامعة»⁽⁵⁾ ولمعاهد التعليم هذه أهمية عظيمة إذ كانت بمثابة جامعات علمية، اعترف كثير من المستشرقين - كالسير وليم موير - أن جامعات أوروبا الحديثة قد اقتبست منها نظمها⁽⁵⁾.

وشيدت في هذا العصر كثير من المعاهد والمدارس⁽⁶⁾ التي خرجت كبار

(1) المقرئزي / السلوك ج 1 القسم الثاني ص 353 .

(2) المرجع السابق ص 354 .

(3) هامش كتاب السلوك ج 1 القسم الثاني ص 354 .

(4) محمود رزق / عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث القسم الأول من الجزء الثاني ص 16 .

(5) المرجع السابق ص 27، 28 .

(6) انظر الحياة العقلية 42 - 75 .

المفكرين وعظماء الباحثين. ومن هذه المدارس ما يذكره ابن دقماق في كتابه: الانتصار (ج 4 92) أنه «كان في منية بني خصيب مدارس للشافعية والمالكية. وفي مير والقوصية مدرستان. وفي منفلوط عدة مدارس»⁽¹⁾ وكانت بمدينة منية بني خصيب أو ابن الخصيب «المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد»⁽²⁾ وقد قام بالتدريس فيها «العفيف يعقوب المهيني، قاضي المدينة ومدرسها، المتوفي سنة 649 هـ، كما أنه عاش فيها أيضاً المفسر المشهور ابن فرح القرطبي، صاحب التفسير المعروف، والمتوفي سنة 671 هـ»⁽³⁾. وقد زودت تلك المدارس والمعاهد بمكتبات تحوي أنواعاً من المؤلفات في جميع مجالات العلم المختلفة، تعين المدرسين والطلاب وتساعدهم على حصول أكبر قدر من المعارف والعلوم «ومما يذكر أنه لم تكن في دور التعليم برامج معينة مقررّة تحدد للناشئين سبيل الدراسة وتلزمهم باستيعابها، كما نشاهد في النظم الحديثة، بل ثمة كتب في الفقه أو الحديث أو الأصول أو المنطق أو النحو أو القراءات، ونحو ذلك، يدرسها الشيوخ في دور التعليم. يختار كل شيخ منها ما يروقه ويزاول تدريسه للناس، فيسمعه منه من يشاء من الطلاب وغير الطلاب، فإذا لازمه أحدهم ملازمة نافعة ودرس عليه كتاباً معيناً منحه شهادة بذلك، وتسمى «إجازة» يشهد له أنه درس الكتاب المذكور»⁽⁴⁾. ومن هؤلاء الشيخ، الإمام القرطبي، فقد منح إجازات لبعض المسائل العلمية، كما سنرى - ذلك واضحاً - في الباب الثاني.

ومن المدارس المشهورة في العصر المملوكي المدرسة الظاهرية التي أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة 660 هـ بجهة يطلق عليها (بين القصرين) بالقاهرة. وقد زودها بمكتبة هامة. وكانت تعنى بسائر المعارف وخصص للإنفاق عليها أموالاً

(1) نقلاً عن كتاب عصر سلاطين المماليك ص 31 .

(2) ابن بطوطة / تحفة النظار ص 27 .

(3) أحمد بدوي / الحياة العقلية ص 56 .

(4) محمود رزق / عصر سلاطين المماليك، ص 76 القسم الثاني من الجزء الثاني.

طائلة. ولما فرغ من بنائها سنة 662 هـ طلب من علماء الإسلام ومفكره وفقهائه أن يجتمعوا بها لتدريس الثقافة الإسلامية وما يتفرع عنها من معارف وعلوم لأبناء المسلمين «ورتب في تدريس الإيوان القبلي القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي، وفي تدريس الإيوان الذي يواجهه القاضي مجد الدين عبد الرحمن ابن العديم، والحافظ شرف الدين الدمياطي لتدريس الحديث في الإيوان الشرقي، والشيخ كمال الدين المحلى في الإيوان الذي يقابله لاقراء القرآن بالروايات والطرق، ثم رتب جماعة يقرئون السبع بهذا الإيوان أيضاً بعد صلاة الصبح، ووقف بها خزانة كتب، وبنى إلى جانبها مكتباً لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخبز في كل يوم، وكسوة الفصلين وسقاية تعين على الطهارة، وجلس للتدريس بهذه المدرسة يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة اثنين وستين»⁽¹⁾.

ومما ينبغي أن نذكره أن العلماء وأصحاب العقليات المفكرة، التي وفدت على مصر والشام من بلاد العراق والمغرب والأندلس لم يجدوا «أمامهم غير مصر وبلاد الشام، حيث أسس المماليك لهم ملكاً، وأقاموا لأنفسهم سلطاناً، وكونوا لعرشهم جنداً، يزود عنه، ويدفع كيد الأعداء»⁽²⁾ وصارت عاصمة مصر ومدنها الكبرى «موتلاً لعلوم الدين واللغة، وملجأ لذويها يفدون إليها من شتى الممالك والأمصار، أو ينشأون في أقيائها، فيجدون في كنف ملوكها أو أهلها، مراحاً خصباً وظلاً ظليلاً. وأصبحت القاهرة من ذلك الحين مركزاً للعلوم الإسلامية والعربية»⁽³⁾.

ولا يفوتنا أن نذكر أن حكام المسلمين في الشرق والغرب كانوا يوقرون العلماء والفقهاء ويعظمونهم. تقديراً لعلمهم وإجلالاً لمكانتهم الرفيعة في المجتمع الإسلامي. فإذا ما جدّ أمر واشتد الخطر هرعوا إليهم يسألونهم ويطلبون منهم حلاً لما يصادفهم من مشاكل وأزمات. من ذلك مثلاً أن التتار عندما وصلوا إلى البلاد

(1) ابن تغري: النجوم جـ 7، 120، 121 وكذلك فهرسة تأريخ الخلفاء للسيوطي ص 318 .

(2) محمود رزق: عصر السلاطين المماليك القسم الأول - الجزء الثاني ص 11 .

(3) المرجع السابق القسم الثاني، الجزء الثاني ص 7 طبعة سنة 1947 .

الشامية أرسل المسلمون إلى إخوانهم في مصر يستنجدون بهم ويطلبون منهم العون والمساعدة. وأراد السلطان سيف الدين قطز أن يأخذ من المسلمين ما يستعين به على الجهاد وقاتل الأعداء. فجمع القضاة والعلماء لمشاورتهم. وحضر الشيخ بن عبدالسلام هذا الاجتماع وكان مما قاله: «أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص⁽¹⁾ المذبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساوا هم والعامه. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، وانفض المجلس على ذلك»⁽²⁾. وكنا قد ذكرنا أن مسلمي الأندلس كانوا يجلبون الفقيه، ويسمون الأمير العظيم منهم بالفقيه⁽³⁾. وهذا يدل على حسن تقديرهم وصدق ولائهم للعلم والعلماء.

هكذا عاش الفقيه، العالم، القرطبي، في أجواء زاخرة بأنواع متعددة من العلوم والمعارف التي - لا شك - في أنه قد تأثر بها، وأثر فيها. وأسهم في حركة التثقيف والتأليف التي عظم شأنها في عصر المماليك. وبذلك أدى الإمام القرطبي واجبه الإسلامي نحو ربه وأبناء أمته المسلمة. وترك لهم أعز ما يملك من أفكار مستنيرة وأبحاث مستفيضة في التفسير وعلومه، والفقه ومذاهبه، واللغة وأئمتها. كما سنعرف ذلك في الباب الخامس من أبواب هذا الكتاب.

(1) كان من عادة السلطان أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين. هامش كتاب النجوم ج 7 ص 73 .

(2) ابن تغري: النجوم ج 7 ص 72، 73 وكذلك راجع تحفة الناظرين لعبدالله الشرقاوي ص 131 .

(3) أنظر ص 29 من هذا الكتاب.

الباب الأول:

حياة القرطبي

حياة القرطبي

هو الإمام العلامة أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح⁽¹⁾ - بسكون الراء والحاء - الأنصاري، الخزرجي، القرطبي المولد والنشأة، السني المعتقد، المالكي المذهب، المصري الوفاة.

ولد الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - بقرطبة، إحدى مدن الأندلس الكبرى، ورافد هام من روافد الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية والعربية. وإن كنا نعلم سنة وفاته وهي (671 هـ) فإن كتب التراجم والمصادر التي بين أيدينا سكنت عن تأريخ مولده، كما سكنت عن تأريخ رحلته المشرقية، ولم تنطق بشيء يدور حوله، ولا عن مرحلة طفولته وسني حياته الأولى. ولعل ذلك يرجع إلى مكانة أسرته الاجتماعية، من حيث المستوى الثقافي والسياسي والمعيشي، إذ كان والده فلاحاً، لا هم له - بعد الإمام بمبادئ الإسلام العامة - إلا حرث الأرض وزراعتها وتشجيرها، كما أخير بذلك ابنه أبو عبدالله القرطبي، حينما بين كيفية وفاته وانتقاله إلى جوار ربه⁽²⁾. ولعل الظروف الصعبة، الشاقة، التي ولد فيها القرطبي قد أسهمت في صرف الناس عن الاهتمام برصد شيء يتعلق بمولده وحياة طفولته وصباه..

وعلى العموم فالذي نستطيع أن نؤكد أنه أن صاحبنا القرطبي قد ولد في

(1) وقيل (ابن فرج) بجيم في آخره. انظر شذرات الذهب ج 5 ص 335 وهدية العارفين المجلد الثاني ص 129 .

(2) أنظر الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 272 .

مستههل القرن السابع الهجري، أو أواخر القرن السادس الهجري على الترجيح.

إن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى حياة القرطبي الأسرية، وأثرها على نفسيته وثقافته، ومدى استفادته من هذه الحياة التي يكون فيها الوالدان أهم عامل من عوامل تأثير البيئة في الطفل أو الناشئ. فلم تشر تلك المصادر إلى حياة أبويه وإخوته وأقاربه، وعلاقتهم جميعاً بالقرطبي، وأثرهم في تنشئته وثقافته.. ولعل السبب في هذا أن طريقة التأليف عن حياة الأفراد وكتابة تراجم عنهم، لم تكن مهتمة بهذا الجانب من جوانب حياة الإنسان. ويبدو - كما قلنا - أن والده لم يكن من ذوي الجاه والسلطان، ولا من ذوي العلم والمعرفة، ولم يتبوأ مكانة اجتماعية مرموقة، ليحظى بعناية المترجمين والمؤرخين الذين يتناقلون أخباره وما يمت إلى حياته - بوجه عام - من صلة. والذي تجده في كتب التراجم هو توجيه الاهتمام إلى ذكر المشيخة التي تلقى عنها القرطبي ثقافته، واستمد منها علومه، وتربى على موائد فكرهم وثقافتهم الإسلامية العظيمة، لما لذلك من أثر في تكوين حياته الفكرية والعقلية. وهذا ما سنجده واضحاً عند الحديث عن بعض شيوخ القرطبي ونشأتهم الثقافية.

أما حديث القرطبي نفسه عن أسرته فقد اقتصر على ذكر جانب واحد، وفي نطاق ضيق جيداً. فأورد الظروف التي أحاطت بوفاة والده الذي قتله أعداء الإسلام على غفلة ضمن من قتل في مزارعهم حيث كانوا آمنين فيها، يقومون بأعمالهم اليومية، ويؤدون واجبهم نحو ربهم وأسراهم. فأغاروا عليهم فجأة. وهذه الحالة أوحى إلى القرطبي - رحمه الله تعالى - حكماً شرعياً ملخصه: هل أن كل من قتل على هذا الوضع يكون حكمه حكم قتيل المعركة؟ بمعنى أنه يدفن على ما هو عليه دون أن يغسل - كما يفعل بالموتى والقتلى في غير المعارك الحربية - فراح يبحث ويستفسر عن حكم الله في هذه المسألة. فتوجه بسؤاله إلى أعز الناس إلى نفسه وأحبهم إلى فؤاده، إنهم شيوخه الأفاضل الذين علموه ألا يتصرف أي تصرف، ولا يدلي بأي رأي أو يصدر أي حكم فيما يعترضه من مشكلات الحياة وشئوننا

المتعددة إلا بعد أن يعرف حكم الله تعالى.. واختلف حكمهم على تلك المسألة. فمن قائل يقول: غسله وصل عليه، وآخر يقول: إن حكمه حكم قتيل المعترك. ثم وقف بنفسه على حكم هذه المسألة في كتاب فقهي. فارتاح لما ورد فيه، من أن حكم والده الذي قتله مسيحيو اسبانيا ظلماً وعدواناً، كحكم قتيل المعركة.. وفي هذا كله يقول في المسألة الخامسة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون﴾⁽¹⁾.

«العدو إذا صبح قوماً في منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك، أو حكم سائر الموتى، وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله: أغار العدو - قصمه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة (الموافق 1229 م) والناس في أجزانهم على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله، فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال: غسله وصل عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصنفين. ثم سألت شيخنا ربيع بن عبدالرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبيي» فقال: إن حكمه حكم القتلى في المعترك. ثم سألت قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا: غسله وكفنه وصل عليه، ففعلت. ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في (التبصرة) لأبي الحسن اللخمي وغيرها، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه»⁽²⁾.

كما أن المصادر التي اطلعنا عليها لم تشر بأية إشارة إلى أن القرطبي قد اصطحب معه في رحلته المشرقية الغامضة - كما بينا - زوجته أو أبناءه أو إخوته وأقاربه. ولا نعلم ما إذا كان قد تزوج بمسقط رأسه - قرطبة - أو بمصر حين وفد إليها

(1) آل عمران الآية 169 .

(2) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 272 .

- مع من وفد من مسلمي الأندلس كما ذكر المقري⁽¹⁾. واستقر بمنية بني الخصيب في شمالي أسيوط. والذي نعلمه أن له ابناً يدعى شهاب الدين أحمد قد روي عنه بالإجازة⁽²⁾، ولعلها تكون روايته لتفسيره العظيم، حيث رواه عن والده، وبدوره أذن في روايته للكاتب عبدالله بن عبد الرحمن بن اسحاق بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي سنة 766 هـ⁽³⁾.

وإذا أراد الباحث أن يستنطق كتب التاريخ والتراجم والأخبار والطبقات للإمام بنشأة القرطبي في مرحلة طفولته الأولى، بصفة خاصة، وفي عهد الشباب والشيخوخة، بصفة عامة، فلم يجد عندها غير الصمت المطبق، المحير.. اللهم إلا تلك الشذرات اليسيرة، المتناثرة هنا وهناك، تارة يذكرها هو نفسه في بعض مؤلفاته، وأخرى نجدها في كتب التاريخ والتراجم. فمن ذلك أنه يتحدث عن نفسه عما كان يفعله بقرطبة في عهد الشباب فيقول: «ولقد كنت في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب من مقبرة عندنا تسمى بمقبرة اليهود خارج قرطبة»⁽⁴⁾.

إن من السمات التي تتصف بها النفس البشرية، الضعف والعجز والتعرض للأمراض المختلفة... وهذا ما حصل لصاحبنا القرطبي، إذ ذاق مرارة المرض وآلامه، واتبع ما كان يراه صالحاً لاستئصاله والشفاء منه. ففي حديثه عن سورة طه يقول: «فيها آية تدخل في باب الرقى وهي: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزورها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً﴾⁽⁵⁾ ترقى بها التآليل وهي التي تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)، وقد تطلع في الجبين وأكثر ذلك في اليد

(1) نفع الطيب ج 2 ص 409 .

(2) السيوطي: طبقات المفسرين ص 29 الطبعة الأوربية. وانظر أيضاً، طبقات المفسرين / للدواودي ص 213 . مخطوطة مصورة بالميكروفيلم بدار الكتب المصرية تحت رقم (32) تاريخ.

(3) الجامع لأحكام القرآن، مقدمة الجزء الثالث (د) بقلم الشيخ إبراهيم أطفيش.

(4) التذكرة ص 25 .

(5) طه الآيات 105, 106, 107 .

فتأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير يكون في طرف كل عود عقدة، تمر كل عقدة على التآليل وتقرأ الآية مرة ثم تدفن الأعواد الثلاثة في مكان ندي... فلا يبقى لها أثر، جربت ذلك في نفسي وفي غيري فوجدته نافعاً والحمد لله»⁽¹⁾.

ويحدثنا القرطبي - أيضاً - عن بعض مشاهداته في المجتمع الإسلامي، وما يقع فيه من مظاهر اجتماعية، وما يتم فيه من تكالب بعض الناس على الاشتغال بالدنيا والاهتمام بها، حتى ينسى عند الاحتضار أن يذكر الشهادتين عند تلقينهما إياه، فيقول: «ولقد رأيت بعض الناس وهو في غاية المرض يعقد بأصابعه ويحسب.. وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والجنان الفلاني اعملوا فيه كذا... نسأل الله السلامة والممات على الشهادة بمنه وكرمه»⁽²⁾.

ولا يفوتنا أن نذكر أن إمامنا القرطبي لم يعيش حياته عالة على الناس يطلب منهم الإحسان والصدقة، وينسى نصيبه من الدنيا - مما أحله الله له من الطيبات من الرزق - ويترهبين، ولم يكن من الذين جهلوا دينهم ونسوا ان يتخذوا لنفسهم مهنة أو صنعة تقيهم شرَّ سؤال الناس وتحفظهم من التلصص مما في أيديهم، لم يكن القرطبي يفعل ذلك، لأنه يعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اتخاذ الأسباب والوسائل للعمل خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه. ولعلمه أن دعوة الإسلام لم تكن «دعوة رهبانية تخلق الانفصال بين الدين والحياة... ولكن دعوة الإسلام كانت دعوة حياة، بنيت على أساس من القيم، فتكاملت ديناً ودنيا... ومن هنا كان علماء الإسلام وفقهاؤه عمالاً وتجاراً، لا يمنعهم فقه ولا تفسير ولا إمامة عن العمل... فكان منهم النحوي الزجاج (يشتغل بصناعة الزجاج) وكان منهم الفقيه المحدث (القفال) صانع الأقفال...»⁽³⁾.

(1) القرطبي: التذكار ص 183 . وكذلك انظر الجامع ج 11 ص 246 . مع ملاحظة وجود

اختلافات بسيطة بينهما في بعض الألفاظ.

(2) التذكرة ص 36 باب (ما جاء أن الميت يحضر الشيطان عند موته).

(3) عبد المجيد وافي: الإمام القرافي، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد الأربعون سنة 1388 هـ

/ 1968 م ص 54 .

وقد ألف القرطبي نفسه كتاباً يبحث فيه المسلمين إلى كسب الحلال والعمل والسعي وراء الرزق، أسماه: (قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة) وإذا تتبع الباحث جامعه لأحكام القرآن بالتقصي والدراسة الواعية، لوجد الكثير والكثير من الإشارات والتصريحات التي تتضمن دعوة المسلمين إلى البناء والإنتاج وثمار ما منحه الله لهم من كنوز الأرض، باطنها وظاهرها.

بيد أن دعوته هذه للكسب والعمل والالتفات إلى أسباب العيش ووسائل الحياة المتعددة، لم تصرفه عن مهمته ورسالته في هذا الوجود الفاني، وهي حملة لدعوة الإسلام، ونشرها بين العالمين ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾⁽¹⁾ ذلك أن رسالته الإسلامية تلك كانت عنده غاية الغايات، أما الحياة وما فيها من وسائل المتع والعيش، ليست إلا وسيلة تضمن له البقاء، ليستمر في حمل مشعل الحياة العزيزة، التي يعيش فيها الناس جميعاً تحت دولة القرآن.. وليست إلا معبراً يعبره أولئك الذين تهفو قلوبهم إلى تلك الحياة الكريمة.. وها هو العالم، العامل، القرطبي - رحمه الله تعالى - يذكرنا بتلك الصفوة المختارة من الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، الذين لم ينسوا أن يأخذوا حظهم من الحياة الدنيا، إلى جانب رسالاتهم الربانية الكبرى. فيقول في المسألة الثالثة عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنت شاكرون﴾⁽²⁾. «هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم السنة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان يصنع أيضاً الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان

(1) فصلت الآية 33 .

(2) الأنبياء الآية 80 .

آدم حراثاً، ونوح نجاراً ولقمان خياطاً، وطالوت دباغاً. وقيل: سقاء، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس. وفي الحديث: (إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويغض السائل الملحف)⁽¹⁾.

ونجده عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق...﴾⁽²⁾ يذكر في المسألة الثانية قضية ذات أهمية عظمى في تأريخ الدعوة الإسلامية، هي أن المسلم - إلى جانب كسبه وسعيه على عياله - لا ينسى أن يدعو الناس إلى الإسلام ويذكرهم بمبادئه المثلى، وما في واقعهم من فساد اجتماعي وظلم سياسي، فيقول:

«دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش. وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق. وفي البخاري في صفته عليه السلام: (ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق)⁽³⁾. وذكر السوق مذکور في غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصة المهاجرين، كما قال أبو هريرة: وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصنف⁽⁴⁾ بالأسواق، أخرجه البخاري⁽⁵⁾».

وكان لشيخنا القرطبي - كغيره من بني الإنسان - علاقات ودية بين إخوة له، جمع بينهم إيمانهم بالإسلام، والتفافهم حول ظلاله الوارفة، ومشاركتهم في خدمة المسلمين بالتأليف والإنتاج الثقافي الضخم في شتى المعارف والعلوم الإسلامية والعربية. وكان من هؤلاء أبو جعفر بن الزبير الذي دارت بينه وبين القرطبي

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 11 ص 321 .

(2) الفرقان من الآية 7 .

(3) البخاري ج 3 ص 87 .

(4) من قولهم: «هذه صفقة مباركة وهي ضرب اليد على اليد في البيع والبيعة» أساس البلاغة للزمخشري ص 533 النهر الثاني طبعة الشعب سنة 1960 م.

(5) ج 3 ص 68 الجامع لأحكام القرآن ج 13 ص 5 .

مراسلات ومكاتبات، حينما رحل القرطبي إلى المشرق الإسلامي، واستقر بمصر⁽¹⁾. وأبو القاسم أخو شيخه أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، وأبو عبدالله محمد بن أحمد القصري. والشيخ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، المولود سنة 626 هـ، والمتوفي سنة 684 هـ. وقد دفن بدير الطين (دار السلام) بجهة مصر القديمة بالقرب من القاهرة⁽²⁾.

ورافق الشيخ القرافي الإمام القرطبي في رحلته إلى الفيوم بمصر، ووقعت لهما حادثة غريبة، فحواها أن المكان الذي نزلا فيه كان به تيس من المعز - ولم يعلما بوجوده - فبدأ يصيح، فارتعد القرافي من هذا الصوت، واضطربت نفسه، وخارت قواه. أما القرطبي فقد كان جريئاً لمواجهة هذا الموقف، وبدأ يطمئن أخاه القرافي وأمسك قرني التيس حتى جاء المضيفون لهما وذبحوه إكراماً وإعزازاً لهذين العالمين الجليلين... وفي هذا السياق يذكر صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) أن الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري أخبره بقوله:

«ترافق القرطبي المفسر والشيخ شهاب الدين القرافي في السفر إلى الفيوم. وكل منهما شيخ فنه في عصره، القرطبي في التفسير والحديث والقرافي في المعقولات فلما دخلاها ارتادا مكاناً ينزلان فيه فدلا على مكان، فلما أتياه، قال لهما إنسان يا مولانا بالله لا تدخلان فإنه معمور بالجان. فقال الشيخ شهاب الدين للغلمان ادخلوا ودعونا من هذا الهذيان ثم إنهما توجهتا إلى جامع البلد إلى أن يفرش الغلمان المكان. ثم عادا فلما استقرا بالمكان سمعا صوت تيس من المعز يصيح من داخل الخرستان وكرر ذلك الصياح فامتقع لون القرافي وخارت قواه وبهت ثم إن الباب فتح وخرج منه رأس تيس وجعل يصيح فذاب القرافي خوفاً. وأما القرطبي فإنه قام إلى الرأس وأمسك بقرنيه وجعل يتعوذ ويبسمل ويقرأ ﴿اللَّهُ أَذُنُ لَكُمْ أَمْ عَلَى

(1) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر الخامس / القسم الثاني ص 585 .

(2) عبد المجيد وافي: الإمام القرافي، مجلة الوعي الإسلامي ص 55 هامش.

الله تفترون»⁽¹⁾ ولم يزل كذلك حتى دخل الغلام ومعه حبل وسكين. وقال يا سيدي تنح عنه وجاء إليه. أخرجه وأنكاه وذبحه فقالا له: ما هذا. فقال: لما توجهتما رأيته مع واحد فاسترخصته واشتريته لنذبحه ونأكله وأودعته في هذا الخرستان. فأفاق القرافي من حاله وقال: يا أخي - لا جزاك الله خيراً - ما كنت قلت لنا وإلا طارت عقولنا»⁽²⁾.

هذا، وقد اتصل القرطبي بكبار علماء وفقهاء عصره، ورحل إليهم في معاهدهم ومقار إقامتهم، وأخذ عنهم علومه وثقافته - كما سنعرف ذلك فيما يلي - ومنهم: شيوخه أحمد بن عمر القرطبي، وعبدالوهاب بن ظافر بن رواج بثغر الإسكندرية، والحسن بن محمد البكري بالجزيرة، قبالة المنصورة، وعبدالعظيم بن عبد القوي المنذري، وعلي بن هبة الله الجميزي... وغير هؤلاء من علماء الإسلام والمفكرين.

إن أصحاب الدعوات الإلهية الذين يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، ويأمرونهم بالانقياد لأوامره، والإمتثال لأحكامه، وانفراده بالحاكمية المطلقة «إن الحكم إلا لله»⁽³⁾ إن هؤلاء يكونون - دائماً - سباقيين إلى ترجمة تلك الأوامر والأحكام إلى سلوك وأعمال في واقع حياتهم، لتكون دعوتهم مستجابة وذات فاعلية عظيمة في نفوس المدعويين إليها، وتحتل سويداء قلوبهم، ذلك لأنهم يؤمنون بأنهم مسئولون أمام الله على هذه الأمانة العظيمة ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾⁽⁴⁾ ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾⁽⁵⁾ فكانوا يتصفون بصفات مثالية رائعة، ويتخلقون بأخلاق رسالاتهم السماوية الفاضلة من

(1) يونس من الآية 59 .

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات ج 2 ص 122 طبعة سنة 1381 هـ - 1961 م.

(3) الأنعام من الآية 57 .

(4) الحجر الآيتان 92, 93 .

(5) الأعراف الآية 6 .

التضحية في سبيل المبدأ، وتقوى الله ومراقبته في السراء والضراء، والزهد مما في أيدي الناس، وصللة الأرحام، والشعور بأن الموت أمر محتتم لا بد منه، وهو يأتي بغتة، الأمر الذي يولد في الإنسان الخوف من الله تعالى، والتزام أحكامه. وهذا ما ينطبق على إمامنا القرطبي الذي عاش حياته منعماً، مكرماً في رياض القرآن وسنة محمد رسول الله ﷺ... وقد تشربت نفسه أحكامهما، وتروضت على طاعة الله - سبحانه وتعالى - وأخضع هواه لما جاء فيهما. وفي كتابه: (التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة) يقول:

«فمن أطاع مولاه وجاهد نفسه وهواه، وخالف شيطانه ودينياه، كانت الجنة نزله ومأواه، ومن تمادى في غيه وطغيانه وأرخبى في الدنيا زمام عصيانه، ووافق نفسه وهواه في مناه ولذاته، وأطاع شيطانه في جميع شهواته كانت النار أولى به، قال الله تعالى: ﴿فأما من طفئ وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾⁽¹⁾»⁽²⁾.

وكان القرطبي - رحمة الله تعالى عليه - يدعو المسلمين إلى مراقبة الله والخشية منه وحده دون سواه، لأنه المطلع على كل شيء والمجازي على الأعمال - خيراً أم شراً - في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فيقول: «فتفكر - يا أخي - وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك. وأعظم الشهود لديك المطلع عليك الذي لا تخفى عليه خافية عين ولا يغيب عنه زمان ولا أين. قال الله تعالى: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً، إذ تفيضون فيه﴾⁽³⁾ فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه يجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير، سبحانه لا إله إلا هو»⁽⁴⁾.

(1) النازعات الآيات من 37 إلى 41 .

(2) التذكرة ص 406 .

(3) يونس من الآية 61 .

(4) التذكرة ص 288 .

ولما كانت أخلاق القرطبي مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فإنه لم يعط للدنيا وزخارفها الفاتنة ما تستحق من الحرص والتكالب على ملذاتها، بل اتجه وجهة أخرى جعلته يتحكم في زمام قيادتها، ويوجهها نحو وجهتها المثلى، يأخذ منها نصيبه، ويجعلها وسيلة تبلغه نحو هدفه المنشود، وهو نوال مرضاة الله تعالى، ونصرة دينه ونشره بين العالمين.. لهذا فإنه كان لا يتكلف في شيء من حياته، بل كان يلبس ثوباً واحداً وعلى رأسه طاقة⁽¹⁾. وقد وصفه المترجمون لحياته بأنه «كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف⁽²⁾» «وكان من العلماء العاملين⁽³⁾ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فنذروا أنفسهم لخدمة دينهم وأمتهم، وشاع بينهم الوثام والتواد. وتتمثل فيهم تلك الصورة المشرقة التي رسمها رسول الله ﷺ للمؤمنين في قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)⁽⁴⁾».

لهذا فقد قويت صلة الإمام القرطبي بكبار علماء عصره في الأندلس والإسكندرية والجزيرة، المقابلة لمدينة المنصورة بمصر، ومنية بني الخصيب التي اختارها مقراً لإقامته، حيث كانت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية.

وفاة القرطبي:

بعد أن قابل القرطبي كبار علماء الإسلام في الإسكندرية والجزيرة بالديار

(1) المقري: نفع الطيب ج 2 ص 409 . الداودي: طبقات المفسرين ص 213 مخطوط.

(2) ابن فرحون: الدياج ص 317 .

(3) محمد مخلوف: شجرة النور 197 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي ج 16 . 14 - صحيح بخاري ج 128 .

المصرية، استقر أخيراً في مدينة منية بني الخصيب⁽¹⁾ (المنيا حالياً) في شمال أسيوط بصعيد مصر الأدنى. وقد توفي ودفن بها ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة 671 هـ، الموافق 31 من مارس سنة 1273 م. رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته، ونفع المسلمين بما ألف وكتب في علوم الإسلام والعربية. ويقال أن ضريحه لم يندثر إلى الآن، وهو موجود بالمنيا ويسمى ضريح «سيدي القرطبي».

شيوخ القرطبي:

لقد تتلمذ الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - على كبار علماء الإسلام واللغة والأدب، الذين سجل لهم تاريخ التربية الإسلامية أنصع الصفحات وأشرفها، ذلك أنهم فرضوا وجودهم على التأريخ الإنساني، بما بذلوه من جهد جهيد وعمل مضن ورحلات متواصلة في سبيل التعليم والتعلم. فهم قد نذروا أنفسهم لله - بما تحتوي عليه هذه الكلمة من مدلولات - فإذا وجهوا همتهم لدراسة الثقافة الإسلامية بما تشتمل عليه من عقيدة وفقه وحديث وتفسير وبلاغة ولغة... فإنهم لا يهدفون من وراء ذلك للحصول على مناصب دنيوية عليا، ولم يكن يدفعهم لهذه الدراسة حب الظهور واستعراض العضلات الفكرية واللغوية، بل كانت غايتهم المثلى ابتغاء مرضاة الله تعالى، إيماناً منهم بأنهم مسئولون على فهم دينهم والعمل به ومطالبون بنشره في العالمين. ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين﴾⁽²⁾.

على هذا الأساس تثقف شيوخ القرطبي - وغيرهم من علماء الإسلام - وتركوا آثارهم في تلاميذهم، وحملوهم مسؤولية حمل تراثهم الإسلامي العظيم

(1) وهي «مدينة كبيرة حسنة، كثيرة الأهل والسكن على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى» كما ذكر ياقوت في معجمه والبغداد في مراصده. وهذه المدينة «تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد» الخطط القرظية ج 1 ص 362 وقد خاطبه الشاعر بقوله:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلكما بحر
(2) الأعراف الآية 6 .

للأجيال المسلمة، القادمة.. وما قصرُوا في ذلك، بل كانوا خير خلف لخير سلف. ودليلنا على ما نقول هو تلك الثروة الضخمة، المتناهية في الضخامة، من مجلدات ألفت في شتى العلوم والمعارف الإنسانية والتي نعيش - الآن - على هديها ونورها. وهي بين أيدينا - ما كان منها مطبوع أو مخطوط - تنطق بكل قوة، وتشير إلى الجهود الجبارة التي بذلها أصحابها في سبيل إخراجها إلى حيز الوجود، بما أوتوه من وسائل الكتابة والتأليف، لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لما نتمتع به من وسائل الطبع والنشر والتوزيع..

وهكذا سار كل جيل من أجيالنا المسلمة على هذا المنهج، يؤدي الرسالة ويحمل الأمانة بكل صدق وإخلاص، ويسلمها لمن يأتي بعده.. إلى أن وقعنا ضحايا في قبضة العدو، واتجهت هممنا إلى ملذات الحياة وترفها، وأصبحنا لا حول لنا ولا قوة.. ففرت من أيدينا تلك المكانة العلمية المرموقة التي كانت تزخر بها بلاد الإسلام والمسلمين في كل من: بغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وقرطبة حيث كانت جامعات هذه المدن مقصد الطلاب - من كل مكان - وكعبتهم التي يشدون إليها الرحال، طلباً للعلم والمعرفة وتزوداً بما عند المسلمين من فنون القول وآيات الإبداع..

ولكي تتضح لنا شخصية القرطبي الثقافية والعلمية يفرض علينا البحث العلمي أن نترجم لبعض شيوخه الذين نهل من مواردهم العذبة، وتزود بما عندهم من فقه وتفسير وحديث ولغة... لنلاحظ مدى تأثيره بهم واستفادته بما تلقاه عنهم من علوم القرآن والحديث وأصول الفقه والعقيدة... حتى تكونت شخصيته الفكرية التي تتضح - بصورة جلية - للباحث عند دراسته لجامعه لأحكام القرآن.

ومن العلماء الذين تربى القرطبي على موائد علومهم، وتلقى عنهم ثقافته الإسلامية. الأئمة الأجلاء: أحمد بن عمر القرطبي، وأحمد بن محمد القيسي القرطبي وعبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، وعبدالوهاب بن ظافر بن رواج وأبو الحسن علي بن محمد بن حفص اليحصبي، وأبو محمد عبدالمعطي بن محمد بن عبدالمعطي اللخمي، الإسكندراني، وأبو القاسم عبدالله بن علي بن خلف الكومي

التلمساني، وأبو الحسن علي بن هبة الله بن الجميزي، وأبو عبدالله محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني، وأبو علي الحسن بن محمد بن محمد البكري النيسابوري ويحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري وغيرهم... وسأقتصر على تراجم الذين أكثر القرطبي النقل عنهم في مؤلفاته، واتضح تأثيرهم على شخصيته وضوحاً كبيراً مع ذكر بعض النصوص التي نقلها عنهم، ومدى موافقته ومخالفته لآرائهم ومن هؤلاء..

أولاً: الإمام أحمد بن عمر القرطبي

(656/578 هـ – 1258/1182 م)

هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري، القرطبي، المالكي «عرف بابن المزين بالزاي المعجمة بعدها ياء مثناة من تحت ونون، يلقب بضياء الدين، من أعيان فقهاء المالكية»⁽¹⁾.

تتفق كتب التراجم التي ترجمت للشيخ أحمد بن عمر القرطبي في تحديد السنة التي ولد فيها، باستثناء صاحب الديباج الذي يذكر أن مولده سنة ثمان وتسعين وخمسائة⁽²⁾ في حين أن السيوطي⁽³⁾ وابن كثير⁽⁴⁾ والمقري⁽⁵⁾ وابن العماد الحنبلي⁽⁶⁾ وغيرهم يتفقون جميعاً على أن مولده كان بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسائة هجرية.

عنى أبو العباس القرطبي بما كان سائداً في عصره من علوم كالفقه والحديث

(1) ابن فرحون: الديباج ص 68 .

(2) المرجع السابق ص 70 .

(3) حسن المحاضرة ج 1 ص 260 طبعة 1299 هـ.

(4) البداية والنهاية في التاريخ ج 13 ص 213 .

(5) نفح الطيب ج 3 ص 370 .

(6) شذرات الذهب ج 5 ص 273 .

واللغة العربية.. وهو من العلماء المسلمين الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق الإسلامي، ليتزودوا بالعلم والعرفان، ويؤدوا فريضة الحج المقدسة.

وكان قد رحل «مع أبيه من الأندلس في سن الصغر. فسمع كثيراً بمكة والمدينة والقدس ومصر والإسكندرية وغيرها من البلاد»⁽¹⁾ وأخيراً استقر به المقام في مدينة الإسكندرية حيث أقام بها يدرس ويحدث⁽²⁾. وقد نال مكانة علمية عظيمة حيث «اشتهر وطار صيته وأخذ الناس عنه وانتفعوا بكتبه»⁽³⁾ «وكان من الأئمة المشهورين والعلماء المعروفين، جامعاً لمعرفة عدة علوم منها: علم الحديث والفقه العربية وغير ذلك... وكان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث والفضل التام»⁽⁴⁾.

ومن العلماء الذين تلقى عنهم ابن المزين علومه، واستفاد منهم استفادة كبيرة أبو القاسم بن عبدالرحمن بن عيسى بن الملجوم الأزدي، وأبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن التجيبي التلمساني، والقاضي أبو محمد عبدالله بن سليمان بن حوط الله، وعبدالحق الإشبيلي، وأبو الأصبع بن الدباغ، وأبو محمد قاسم بن فيرة الشاطبي وغيرهم. وسمع من خلق كثير كما يقول اليونيني في كتابه (ذيل مرآة الزمان).

وقد آتت جهوده العلمية ونشاطاته الثقافية ثمارها، حيث تتلمذ على يديه كبار علماء الإسلام. وقدم للمكتبة الإسلامية أروع ما أنتجه في مجال الثقافة الإسلامية ومن تلاميذه «الحافظ أبو الحسن بن يحيى القرشي، والقاضي أبو الحسن اليحصبي، وأبو عبدالله بن فرح القرطبي صاحب التذكرة، وشرف الدين الدمياطي»⁽⁵⁾ «قال الشيخ شرف الدين الدمياطي أخذت عنه، وأجاز لي مصنفاته

(1) ابن فرحون: الديباغ ص 69 .

(2) السيوطي: حسن المحاضرة ص 260 اليونيني: ذيل مرآة الزمان، المجلد الأول ٥٩ .

(3) المقرئ: نفع الطيب ج 3 370 .

(4) الديباغ 68, 69 .

(5) محمد بن مخلوف: شجرة النور 194 .

رحمه الله تعالى»⁽¹⁾. كما أنه قد حدث عنه بالإجازة المؤرخ الإسلامي أبو عبدالله ابن الأبار المتوفى سنة 659 هـ⁽²⁾.

أما مؤلفاته - التي ذكرها المترجمون - فيبدو عليها اهتمامه بدراسة الحديث النبوي، حيث صنف كتابه: (المفهم لشرح اختصار كتاب مسلم) وقد سمع منه تلميذه القرطبي بعض شرحه هذا⁽³⁾، كما أنه روى عنه في الإسكندرية⁽⁴⁾. وكتابه (المفهم) كتاب جليل اعتمد عليه الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في كثير من المواضع. وفيه أشياء حسنة مفيدة، محررة⁽⁵⁾ «ذكر فيه أنه لما لخصه ورتبه وبوبه شرح غريبه ونبه على نكت من إعرابه وعلى وجوه الاستدلال بأحاديثه»⁽⁶⁾ وهو أربعة أجزاء. ويوجد منه في دار الكتب المصرية الجزء الرابع وهو الأخير⁽⁷⁾. كما أنه اختصر كتاب صحيح البخاري الذي افتتحه بقوله: «الحمد لله الذي خص أهل السنة بالتوفيق... الخ»⁽⁸⁾ وله كتاب آخر أسماه: «كشف الإقناع، عن الوجد والسماع، أجاد فيه وأحسن»⁽⁹⁾.

وقد انتقل الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي إلى جوار ربه في الرابع عشر من شهر ذي القعدة سنة 656 هـ بالإسكندرية، وقد تجاوز ثمانين وسبعين سنة⁽¹⁰⁾.

(1) نفح الطيب ج 3 371 .

(2) المراكشي: الذيل والتكملة ج 2 348 تحقيق د. محمد بن شريفة.

(3) ابن فرحون: الدياج 318 - المقرئ: نفح الطيب ج 2 409 .

(4) المراكشي: الذيل والتكملة 585 تحقيق د. إحسان عباس.

(5) نفح الطيب ج 3 370 .

(6) حاجي خليفة: كشف الظنون ج 1 557 .

(7) فهرس الخزانة التيمورية ج 1 مجلد 1 ج 2 157 مصطلح الحديث (372) .

(8) كشف الظنون ج 1 554 .

(9) نفح الطيب ج 3 ص 370 .

(10) ذيل مرآة الزمان ص 96 - الذهبي: تذكرة الحفاظ ج 4 1438 .

وكان الشيخ أحمد القرطبي مؤثراً قوياً على شخصية تلميذه أبي عبدالله القرطبي ومحبوباً لديه، إذ بلغ نقله عنه الكثير من ميادين الفقه الإسلامي والحديث النبوي. ونجد ذلك واضحاً فيما بين أيدينا من مؤلفاته كالجامع لأحكام القرآن. والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. ويدل هذا على شدة احتكاكه واتصاله به، ومرافقته أينما رحل وحيثما أقام. وهذه صفة طيبة في الطالب المجد، المخلص، الذي يطلب العلم ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويعتز بانتسابه إلى العلماء والمفكرين وذوي المقامات العلمية الرفيعة.. كما يدل على رعاية أبي العباس القرطبي لتلميذه واهتمامه به، وإخلاص النصيح والتوجيه له، وتربيته تربية إسلامية عظيمة، مكنته من النبوغ العلمي والمشاركة في مجالات عديدة من مجالات الثقافة الإسلامية.

وهذا النقل قد اتخذ عدة صور وأساليب فتارة يقول: سمعت شيخنا الإمام أبا - العباس أحمد بن عمر القرطبي⁽¹⁾. وأخرى يقول: وأنبأنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي بثر الإسكندرية - حماه الله⁽²⁾ - وثالثة يقول: قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم له⁽³⁾...

ويبدو لدارسي الجامع لأحكام القرآن أن مؤلفه قد تأثر في تفكيره تأثيراً كبيراً بشيخه أبي العباس القرطبي في شتى مجالات التفكير والبحث. فمن ذلك أن الشيخ أبا العباس قد شن هجوماً قوياً على أصحاب المذاهب الفلسفية الذين يؤلون الألفاظ القرآنية ويفسرونها تفسيراً يتفق مع نزعاتهم الفلسفية وأهوائهم النفسية. ففي المسألة السادسة وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

(1) القرطبي: التذكرة ص 34 .

(2) المرجع السابق ص 150 .

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 13 ص 236 .

تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴿١﴾ نجد أن القرطبي المفسر ينقل عن شيخه أبي العباس تفسيره لهذه الآية الكريمة، فيقول: «قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك» (٢).

يتضح لنا من هذا النص أن أبا العباس القرطبي غير راض على تفكير الفلاسفة، فراح ينكر عليهم ذلك التفكير ويصفه بأنه تفكير غير إسلامي.. وهذا المنهج نفسه هو الذي اتبعه تلميذه أبو عبدالله القرطبي. فهو حين يتعرض لأمثال هذه الآية الكريمة نجده يشدد النكير على المذاهب الكلامية والفلسفية، وذلك لاتباعه منهج أهل السنة في التفكير الاعتقادي. كما سنعرف ذلك بشيء من التفصيل في الباب الخامس من هذا الكتاب.

وقد وصل تعلق الطالب بشيخه وتأثره به إلى حد حفظ ما يسمعه منه ويرويه عنه في حلقات دروسه ومناقشاته، إلى أن أصبح ما حفظه الطالب جزءاً من ثقافته الخاصة التي يذكرها في تفسيره دون أن ينسبه إلى شيخه. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه بشيء﴾ (٣) فبعد أن بين سبب نزول هذه الآية، وهي أنها نزلت في رحمان اليمامة والأسود العنسى وسجاح زوج مسيلمة، كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه قال: «قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف

(1) آل عمران من الآية 7 .

(2) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 13، 14 .

(3) الأنعام من الآية 93 .

من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائهم من الأكدار وخلوها عن الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون، ويستدلون على هذا بالخضر، وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هـذ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ (1).

فما ذكره القرطبي هنا ذكره في موضع آخر من تفسيره نقلاً عن شيخه أبي العباس. وليس هناك اختلاف بين النصين لفظاً ومعنى، إلا أن كلام شيخه ورد بشكل أكثر تفصيلاً ودقة. وموضوع البحث هو أن الأحكام الشرعية لا يجوز أخذها إلا ممن أوحاها الله إليهم، وهم الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام. وإتماماً للفائدة العلمية نذكر ما نقله عن شيخه. ففي المسألة الثالثة وعند تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (2) ينقل عن شيخه أبي العباس فيقول:

«قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم،

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 39 .

(2) الكهف من الآية 82 .

وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم من الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (3) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغني عن الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول. وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصية النبوة فإن هذا

(1) الحج الآية 75 .

(2) الأنعام من الآية 124 . وهذه قراءة نافع التي كان يقرأ بها القرطبي المحقق ج 11 41 (هامش).

(3) البقرة من الآية 213 .

نحو مما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي) الحديث⁽¹⁾.

إن التلمذة الهادفة المفيدة، هي التي يكون فيها دور الطالب لا يقتصر على مجرد تلقي العلوم والمعارف والاستماع، دون أن يكون هناك تفاعل فكري، ونقاش علمي بين الطالب وأستاذه. والأستاذ الذي يقبل لتلميذه ذلك يعتبر في حكم التربية السليمة فاشلاً، ويساعد على صنع إسطوانات بشرية متحركة، بدلاً من أن يصنع جيلاً مفكراً، ناضجاً، واعياً، معتمداً على نفسه في مستقبل حياته الفكرية والثقافية يأخذ من الآخرين ما عندهم من أفكار ومفاهيم بوعي وفهم لما تدل عليه تلك الأفكار وهذه المفاهيم، ويعطي ما عنده من أفكار مستنيرة، وآراء سديدة. ومن حقه أن يرفض ما لا يقام عليه دليل، ولا تطمئن إليه النفس. وعليه أن يستوضح ذلك من شيخه أو أستاذه بأدب واحترام ووقار، وعلى شيخه أن يبين له الأدلة على ما يقول، ويدعم آراءه بالحجة والمنطق والبرهان، ويفتح له قلبه، دون أن يثور في وجهه ويمنعه من المناقشة والاستفسار.. كما أنه من حق الطالب أن يخالف رأي أستاذه، وأن يكون وجهة نظر تختلف عن وجهة نظره، إذا كان معه دليل أو فهم آخر يختلف عن دليل أستاذه وفهمه، وأقوى منه حجة، وسواء أكان ذلك في حياته أم بعد وفاته... وهذه الحال تنطبق على إمامنا القرطبي، فقد تتلمذ على شيخه أبي العباس أحمد بن عمر، وكانت له بعض الاجتهادات الفقهية التي تختلف عن اجتهادات شيخه فمن ذلك أن القرطبي المفسر عندما تناول تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ...﴾⁽²⁾ وبعد أن ذكر أقوال الفقهاء في حكم الوصي على أموال اليتيم، ذكر رأي شيخه أبي العباس في هذه القضية الفقهية، وعقب عليه بما وصل إليه اجتهاده وأدى إليه فهمه...

(1) الجامع لأحكام القرآن جـ 11 ص 40 ، 41 .

(2) النساء من الآية 6 .

قال القرطبي: «وكان شيخنا أبو العباس يقول: إن كان مال اليتيم كثيراً يحتاج إلى كبير قيام عليه بحيث يشغل الولي عن حاجاته ومهامه فرض له فيه أجر عمله، وإن كان تافهاً لا يشغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئاً غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكل القليل من الطعام والسمن، غير مضر به ولا مستكثر له، بل على ما جرت العادة بالمسامحة فيه. قال شيخنا: وما ذكرته من الأجرة، ونيل اليسير من التمر واللبن كل واحد منهما معروف، فصلح حمل الآية على ذلك. والله أعلم»⁽¹⁾. وبعد ذلك أورد القرطبي رأيه فقال:

«قلت: والاحتراز عنه أفضل، إن شاء الله»⁽¹⁾ فهو يرى أنه من باب الأفضلية ألا تمتد يد الوصي إلى مال اليتيم مهما كان وضعه المالي. وهذا فهم منه يدل على شدة ورعه وتقواه لله تعالى، وحرصه على ألا يأكل الإنسان إلا من كسب يده وإن كان مباحاً له - إذا كان فقيراً - أن يأكل من مال الموصى عليه بالمعروف، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾⁽²⁾.

ويبدو أن شدة صلة القرطبي بشيخه أبي العباس كان لها أثرها في ثقافته الفقهية حيث إنّه يخالف - بعض الأحيان - ما ينص عليه مذهبه المالكي في بعض الأحكام الشرعية فمن ذلك أن الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه لا يوجب قراءة الفاتحة في الصلاة على المأموم.. بعد أن عرض القرطبي أدلة أئمة الفقه الإسلامي المتعلقة بوجوب قراءة الفاتحة على الإمام والمأموم والمنفرد لدى فريق منهم، وعدم وجوبها على المأموم لدى فريق آخر، قال: «إن الفاتحة متعينة في كل ركعة لكل أحد على العموم، لقوله ﷺ: (لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب)⁽³⁾ وقوله: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج)، ثلاثاً⁽⁴⁾.

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 5 ص 44 .

(2) النساء من الآية 6

(3) صحيح البخاري ج 1 ص 192 طبعة الشعب.

(4) المنذري: مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 81 طبعة الكويت.

وقال أبو هريرة: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي أنه: (لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد) أخرجه أبو داود⁽¹⁾.

ولعل وجهة نظر القرطبي في هذا الموضوع الفقهي قد نشأت عن تلمذته على شيخه أبي العباس الذي يرى وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة على الجنائز خلافاً لما هو مشهور في المذهب المالكي الذي احتج - على صحة ما ذهب إليه - بقوله ﷺ: (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة. بيد أن الشافعي وأحمد وأشهب يتفقون مع أبي العباس القرطبي في رأيه ذلك، استدلالاً بقوله ﷺ: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب) حملاً على عمومه.

وقد جمع أبو أمامة هذين الحديثين في حديث واحد، وهو قوله: (السنة في الصلاة على الجنائز أن تكبر، ثم تقرأ بأم القرآن، ثم تصلي على النبي ﷺ ، ثم تخلص الدعاء للميت. ولا يقرأ إلا في التكبير الأولى ثم يسلم)⁽²⁾ قال القرطبي المفسر: «قال شيخنا أبو العباس: وهذان الحديثان صحيحان، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند. والعمل على حديث أبي أمامة أولى، إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام: (لا صلاة) وبين إخلاص الدعاء للميت. وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء. والله أعلم»⁽³⁾.

وهكذا كان للشيخ أبي العباس فضل كبير في تكوين شخصية القرطبي الثقافية حيث تعهده بالرعاية والعناية، إلى أن أصبح فقيهاً مجتهداً، ومحدثاً بارعاً، وعالمًا جليلاً.

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 117، 118، 119 .

(2) الشوكاني: نيل الأوطار ج 4 ص 60 أورده بلفظ مختلف.

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 8 ص 222 .

ثانياً: الشيخ أحمد بن محمد القرطبي

(562 هـ - 643 هـ)

هو الإمام العالم أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد القيسي، القرطبي، المالكي، يعرف بابن أبي حجة وهو لقب غلب على جده ثم سرى في عقبه، ويكنى أبا جعفر⁽¹⁾.

يذكر ابن عبد الملك المراكشي⁽¹⁾ وجلال الدين السيوطي⁽²⁾ وإسماعيل البغدادي⁽³⁾ أن الشيخ أحمد بن محمد القرطبي قد ولد سنة 562 هـ.

تثقف ابن أبي حجة بعلوم ومعارف الثقافة الإسلامية التي كونت منه عالماً عظيماً في القراءات والحديث والنحو والفقه، فقد «تلا بالسبع والإدغام الكبير عن أبي عمرو وبقراءة يعقوب الحضرمي على أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الشراط، وأكثر عنه وأجاز له»⁽¹⁾ «وأقرأ القرآن والنحو، وأسمع الحديث بقرطبة، ثم خرج عند تغلب العدو عليها إلى أشبيلية»⁽²⁾ حيث «أقرأ بها وقدم إلى الصلاة والخطبة بجامع حصن الوادي من أحوازها»⁽¹⁾ ومن الشيوخ الذين تلقى على أيديهم ثقافته، واستفاد مما عندهم من معارف وعلوم أبو محمد ابن حوط الله، وعبد الحق بن محمد الخزرجي وأبو الوليد هشام بن عبدالله الحاكم وأكثر عنه وأجاز له، وقد سمع شيئاً يسيراً من ابن بشكوال وابن حفص وأبي العباس بن عبد الرحمن بن مضاء، وأبي العباس يحيى بن عبدالرحمن الجريطي.

وقد اختصر أبو جعفر القرطبي كتاب (التبصرة) لمكي في القراءات اختصاراً حسناً. وألف كتاباً فقهياً جمع فيه ما اتفق عليه الشيوخان في صحيحهما من أحاديث الأحكام الشرعية سماه: (منهاج العباد) وكتاب (تفهيم القلوب بآيات علام

(1) الذيل والتكملة ص 484 تحقيق د. ابن شريفة - ابن الأبار التكملة ج 1 ص 123 .

(2) بغية الوفاة ج 1 ص 383 .

(3) هدية العارفين ج 1 نهر 94 .

الغيوب) و(تسديد اللسان، لذكر أنواع البيان) في النحو و(الجمع بين الصحيحين) البخاري ومسلم... ومن روى عنه وتلمذ عليه أبو عبدالله بن ابراهيم، وأبو القاسم محمد بن الأصغر، وابن ربيع وأبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي الذي أشار إليه واستشهد بآرائه في عدة مواضع من تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وكتابه (التذكار) و(التذكرة).

لما سقطت قرطبة في أيدي الأعداء، واستولت عليها جيوشهم، خرج الإمام أحمد بن محمد القرطبي فاراً بدينه إلى اشبيلية، حيث اتخذها سكناً له، بيد أن أعداءه كانوا يطاردونه هناك. فأثر التحول إلى سبتة وركب البحر، وأسرت أسرته وامتنحن بالتعذيب والتنكيل. وتوفي على أثر ذلك بميروقة في سنة ثلاث وأربعين وستمائة هجرية.

وتتفق المصادر التاريخية التي بين أيدينا في تحديد السنة التي توفي فيها الإمام الحافظ، أحمد القيسي، باستثناء هدية العارفين⁽¹⁾ وآثار الأدهار⁽²⁾ وكشف الظنون⁽³⁾ التي تحدها بسنة اثنتين وأربعين وستمائة. وبموته فقدت المكتبة الإسلامية رائداً عظيماً من روادها ومفكراً جليلاً من مفكريها الذين كانوا يزودونها بخلاصة تفكيرهم وثمره جهودهم المضنية التي كانوا يبذلونها ابتغاء مرضاة الله وحده.

إن رسالة المربي أو المعلم رسالة مقدسة، تفرض عليه البذل والعطاء والصدق والإخلاص لأبنائه الذين يتطلع إلى أن يكونوا قادة ومفكرين وعلماء.. وعندما يتحقق هذا الشعور عند المعلم فإنه ستتكون علاقة روحية تربط الطالب بأستاذه وتجعله مخلصاً في تلقيه العلم على يديه يصحبه في رحلاته العلمية ويستشيريه في كل ما يجد له من أمور وأحداث.. وهذا ما نراه متحققاً بين القرطبي المفسر وشيخه

(1) إسماعيل البغدادي جـ 1 نهر 94 .

(2) سليم جيرائيل الخوري القسم التاريخي ص 116 .

(3) حاجي خليفة جـ 1 نهر 599 .

أبي جعفر القيسي. فحين لقي والد القرطبي حنفة على أيدي النصارى المعتدين على قرطبة، تحير في موضوع دفنه. أيدفنه كما يدفن الشهداء، أو كسائر الموتى؟ واتجه بهذه المشكلة الفقهية إلى شيخه ابن أبي حجة ليجد عنده الحل والعلاج. وفي هذا السياق يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: «أغار العدو - قصمه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله، فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال: غسله وصل عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفين»⁽¹⁾. وبعد أن أخذ برأي شيخه، بدأ يبحث في حكم هذه القضية الفقهية إلى أن تبين له أن المسألة خلاف ما صرح به شيخه قال: «ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في (التبصرة) لأبي الحسن اللخمي وغيرها، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه»⁽¹⁾.

ومن هذه العبارة يمكننا القول أن القرطبي كان شخصية مفكرة، باحثة، لا تكتفي بحكم الآخرين حتى تصل إليه بنفسها. وليس معنى هذا أنه يشك في ذلك الحكم الشرعي، ولكن حبه للعلم، ورغبته في الوصول إلى الأدلة التفصيلية لذلك الحكم، دفعته إلى البحث والتنقيب وراء تلك المسألة الفقهية.. كما يمكننا القول أنه من حق الطالب - كما قلنا سابقاً - أن يخالف رأي أستاذه إذا كان لديه أدلة قوية يدعم بها رأيه وموقفه.. وإذا خالف القرطبي - هنا - رأي شيخه فإننا نجد يتفق معه في تفسيره لقول رسول الله ﷺ (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) أن المقصود بهم هم العلماء. وهذه الموافقة ليست موافقة عاطفية، وإنما هي موافقة فكرية لقيام الدليل الشرعي على صحتها. فهو لا يؤيد أو يستحسن رأي شيخه لمجرد أنه صادر عنه هو، وإنما يؤيده لوجود الأدلة الشرعية التي تدل على صحتها. وفي ذلك يقول: «سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوي، المحدث أبا جعفر

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 272 .

أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي، المعروف بابن حجة رحمه الله يقول في تأويل قوله عليه السلام: (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)⁽¹⁾ إنهم العلماء، قال: وذلك أن (الغرب) لفظ مشترك يطلق على الدلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس، ويطلق على فيضة من الدمع. فمعنى (لا يزال أهل الغرب) أي لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين، الحديث. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽²⁾ (3). وبعد أن أورد القرطبي تأويل وتفسير الحديث النبوي - السابق الذكر - قال:

«وهذا التأويل يعضده قوله عليه السلام في صحيح مسلم: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة)⁽¹⁾ وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره. والله أعلم»⁽³⁾.

وفي موضع آخر من التفسير يستحسن القرطبي الطالب تأويل شيخه أبي جعفر القرطبي للفظ القرآنية (فغوى) حيث أول (غوى) بمعنى (فسد) وليس بمعنى (ضل). فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾⁽⁴⁾.

يذكر القرطبي في المسألة الخامسة تأويل شيخه فيقول: «سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: (فغوى) ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا، والغى الفساد، وهو تأويل حسن، وهو أولى في تأويل من يقول: (فغوى) معناه ضل، من الغي الذي هو ضد الرشد»⁽⁵⁾. فالقرطبي - هنا - يرجع تأويل استاذة على غيره من التأويلات ويستحسنه. ولعل رفضه لمعنى «ضل» يرجع إلى أن الأنبياء والرسل

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ج 13 ص 67، 68 .

(2) فاطر من الآية 28 .

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 8 ص 297 .

(4) طه من الآية 121 .

(5) الجامع لأحكام القرآن ج 11 ص 257 .

عليهم الصلاة والسلام لا يجوز في حقهم ذلك، لأنهم لا يضلون ولا يضلون، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى عصمهم من الخطأ والضلال، وحماهم من كل الرذائل والنقائص، وجعلهم نخبة ممتازة، طاهرة مطهرة، يبلغون رسالات ربهم ويدعون الناس إلى عبادته والإقرار بربوبيته وحده، فهم لا ينطقون عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وفي كتاب (التذكار) يذكر القرطبي تعليلاً لشيخه لقوله ابن عباس: «أشرف آية في القرآن آية الكرسي»⁽¹⁾ فيقول: «سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي رحمه الله يقول: إنما كانت أشرف آية لأنه تكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمّر وظاهر ثمان عشرة مرة. وليس يوجد ذلك في غيرها»⁽¹⁾.

وهذا يدل على أن إمامنا القرطبي كان لا تفوته مجالس شيخه أبي جعفر العلمية ومناقشاته الثقافية. فهو يسمع منه دروسه ومحاضراته، ويستوعبها، وربما كان يقوم بتدوينها في كراسات خاصة.. ولعله حمل معه هذه الكراسات إلى الشرق الإسلامي حين ترك قرطبة التي سقطت في أيدي الكفار سنة 633 هـ، وأثبت تلك المعلومات فيما ألف من كتب ومؤلفات.

ثالثاً: عبد الوهاب بن ظافر بن رواج (554 هـ - 648 هـ)

في سنة 554 هـ ولد الإمام المحدث الراوية أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح القرشي الإسكندراني، المالكي، المشهور بابن رواج. وتوفي عن أربع وتسعين سنة في 18 ذي القعدة سنة 648 هـ. وكان فقيهاً، محدثاً، متواضعاً، سمع الكثير من السلفى وطائفة ونسخ الكثير وخرج الأربعين⁽²⁾.

(1) التذكار في أفضل الأذكار ص 164، 165.

(2) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 5 ص 242 - المقرئ: السلوك ج 1 ص 381 طبعة سنة 1934 م.

وقد تتلمذ على ابن رواج عدد كبير من علماء الإسلام. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- 1 - احمد بن محمد بن منصور المالكي ابن المنير 620 هـ - 683 هـ⁽¹⁾.
- 2 - محمد بن علي بن وهب المالكي ابن دقيق العيد 625 هـ - 702 هـ⁽²⁾.
- 3 - عماد الدين أحمد بن القاضي شمس الدين محمد بن العماد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة 712 هـ⁽³⁾.
- 4 - فخر الدين أبو الحسن علي بن عبد الرحمن النابلسي الحنبلي 630 هـ - 702 هـ⁽⁴⁾.
- 5 - تاج الدين القشيري المنفلوطي 636 هـ - 723 هـ⁽⁵⁾.
- 6 - بلال المغيث الطواشي الكبير الأمير أبو الخير الحبشي الصالح المتوفى سنة 699 هـ⁽⁶⁾.
- 7 - شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ الديماطي 613 هـ - 705 هـ⁽⁷⁾.
- 8 - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي المالكي المتوفى سنة 671 هـ.

وغير هؤلاء كثيرون. ذكر معظمهم السيوطي في معجمه التاريخي «حسن

-
- (1) السيوطي: حسن المحاضرة ج 1 ص 173, 174 .
 - (2) ابن حجر: الدرر الكامنة ج 4 ص 92 .
 - (3) السيوطي: حسن المحاضرة ج 1 ص 182 .
 - (4) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 6 ص 5 .
 - (5) ابن تغري: المنهل الصافي ج 1 ص 376 .
 - (6) الذهبي: العبر ج 5 ص 396 طبعة الكويت 1966 م.
 - (7) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج 2 ص 38 .

المحاضرة»⁽¹⁾. وهذا يدل على أن ابن رواج - الذي كان مقيماً بثغر الإسكندرية - من العلماء المخلصين الذين التف حول حلقاتهم الثقافية كثير من أبناء المسلمين، وهو بالطبع لم يتبوأ هذه المكانة العلمية، إلا إذا كان نابغاً في الفن الذي يتصدر لتعليمه وتدرسه للناس. وكان من العلماء الذين تشد إليهم الرحال ويقصدهم الطلاب من كل صوب وحذب، طلباً لما عندهم من كنوز المعرفة والعرفان. وظل تلاميذهم يحملون لهم الولاء والود والإخلاص في حياتهم وبعد مماتهم. فينسبون إليهم آراءهم واجتهاداتهم وما سمعوه منهم من الروايات في الحديث والفقه واللغة... ذلك لأنه من بركة العلم أن ينسب القول إلى قائله - كما يقولون - وهذا ما نلاحظه عند تلميذه أبي عبدالله القرطبي الذي اغترف من معينه الفياض في مجال السنة المطهرة، حيث كان حريصاً على حضور دروس وحلقات شيخه أبي محمد بن رواج العلمية التي كانت تقام بمسجده بثغر الإسكندرية⁽²⁾.

وتختلف النصوص التي ينقلها القرطبي عن شيوخه، فتارة ينقل النص مع إبداء وجهة نظره، وتارة أخرى يكتفي به دون تعليق أو إبداء وجهة النظر، وتارة يذكر روايات سمعها من شيوخه فيدونها كما سمعها.. وهذا ما نلمسه ونلاحظه - جلياً - عند نقله عن شيخه ابن رواج.

وقد اتخذ هذا النقل صيغتين: فتارة يستعمل لفظ (أنبأنا) وأخرى لفظ (أخبرنا).

ولكي تتضح هذه الصورة نذكر المثليين الآتين اللذين يدلان على قوة ذاكرة القرطبي، ومدى حفظه واستيعابه لروايات الحديث المختلفة.

(1) انظر على سبيل المثال الجزء الأول 182، 183، 184 .

(2) القرطبي: التذكار في أفضل الأذكار ص 6 .

المثال الأول:

جاء في الباب السابع والعشرين من كتاب (التذكار) «فيما جاء فيمن تعلم القرآن وعلمه» أن القرطبي قال:

«أنبأنا ابن رواج إجازة عن الحافظ السلفي قال: نا القاضي أبو عمرو سعود ابن علي بن الحسين الملحي بأردبيل قال نا أبو علي محمد بن وشاح بن عبيد الله الكاتب ببغداد أنا أبو القاسم عيسى بن علي بن داود بن الجراح الوزير قال نا أبو عبيد علي بن حسين بن حرب القاضي قال أخبرنا زكريا بن يحيى الكوفي ثنا عبدالله بن صالح اليماني قال ثنا أبو همام القرشي عن سليمان بن المغيرة عن قيس ابن مسلم عن طارق بن شهاب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا هريرة علم الناس القرآن وتعلمه، فانك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيت العتيق، وعلم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حدثاً برأيك⁽¹⁾)⁽²⁾.

المثال الثاني:

ورد في كتاب (التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة) في باب «ما يسأل عنه العبد وكيفية السؤال» أن الإمام القرطبي قال:

«أخبرنا الشيخ الراوية القرشي عبد الوهاب قراءة عليه بثغر الإسكندرية - حماه الله - قال قرىء على الحافظ السلفي وأنا أسمع. قال حدثنا الحاجب أو الحسن بن المعلاء، وقال أخبرنا أبو القاسم بن بشر أخبرنا الآجری حدثنا أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى السونيطي حدثنا أحمد بن أبي رجاء المصيبي، حدثنا وكيع بن

(1) ذكر الشيخ الألباني في سلسلته: «الأحاديث الضعيفة والموضوعة» تحت رقم 265 ، أن هذا الحديث موضوع.

(2) التذكار ص 101 ، 102 .

الجراح، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صغار ذنوبه وتخبأ كبارها. فيقال عملت يوم كذا وكذا، وكذا وكذا، ثلاث مرات. قال وهو يقر ليس ينكر قال: وهو مشفق من الكبائر أن تجيء. قال فإذا أراد الله به خيراً قال أعطوه مكان كل سيئة حسنة. فيقول حين طمع يا رب إن لي ذنباً ما رأيتها ها هنا قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. ثم تلى ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾⁽¹⁾ خرجه مسلم في صحيحه عن محمد بن عبدالله بن نمير قال: حدثنا الأعمش فذكره⁽²⁾.

ففي هذين المثليين يتبين لنا أن القرطبي قد تتلمذ على ابن رواج وتعلم الحديث وعلومه المتعددة على يديه. ونال منه بعض الإجازات العلمية التي لا يحصل عليها إلا من أتاه الله قدرة على الفهم والاستيعاب والرغبة في نيل العلوم والمعارف الإسلامية.

(1) الفرقان من الآية 70 .

(2) التذكرة ص 262، 263 .

الباب الثاني:

ثقافة القرطبي وأثاره العلمية، واتجاهه فيها

ثقافة القرطبي وآثاره العلمية، واتجاهه فيها

رأينا - فيما سبق ذكره - أن شيوخ القرطبي الذين ترجمنا لبعضهم قد نبغوا في علوم الثقافة الإسلامية المتمثلة في الفقه والحديث والقراءات والنحو والعربية... أما شيوخه الآخرون - الذين لم نترجم لهم - فقد برزوا في ميادين ثقافية مختلفة إلى جانب هذه العلوم، مثل: التأريخ وعلم الكلام وأصول الفقه والأدب وغيرها. ولا شك أن هذه العلوم مجتمعة قد أسهمت في تكوين شخصية القرطبي العلمية وخلقت منه فقيهاً، محدثاً، مقرئاً، لغوياً، أصولياً.. أسهم بدوره في تزويد المكتبة الإسلامية بأروع إنتاجه الفكري ومحصوله الثقافي.

كان نظام التعليم في البلاد الإسلامية في عصر القرطبي يبدأ فيه الولدان بحفظ القرآن الكريم⁽¹⁾ إلى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة. وبعد أن يتم الطالب حفظ القرآن الكريم يتجه إلى دراسة القراءات والحديث والفقه واللغة والنحو... الخ إلى أن تتكون له شخصية ثقافية عظيمة، لها وزنها في المجال العلمي. وعن حفظ القرطبي للقرآن الكريم وتلاوته، يقول: «وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾⁽²⁾»⁽³⁾.

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 342 .

(2) الأنعام الآية 82 .

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 10 ص 323 .

وفيما يتعلق بنشأة القرطبي العلمية، فإن كتب التاريخ والتراجم والطبقات التي بين أيدينا لم نجد عندها إلا إشارات بسيطة تدلنا على أنه ابتداءً دراسته بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وعلوم اللغة العربية، دون أن تذكر أن بيئته الأسرية كان لها أثرها على تكوينه الفكري، ذلك أن والده لم يكن من العلماء البارزين الذين شاركوا في النهضة الفكرية التي سادت عصر القرطبي، بل كان مزارعاً يحرث الأرض ويحصدها لكسب رزقه من عرق جبينه⁽¹⁾. فلو كان والد القرطبي - رحمة الله عليهما - عالماً وقيقهاً لكان لذلك أثر كبير في تكوين شخصية ابنه العلمية، ولذكره في مؤلفاته، كما ذكر شيوخه الذين تتلمذ عليهم ونقل عنهم.

والذي نستطيع قوله أن الرجل قد تزود من ثقافة عصره وتأثر بها. ويبدو - ذلك - في الاتجاه الذي سار فيه مستجيباً لهتافات البيئة الإسلامية التي كان يدور فيها الفقهاء والعلماء والمفسرون في عصره الذي - لا شك - أنه قد اتصل وتأثر بهم واستفاد منهم، كما أنه استفاد من التراث الإسلامي وتفاعل معه، شأنه في ذلك شأن كل عقل يتغذى بنتاج العقول التي سبقتة على مدارج الأيام.

كان القرطبي قد درس القراءات السبع في قرطبة على شيخه «أبي جعفر بن أبي حجة، وروى عن أبي عامر بن ربيع وأكثر عنه»⁽²⁾ حينما كانت قرطبة معمورة بالمدارس، غاصة بالفضلاء وحملة العلم، زاخرة بدور الكتب الخاصة والعامّة والمساجد الحافلة بطلاب المعرفة، والوافدين عليها في شتى البقاع. وقد ذكر في تفسيره أنه قرأ بقرطبة على الإمام المحدث القاضي أبي عامر يحيى بن عامر بن أحمد ابن منيع الأشعري. وكان ذلك في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة هجرية⁽³⁾. وعندما رحل إلى المشرق الإسلامي روى هناك «عن أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي، وأبوى محمد: عبد المعطي بن محمد بن عبد المعطي

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 272 .

(2) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ص 585 .

(3) أنظر الجامع لأحكام القرآن ج 3 ص 237 .

الدهمي الألكندراني، وعبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح بن أبي الحسن القرشي ابن رواج وأكثر عنه»⁽¹⁾.

وهكذا ظل القرطبي منهمكاً في طلب العلوم الشرعية واللغوية، إلى أن نضجت شخصيته، واستقام منهجه، وأصبح ركناً من أركان الدين علماً وعملاً. وقد وصفه الشيخ صلاح الدين الصفدي بأنه أستاذ عصره في فني التفسير والحديث⁽²⁾، لهذا فلا غرو إذا حظى بمنزلة رفيعة عند العلماء والباحثين - قديماً وحديثاً - الذين جعلوا تفسيره الجامع لأحكام القرآن في مقدمة مراجع أبحاثهم ودراساتهم، ثقة في مؤلفه، وشهادة منهم على اتساع باعه في العلوم، ورسوخ قدمه فيها فهو (من العلماء العاملين والأئمة المعتمدين)⁽¹⁾ و(من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل)⁽³⁾ فكان من أهل العلم بالحديث والاعتناء التام بروايته ودراسة موضوعاته المتعددة. وقد ترك لنا في هذا المجال مؤلفه (رسالة في ألقاب الحديث) كما أنه ألف كتباً في علم القراءات والفقهاء والتوحيد والزهد وفضائل القرآن - كما سنرى فيما بعد - عند حديثنا عن مؤلفاته وآثاره العلمية.

وينبغي أن نذكر أن القرطبي كان عالماً محققاً - في مجال الحديث - لا يكتفي بسماع الحديث دون أن يتحقق من وجوده في مصادره. وهو في هذا يتصف بالأمانة العلمية والموضوعية الصادقة. فهو حينما يحقق حديثاً في كتاب ما ولم يجده فلا يحكم بعدم وجوده مطلقاً، بل يصف ما أمامه ويسند علم ما يجله إلى الله سبحانه وتعالى. ففي كتابه (التذكرة) يذكر أنه سمع من شيخه الإمام أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي حديثاً سمعه من أخي شيخه أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة الذي قال: «وقد كتبت بيدي في كتاب الترمذي والنسائي عن

(1) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ص 585 .

(2) الوافي بالوفيات ج 2 ص 122 طبعة 1961 م.

(3) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج 5 ص 335 طبعة سنة 1351 هـ.

النبي ﷺ (أن الشيطان يأتي أحدكم عند موته فيقول: مت يهودياً مت نصرانياً)⁽¹⁾ وهنا يعقب القرطبي المفسر على ذلك بقوله: «وقد تصفحت كتاب الترمذي أبي عيسى وسمعت جميعه فلم أقف على هذا الحديث، فإن كان في بعض النسخ فالله أعلم. وأما كتاب النسائي فسمعت بعضه وكان عندي كثير منه، فلم أقف عليه وهو نسخ»⁽¹⁾.

والقرطبي - وإن كان قد أدخل في جامعه وبعض مؤلفاته الأخرى أحاديث ضعيفة وخرافات باطلة⁽²⁾ - فإنه يدعو المسلمين إلى الاقتصاد على ما ورد في الكتب الصحاح، وثبت صحته فيها، لأن في ذلك خيرهم وسعادتهم. وبعد أن ذكر أن رجلاً قد وضع أحاديث كاذبة في فضل القرآن وسوره - مستحثاً المسلمين على التمسك به - فذكر بقول رسول الله ﷺ: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)⁽³⁾ فقال: «أنا ما كذبت عليه، إنما كذبت له»⁽⁴⁾ بعد هذا قال القرطبي رضي الله عنه: «فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرها من المصنفات التي تداولها العلماء ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنية، وخرجوا عن تحذير نبيهم ﷺ حيث قال: (اتقوا الحديث إلا ما علمتم فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)»⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان القرطبي ناقداً من نقاد الحديث، عارفاً بأحواله ودرجاته. فهو لا يرضى أن يذكر الحديث دون أن يسنده إلى مصدره ورواته. وهذا العيب قد أخذه القرطبي على أبي محمد عبدالحق بن عطية حين أورد حديثاً في كتابه (العاقبة) ولم يسنده إلى كتاب ولا إلى إمام، مخالفاً في ذلك عادته في كتبه من نسبة ما يذكره من الحديث إلى الأئمة. ونص ذلك الحديث: «عن أبي أمامة

(1) التذكرة ص 34 .

(2) أنظر مثلاً المرجع السابق ص 453 .

(3) المنذري: مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 252 - صحيح البخاري ج 1 ص 38 .

(4) التذكار ص 156 .

الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول: يا فلان بن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان بن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعداً، ثم يقول يا فلان بن فلانة الثالثة فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله، ولكنكم لا تسمعون فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً، فإن منكرأً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما ويقول: انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا، وقد لقن حجتة. ويكون الله حجيجهما دونه، فقال رجل يا رسول الله فإن لم تعرف أمه؟ قال: ينسبه إلى أمه حواء⁽¹⁾ وبعد أن أورد القرطبي هذا الحديث في صدر الباب الذي عقده لما (جاء في تلقين الإنسان بعد موته شهادة الإخلاص في لحده) قال: «هكذا ذكره أبو محمد في كتاب (العاقبة) لم يسنده إلى كتاب ولا إلى إمام. وعادته في كتبه نسبة ما يذكره من الحديث إلى الأئمة، وهذا والله أعلم نقله من (إحياء علوم الدين) للإمام أبي حامد رضي الله عنه، فنقله كما وجد ولم يزد. وهو حديث غريب. خرج الثقفى في (الأربعين) له، أنبأناه الشيخ المسن الحاج الراوية أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن فتوح بن أبي الحسن القرشي عرف بابن رواج بمسجده بثغر الإسكندرية - حماه الله - والشيخ الفقيه الإمام مفتي الأنام أبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمنية بني خصيب على ظهر النيل⁽¹⁾.

هذا وإن القرطبي - رحمة الله تعالى عليه - قد أكثر من الرحلات العلمية في شرق بلاد الإسلام وغربها، لمقابلة الشيوخ والعلماء، وتبادل الآراء والأفكار، في قرطبة وفي بعض مدن الأندلس الأخرى. وعندما اضطرت الظروف، وضائق به الأرض بما رحبت، هاجر إلى مصر حيث ألقى بها عصا الترحال، وبدأ يطوف في مدنها العامرة وينتقل بين مساجدها الكثيرة. آملاً أن يقابل حملة العلم وأصحاب الاتجاهات الفكرية المتعددة، ليتلمذ عليهم، ويتلقى على أيديهم علوم الشرع

(1) التذكرة ص 109 .

ومعارف اللغة والأدب... ويشارك في ازدهار الحياة العلمية والحضارية. فمن ذلك أنه قابل بثغر الإسكندرية شيوخه: أحمد بن عمر القرطبي⁽¹⁾. وعبد المعطي بن محمود الإسكندراني⁽²⁾، وعبد الوهاب ظافر بن رواج بمسجده، وروى عنه الكثير⁽³⁾. كما قابل شيخه المحدث الحافظ أبا علي الحسن بن محمد بن عمرو الكبري بالجزيرة قبالة المنصورة من الديار المصرية⁽⁴⁾، وشيخه أبا الحسن علي بن هبة الله الشافعي بمدينة منية بني خصيب على ظهر النيل⁽⁵⁾، التي اختارها - فيما بعد - مقراً لإقامته الدائمة إلى أن توفاه الله تعالى بها سنة 671 هـ.

وقد رافق في إحدى هذه الرحلات العلمية الشيخ شهاب الدين القرافي، في السفر إلى مدينة الفيوم⁽⁶⁾. قال عنه شمس الدين الذهبي المتوفي سنة 748 هـ «رحل وكتب وسمع وكان يقطاً، فهماً، حسن الحفظ، مليح النظم، حسن المذاكرة، ثقة، حافظاً»⁽⁷⁾. وقد وصفه بأنه: «إمام متفنن، متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة، تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله»⁽⁸⁾.

وفي هذا السياق وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاةٍ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا﴾⁽⁹⁾ يقول الإمام القرطبي في المسألة الثانية: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك

(1) القرطبي: التذكرة ص 150 .

(2) الجامع لأحكام القرآن ج 10 ص 422 .

(3) التذكرة: ص 261 .

(4) الجامع لأحكام القرآن ج 15 ص 141 - التذكار: ص 188 .

(5) التذكار: ص 66 .

(6) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات ج 2 ص 122 .

(7) المقرئ: نفع الطيب ج 2 ص 409 .

(8) المرجع السابق ج 2 410 نقلاً عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(9) الكهف الآية 60 .

بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام. وقال البخاري⁽¹⁾: ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث⁽²⁾.

وقد نال في تلك الرحلات إعجاب الشيوخ والعلماء، فأحبوه وأكرموه، ومنحوه بعض الإجازات العلمية التي لا ينالها إلا من كان جديراً بها مستحقاً لشرف حملها للآخرين. ومن العلماء الذين أجازوه: الشيخ أبو القاسم عبدالله بن علي بن خلف بن فتوح الكومي التلمساني، والقاضي أبو عامر يحيى بن عبدالرحمن الأشعري القرطبي⁽³⁾، والراوية أبو محمد عبدالوهاب بن ظافر بن رواج الإسكندراني⁽⁴⁾ وأبو الحسن علي بن هبة الله الشافعي⁽⁴⁾.

أما الإجازات العلمية التي أجزت للقرطبي، فإنها تتلخص في إجازة بعض روايات الحديث النبوي سنداً وممتناً. ومن هذه الإجازات التي توجت بها حياة القرطبي الثقافية ما يرويه هو عن نفسه قائلاً:

«حدثنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبدالله إجازة عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام العالم المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز بن فتوح الكوفي⁽⁵⁾ التلمساني قال: قرىء على الشيخة الصالحة الجليلة فخر النساء خديجة بنت أحمد ابن الحسن بن عبد الكريم النهرواني في منزلها وأنا حاضر أسمع، وذلك في التاسع

(1) (باب الخروج في طلب العلم) جـ 1 ص 29 وزاد البخاري (في حديث واحد).

(2) الجامع جـ 11 ص 11 .

(3) انظر التذكرة 526, 543, 563 .

(4) انظر التذكار 66 .

(5) ورد في الجامع لأحكام القرآن جـ 10 ص 5 (الكومي) بدل (الكوفي).

من رمضان سنة أربع وستين وخمسمائة قيل لها أخبركم الشيخ أبو عبدالله الحسين ابن محمد بن أحمد بن طلحة النعالي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة فأقرت به وقالت نعم. قال أنا أبو الحسن أحمد بن محمد زرقوبة البزار قال أخبرنا أبو علي إسماعيل ابن صالح الصفار سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة قال ثنا عبدالله بن أيوب المخرمي أبو محمد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين قال ثنا عبد الرحيم بن هارون قال أخبرنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : (إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد) قالوا يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: (تلاوة القرآن)»⁽¹⁾.

وقال: «أخبرنا ابن رواج إجازة قال حدثنا السلفي قال أخبرنا أبو بكر أحمد ابن محمد بن أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك بن جعفر قراءة عليه وأنا أسمع بأصبهان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة قال أخبرنا أبو القاسم علي بن علي بن إسحاق ابن إبراهيم الأسد باذى الهمداني قراءة عليه في شعبان سنة تسع وأربعمائة. قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن اسحاق السني الحافظ قال أخبرني أبو عبدالله الحسين بن محمد المطيعي قال حدثنا أبو بكر بن زنجريه قال حدثنا عثمان بن صالح قال حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي حنيفة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب، رجل غسل ثوبه فلم يجد له خلفاً، ورجل لم ينصب على مستوقده بقدرين قط، ورجل دعى بشراب فلم يقل له أيهما تريد). وقال ابن مسعود من احتفر بئراً بفلاة من الأرض إيماناً واحتساباً دخل الجنة بغير حساب»⁽²⁾.

ومن الإجازات التي أجزاها القرطبي وذكرها في جامعها لأحكام القرآن قوله: «روى البراء بن عازب أن أعرابياً قام إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع،

(1) التذكار ص 85، 86 الباب التاسع عشر (في أن القلوب تصدأ وجلاؤها القرآن).

(2) التذكرة ص 374 .

والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء⁽¹⁾ فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾⁽²⁾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: (ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأعلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم) ذكره الماوردي. وأسنده النحاس في كتاب (معاني القرآن)، قال: حدثنا أبو عبدالله أحمد بن علي بن سهل قال حدثنا محمد ابن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: قام أعرابي...، فذكره. وأسنده السهيلي في كتاب (الأعلام)⁽³⁾. وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله⁽⁴⁾.

إن من طبيعة العلماء والمفكرين أن تقوم بينهم المناقشات والمحاورات العلمية، الجادة، الهادفة، التي يعرضون فيها - على بساط البحث - شتى الموضوعات في مجالات متعددة من الثقافة والمعرفة، ويتبادلون الآراء والأفكار.. وتحقق بذلك الفائدة المرجوة من العلم. ويكون - دائماً - التوفيق في هذا السياق العلمي حليفاً للذين يدعمون أفكارهم وآراءهم واتجاهاتهم العلمية بالحجج الدامغة، والبراهين المنطقية. ففي مثل هذا الجو الثقافي تنمو المعرفة الإنسانية، وتصل إلى أرقى المستويات الرفيعة. وينتشر نورها بين أبناء المجتمع، ويكثر المثقفون وتعمم المؤلفات والأسفار العلمية. وهذا ما نلاحظه عند دراستنا لتفسير القرطبي، فقد دارت بينه وبين بعض علماء عصره مناقشة علمية حادة حول مسألة كسب المرء لرزقه والسعي عليه. وفند بالحجج القاطعة والأدلة الشرعية الثابتة دعوى مخالفيه الذين أحرصتهم الحجة، وأعوزتهم البينة. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ

(1) ناقة عضباء: مشقوقة الأذن. وهو أيضاً لقب ناقة رسول الله ﷺ ولم تكن مشقوقة الأذن. مختار

الصحاح 438 .

(2) الكهف من الآية 30 .

(3) وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم (232) و (439) تفسير المحقق جـ 8 ص 38 .

(4) جـ 10 ص 398 .

ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق...﴿⁽¹⁾ نجده يذكر في المسألة الثالثة - بعد أن بين أن هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك - يذكر تلك المناقشة والمحاورة الفكرية القيمة فيقول:

«قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى: إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء، فقلت مجيباً له: هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، والرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفياه ورسله وأنبيائه بالأسباب والإحتراف فقال وقوله الحق: ﴿وعلّمناه صنعة لبوس لكم﴾⁽²⁾ وقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون، وقال عليه الصلاة والسلام: (جعل رزقي تحت ظل رمحي) وقال تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾⁽³⁾ وكان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ويحترفون وفي أموالهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون، أتراهم ضعفاء بل هم كانوا والله الأقوياء، وبهم الخلف الصالح اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء.

قال: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء، فأما في حق أنفسهم فلا، وبيان ذلك أصحاب الصفة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان، كما ثبت في القرآن ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾⁽⁵⁾ الآية. وهذا من البينات والهدى. وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا

(1) الفرقان من الآية 20 .

(2) الأنبياء من الآية 80 .

(3) الأنفال من الآية 69 .

(4) النحل من الآية 44 .

(5) البقرة من الآية 159 .

أنته صدقة خصهم بها وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذا وصفهم البخاري وغيره. ثم لما افتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا، وبالأسباب أمروا ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أئدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذاك سبب من أسباب النصر، نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين، وإلا كان يكون قوله الحق: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾⁽¹⁾ - الآية - مقصوراً على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾⁽²⁾ وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿وهزي إليك يجمع النخلة﴾⁽³⁾، وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلفظ به ويعلمن، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهتد لذلك القواعد للكلية والأمور الجميلة. هيهات هيهات، لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾⁽⁴⁾ فإننا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل، بدليل قوله: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾⁽⁶⁾ ولم يشاهد ينزل من السماء على

(1) الأنفال من الآية 60 .

(2) الشعراء من الآية 63 .

(3) مريم من الآية 25 .

(4) الذاريات الآية 22 .

(5) غافر من الآية 13 .

(6) ق الآية 9 .

الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل في وجود ذلك، وهو معنى قوله عليه السلام: (أطلبوا الرزق في خبايا الأرض) أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمى المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال عليه السلام: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه)⁽¹⁾. وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب.

ولو قدر رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان له بدّ من الخروج الى ما تخرجه الآكام وظهر الاعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به، وهو معنى قوله عليه السلام: (لو انكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)⁽²⁾ فغدوها ورواحها سبب، فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنياة الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. ثبت في البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فاذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى ﴿وتزودوا﴾⁽³⁾ ولم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم انهم خرجوا الى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقاً. والتوكل اعتماد القلب على الرب في ان يلم شعثه ويجمع عليه أربه. ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق. سأل رجل الامام أحمد بن حنبل فقال: اني اريد الحج على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدك. فقال: لا، الا مع الناس. فقال له: أنت اذن متكل على أجربتهم. وقد أتينا على هذا في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة)⁽⁴⁾.

(1) البخاري جـ 753 - مختصر صحيح مسلم جـ 1 151 برواية تختلف عن رواية القرطبي هذه.

(2) النووي: رياض الصالحين. ص 60 .

(3) البقرة من الآية 197 البخاري جـ 2 164، 165 .

(4) الجامع لأحكام القرآن جـ 13 ص 14، 15، 16، راجع أيضاً جـ 8 ص 107 ، جـ 3 ص 18 .

وهكذا عالج الإمام القرطبي هذا الموضوع معالجة تدل على سعة اطلاعه وقوة إيمانه بربه، واقتدائه بالسلف الصالح - رضوان الله عليهم - وحرصه على التمسك بمنهجهم، ورده المفحم على أولئك الذين يحاولون أن ينشروا الكسل والخمول بين أبناء الأمة، ليظلوا بعيدين عن حياة التقدم والازدهار، ويحرموهم من التمتع بالكسب الطيب، والرزق الحلال، والحياة العزيزة الكريمة.

وقد ناقش القرطبي في تفسيره كثيراً من القضايا المتعلقة بالعقيدة والفقہ واللغة والأدب... سنتناول بعضها خلال هذا البحث.

هذا وينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا يتلقون الثقافة الإسلامية منذ نعومة أظفارهم، وذلك لتكون لديهم المناعة الإيمانية والفكرية ضد جميع الاتجاهات الهدامة والأفكار الكافرة. وبعد أن تتكون هذه المناعة أو الحصانة يتجهون لدراسة ما عند أعدائهم والمخالفين لهم من أفكار وأنظمة. وهي دراسة - القصد منها - الوعي عليها فقط لا لتنفيذها في واقع الحياة وبيان فسادها للناس من خلال الإسلام وحده لتحل محلها أفكاره وأحكامه السليمة، العادلة، التي تتفق مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، ذلك أن أحكام الإسلام وأفكاره فيها ما يغني أتباعه ويكفيهم من التطفل على غيرهم. وهذا ينطبق على الأفكار المتعلقة بالعقيدة وشؤون حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. أما العلم البحت الذي يجب أن تتوافر فيه التجربة والملاحظة والاستنتاج، فالمسلمون مطالبون بأن يلما به ويستفيدوا من غيرهم - في هذا المجال فقط - ليستقلوا عنهم وتكون لهم قيادة أنفسهم. وقد أشار الإمام القرطبي إلى مثل هذا الجانب. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مية فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾⁽¹⁾.

فبعد أن عرض ما في هذه الآية الكريمة من القراءات والمعاني اللغوية، والنواحي الإعرابية قال:

(1) الأنعام الآية 139 .

«وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله، ويعلم كيف يرد عليه، لأن الله تعالى أعلم النبي ﷺ وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم، ليعرفوا فساد قولهم»⁽¹⁾.

كان لثقافة أبي عبدالله القرطبي العظيمة والاطلاع الواسع والاتصال بعلماء وشيوخ عصره، الأثر الكبير في حياته العلمية. فألف كتباً كثيرة في علوم مختلفة ذكرها في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وكرر ذكر بعضها في كتابيه: (التذكار) و(التذكرة). وقد وصل إلينا بعضها، وضاع البعض الآخر في بحر الفتن والقلاقل التي «نزلت بالمسلمين في تأريخهم الطويل، كما حدث في غزو التتار وفي غزو الصليبيين، وفي حملة الإبادة التي قام بها المسيحيون في الأندلس لما غربت بها شمس المسلمين، فقد حرقوا من كنوز العلم ما حرقوا⁽²⁾». ولو وصلت إلينا تلك الآثار العلمية المفقودة لألقت أضواء ساطعة على سيرة هذا العالم الفذ، ولأثارت كثيراً من جوانب حياته وثقافته.. ورغم الجهد الذي بذلناه سخياً لنقف على حقيقة هذه الآثار العلمية، المطبوعة منها والمخطوطة، إلا أننا لم نظفر إلا بمادة مبتسرة، هي في حقيقة الأمر إشارات عابرة لا تمكننا من الوصول إلى معرفة أدوار حياة القرطبي ونشأته العلمية، بشكل أكثر تفصيلاً وبيانياً مما ذكرنا.

وقد دلت مؤلفات القرطبي وآثاره العلمية - التي كان لنا شرف اقتنائها - أنه كان إماماً في علوم القرآن، رحلة في الحديث وحافظاً له، غاية في القراءات، متقناً لأصول العربية... مع الزهد والعبادة، قدوة للصالح، أوقاته معمورة ما بين توجهه وعبادة وتصنيف. ونذكر فيما يلي وصفاً كاملاً لتلك المؤلفات من حيث موضوعها ومنهجها في تأليفها:

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 97 .

(2) د. أبو شهبه: أعلام المحدثين ص 297 .

1 - الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان:

وهو موضوع بحثنا. وسنتحدث عنه بشيء من البيان والتفصيل، ونبين المنهج الذي اتبعه المحققون عند تحقيقهم لهذا التفسير، وذلك في الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب⁽¹⁾.

2 - التذكار في أفضل الأذكار (القرآن الكريم):

وقد طبعه لأول مرة ونشره محمد أمين الخانجي سنة 1355 هـ وخرج أحاديثه وعلق حواشيه العلامة المحدث السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغماري. قال عنه ابن فرحون المالكي: إنه قد وضعه على طريقة (التبيان في آداب حملة القرآن) للإمام يحيى بن شرف النووي المتوفي سنة 676 هـ، غير أن كتاب القرطبي أتم منه وأكثر علماً⁽²⁾. وتوجد منه نسخ خطية عند ولي الدين باستانبول تحت رقم (72) وفي بنكي بور بالهند الجزء الثامن عشر ص 1375⁽³⁾. وفي دار الكتب المصرية تحت رقم ب (23046).

وموضوع هذا الكتاب هو القرآن الكريم. أما المنهج الذي اتبعه صاحبه عند تأليفه إياه فيتحدث عنه بنفسه قائلاً: «لما كان القرآن الذي هو كلام ربنا، ومعجزة نبينا، ومنبع العلوم، ومعدن المعارف والفهوم كان على العاقل العالم المؤمن المسلم الدين الموحد قراءته ودراسته وتفهمه وتلاوته. وعلى قدر قراءته وتلاوته وتفهمه يكون عمله وإيمانه وإسلامه وتوحيده وفضله كله، وإذا كان ذلك كذلك كانت قراءة القرآن أفضل الأعمال، وأسنن المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال وقد جاء من السنة في ذلك ما يدل على ذلك. فرأيت أن أكتب في ذلك كتاباً وجيزاً يحتوي على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمته، وحرمة القرآن

(1) انظر ص 153 من هذا الكتاب وما بعدها.

(2) الديباج ص 317 ط. 1351 هـ.

(3) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ط. 1943 م ج 1 ص 415 وملحقه ص 737 هـ.

وكيفية تلاوته والبكاء عنده وفضل من قرأه معرباً، وذم من قرأه رياءً وعجباً، إلى غير ذلك مما يتضمنه الكتاب، حسبما هو مبين في أبواب⁽¹⁾.

وبعد أن بين القرطبي أن هدفه من تأليفه لهذا الكتاب هو جمع أربعين حديثاً في فضل القرآن وقارئه ومستمعه... استجابة لقول رسول الله ﷺ: (من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة)⁽²⁾ قال: «فرأيت من سبق من أئمتنا العلماء والسادة الفضلاء - رضوان الله عليهم - قد خرّجوا من ذلك كثيراً في العبادات وفضل الجهاد وقضاء الحاجات وفضل الصلاة على النبي ﷺ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب، والأحاديث المسلسلات. فاستخرت الله سبحانه في ذلك، وسألته التيسير عليّ في ذلك، فيسر لي تخريج أربعين باباً في فضل كتابه العزيز وقارئه ومستمعه والعامل به وسميته: (كتاب التذكار، في أفضل الأذكار)⁽³⁾.

وعن هذا الاتجاه يتحدث الأستاذ أحمد بدوي فيقول:

«ورأيت في هذا العصر (عصر الحروب الصليبية) ولوع العالم بأن يجمع من مختاراته أربعين حديثاً، واختلفت مقاصدهم في جمعها واختيارها، فمنهم من اختار أربعين حديثاً قدسياً، كمحي الدين بن عربي⁽⁴⁾، ومنهم من اختار أربعين حديثاً، عن أربعين شيخاً، في أربعين مدينة، كما فعل أبو طاهر السلفي⁽⁵⁾. ومنهم من اختارها في الأحكام، كما جمع الحافظ المنذري⁽⁶⁾، ومنهم من جمعها في فضائل القرآن،

(1) التذكار: المقدمة ص 2 .

(2) المرجع السابق ص 3 . ذكر ابن عبد البر هذا الحديث في (جامع بيان العلم وفضله) ج 1 ص 51 طبعة 1388 هـ.

(3) التذكار: ص 4 .

(4) بدار الكتب برقم 48، 49، 596 حديث.

(5) كشف الظنون ج 1 نهر 54 .

(6) بدار الكتب المصرية رقم 1809، 1384 حديث.

كما فعل القرطبي، أو متعلقة بالطب، كما فعل عبد اللطيف البغدادي، إلى غير ذلك من ألوان مختلفة⁽¹⁾.

وهذه نماذج مختارة من الأبواب التي وضعها القرطبي في فضل القرآن وآداب تلاوته، نعرضها لنعطي صورة واضحة عن مضمون الكتاب:

الباب السابع: في أن القرآن أفضل الذكر إذا عمل به.

الباب الثاني عشر: في أن القرآن حجة لك أو عليك.

الباب الثالث عشر: في الآداب التي ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه بها.

الباب الرابع عشر: في الأمر بتعلم كتاب الله واتباع ما فيه والتمسك به.

الباب الحادي والثلاثون: في ترتيل القراءة والترسل فيها والإنكار على من

خالف ذلك.

وكانت خاتمة هذا الكتاب ما يأتي:

«تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه وصلواته على خير خلقه سيدنا محمد نبيه وصفيه وحببيه ونجيه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وسلم بعدد كل حرف جرى به القلم على يد العبد الفقير المعترف بالتقصير الراجي عفوره القدير عمر بن أحمد بن عمر المعروف والده بالصفدي اللخمي نسباً والشافعي مذهباً والمصري المولد والدار. وكان ذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة 788 هـ أحسن الله عاقبتها»⁽²⁾.

وقد طبع هذا الكتاب في مائتين واثنين عشر صفحة. وهذه بعض المصادر

التي استقى منها القرطبي معلوماته عند تأليفه لهذا الكتاب:

1 - أبو جعفر النحاس: كتاب معاني القرآن.

(1) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص 126 .

(2) التذكار: ص 212 .

- 2- أبو بكر بن الأنباري: الرد على من خالف مصحف عثمان رضي الله عنه.
 - 3- أبو عبدالله محمد بن خواز منداد: أحكام القرآن.
 - 4- أبو عمرو عثمان بن الصلاح: كتاب علوم الحديث.
 - 5- صحيح مسلم.
 - 6- أبو الحسن بن بطال: شرح البخاري.
 - 7- الترمذي الحكيم: نوادر الأصول.
 - 8- أبو عبيد القاسم بن سلام (150 ع - 222): غريب القرآن.
 - 9- أبو محمد مكّي بن أبي طالب (المتوفي 437 هـ): كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة. أربعة أجزاء.
 - 10- أبو عمرو عثمان الداني (المتوفي 444 هـ): كتاب البيان.
- وأورد المؤلف ذكره في كتاب (التذكرة)⁽¹⁾ وفي جامعه لأحكام القرآن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ لِقِرَاءَتِهِ إِذَا قُرِئَ لِيُتْلَىٰ عَلَيْهِ بَآرٍ وَأَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدُبُرِ آيَاتِهِ﴾⁽²⁾ قال: «وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهمد⁽³⁾، إذ لا يصح التدبر مع الهمد على ما بيناه في كتاب (التذكار)⁽⁴⁾» وقد اتخذ الأستاذ عبدالفتاح إسماعيل شلبي كتاب (التذكار) مصدراً من مصادر بحثه الذي عنوانه بـ «الإمالة في القراءات واللهجات العربية» تحت سلسلة الدراسات القرآنية واللغوية. وكذلك الحال بالنسبة للشيخ محمود أبي الفيض المنوفي الحسيني في كتابه:

(1) أنظر ص 461 .

(2) ص من الآية 29 .

(3) الهمد: السرعة في القراءة والكلام. مختار الصحاح ص 693 . هذ القرآن وهو يهذه هذاً إذا أسرع فيه وتابعه. أساس البلاغة للزمخشري ص 1055 .

(4) ج 15 ص 192 .

«جمهرة الأولياء وأعلام التصوف» جزآن. وذلك تأكيداً لأهميته، ودقة ما جاء فيه من آراء ومعلومات قرآنية قيمة.

3 - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة:

وقد كتبه في مجلدين. وهو كتاب مشهور جمعه من كتب الأخبار والآثار وما يتعلق بذكر الموت والموتى والحشر والجنة والنار والفتن. وفي مقدمته تناول القرطبي منهجه في تأليفه - فبعد أن حمد الله وأثنى عليه - قال: «وبعد فإني رأيت أن أكتب كتاباً وجيزاً يكون تذكرة لنفسي وعملاً صالحاً بعد موتي في ذكر الموت وأحوال الموتى وذكر الحشر والنشر والجنة والنار والفتن والأشراط، نقلته من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسب ما رويته أو رأيته... وسميته: (التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة) وبوبته باباً باباً وجعلت عقب كل باب فصلاً أو فصولاً نذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب أو فقه في حديث أو إيضاح مشكل لتكمله فائدته وتعظم منفعته، إذ التفقه في حديث رسول الله ﷺ هو المعنى المقصود والرأي المحمود والعمل الموجود في المقام المحمود واليوم المشهود»⁽¹⁾.

وقد وصفه صاحب كتاب: (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) بأنه: «كتاب ليس له مثل في باب»⁽²⁾ واختصره بعض علماء الإسلام منهم: الشيخ أحمد ابن محمد بن علي نور الدين الحسني الشافعي السحيمي القلعي الأزهري المتوفي سنة 1178 هـ وسماه: «التذكرة الفاخرة في أحوال الآخرة» واختصره أيضاً الشيخ عبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة 973 هـ، وسماه: (مختصر تذكرة الإمام أبي عبد الله القرطبي)⁽³⁾ وطبع هذا المختصر سنة 1300 بمطبعة بولاق - القاهرة. وكذلك اختصره محمد بن عثمان بن أيوب بن داود الكتبي اللؤلؤي في القرن الثامن أو أوائل

(1) المقدمة ص 3 .

(2) ص 197 طبعة سنة 1349 هـ.

(3) سركيس: معجم المطبوعات العربية جـ 7 1503 .

التاسع تحت عنوان: (النجوم المزهرة باختصار التذكرة) وشرحه الشيخ أحمد زروق الفاسي المتوفي سنة 899 هـ - 1492 م. ويوجد من هذا الشرح في الأسكوريال، الفهرس الجديد تحت رقم (747). واستعمله الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفي سنة 911 هـ في كتابه: (شرح الصدور بشرح أحوال الموتى في القبور)⁽¹⁾ وهو في مجلد واحد. أوله: الحمد لله الذي أيقظ من شاء من سنة الغفلة... الخ. ذكر فيه أمور البرزخ من حين المرض إلى أن ينفخ في الصور. ناقلاً له من الأحاديث والآثار من كتب الحديث محرراً ما وقع من ذلك في كتاب تذكرة القرطبي بالتنقيح والتخريج مع زوائد جمعة⁽²⁾.

وقد حقق الأستاذ أحمد محمد مرسى (تذكرة القرطبي) ونشرها لأول مرة وطبعت في جزأين، في مجلد واحد تبلغ صفحاته سبعمائة واثنى عشر صفحة بمطابع مذكور وأولاده بالقاهرة. وهي طبعة لم يوفق القائمون عليها التوفيق كله، حيث بلغت صفحات التصويب خمساً وستين صفحة. وبالرغم من هذا فإن المحقق قد أهدى إلى المكتبة الإسلامية أروع كتاب يذكر الناس بربهم ويفقههم في دينهم.

وتوجد منه نسخ خطية في كل من: برلين (2744 - 2745) جوته (749 - 751) المتحف البريطاني (173) مكتبة البلدية بالإسكندرية (10) مواظظ⁽³⁾. دار الكتب المصرية (883) تصوف⁽⁴⁾. مكتبة المسجد الأحمدى بطنطا رقم (ح- 21) و(د) (1299)⁽⁵⁾.

وقد وقعت تحت أيدينا - نسخة خطية غير كاملة من هذا الكتاب حين كنا نبحث عن التراث الإسلامي في مكتبة الأوقاف بطرابلس بليبيا، وأعطيت هذه

(1) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ص 415 - طبع بالقاهرة في المطبعة الميمنية سنة 1309 هـ.

(2) كشف الظنون ج 2 نهر 1042 .

(3) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 415 .

(4) أحمد بدوي: القرطبي. مجلة الرسالة ص 1703 العدد 856 سنة 1949 م.

(5) د. عبده الراجحي: فهرس مخطوطات المسجد الأحمدى ص 129 .

النسخة رقم (2) رف (2) خزانة (و) وتم نسخها في ستة وعشرين من ربيع الثاني من عام سبعة وثلاثين ومائة وألف، كما جاء في آخر المخطوطة. وهذه بعض مختارة من الكتاب:

- 1 - باب النهي عن تمنى الموت والدعاء به لضر ينزل في المال والجسد.
 - 2 - باب ذكر الموت وفضله والاستعداد له.
 - 3 - باب تلقين الميت لا إله إلا الله.
 - 4 - باب الحشر ومعناه الجمع.
 - 5 - باب لا يدخل الجنة صاحب مكس ولا قاطع رحم.
 - 6 - باب ما جاء في البكاء عند ذكر النار والخوف منها.
 - 7 - باب الأمر بالصبر عند الفتن.
 - 8 - باب اشراط الساعة وعلاماتها.
- ونذكر - فيما يلي - بعض المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تأليفه لكتاب

التذكرة:

- 1 - الإمام أبو حامد الغزالي: كتاب كشف علوم الآخرة.
- 2 - ابن فارس: المجمل.
- 3 - الجوهري: الصحاح.
- 4 - الإمام أبو محمد عبدالحق بن عطية: كتاب العاقبة.
- 5 - أبو الفرج بن الجوزي: كتاب روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق.
- 6 - صحيح البخاري ومسلم.
- 7 - أبو بكر الخرائطي: كتاب القبور.
- 8 - الإمام مالك بن أنس: الوطأ.
- 9 - ابن أبي الدنيا: كتاب المحتضرين.
- 10 - القاضي أبو بكر بن العربي: سراج المريدين.

هذا وكان الأستاذ عبدالله شحاته قد ذكر كتاب (التذكرة) في بحثه: منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، ونقل منه نصوصاً⁽¹⁾. بالإضافة إلى ذلك فإن القرطبي كرر ذكره عشرات المرات في تفسير الجامع لأحكام القرآن⁽²⁾.

4 - قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة:

وهذا الكتاب من الكتب المخطوطة، وموجود منه نسخ في: برلين (8787) الأسكوريال، الفهرس الجديد جـ 2 (755) الفاتح باستانبول (2763) دار الكتب المصرية جـ 1 ص (167) رامبور جـ 1 ص (358)⁽³⁾.

جاء في مقدمته «الحمد لله العلية كلمته، الوفية عدته... الخ»⁽⁴⁾ وقد «رتبه على أربعين باباً في التفسير والحديث»⁽⁴⁾ قال عنه صاحب الديباج: «لم أقف على تأليف أحسن منه في باب»⁽⁵⁾ وهذا الكتاب قد اختلفت الروايات في اسمه: فابن فرحون⁽⁶⁾ وإسماعيل البغدادي⁽⁷⁾ ذكراه باسم: (قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة) وأورده البغدادي أيضاً في (إيضاح المكنون) «بالكف» بدل «بالكتب»⁽⁸⁾ وكذلك المؤرخ الألماني كارل بروكلمان⁽⁹⁾. أما الاسم الصحيح

(1) أنظر ص 144، 145 .

(2) أنظر جـ 1 ص 56 ، جـ 2 ص 29 ، جـ 3 ص 276 ... الخ.

(3) بروكلمان: جـ 1 ص 415 .

(4) إسماعيل البغدادي: إيضاح المكنون: المجلد الثاني ص 241 .

(5) ص 317 الطبعة الأولى سنة 1351 هـ.

(6) الديباج ص 317 .

(7) هدية العارفين المجلد الثاني: ص 129 طبعة سنة 1387 هـ.

(8) جـ 2 ص 241 .

(9) جـ 1 ص 415 .

لذلك الكتاب، فهو ما ذكرناه سابقاً، وهو ما ذكره مؤلفه في تفسيره الجامع لأحكام القرآن⁽¹⁾.

ومن خلال دراستنا لبعض النصوص من تفسير القرطبي يتضح لنا أن كتابه هذا يتضمن أحكام الإسلام في دعوة أتباعه إلى العمل والكسب الحلال، والسعي وراء لقمة العيش، التي هي ليست غاية المسلم في هذه الحياة، وإنما هي وسيلة توصله إلى غايته المثلى، المتمثلة في العمل الدؤوب، والسعي المستمر لفهم أحكام الإسلام وتنفيذها في واقع الحياة العملية، وتبليغها للناس كافة بثتى الطرق الشرعية حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. ويكون الإسلام حاكماً للواقع البشري كله لا محكوماً به.. وكذلك يتضمن ذلك الكتاب - فيما يبدو - محاربة الإسلام للكسالى الذين ارتضوا لأنفسهم ذلة السؤال والتطفل على الناس بثتى الوسائل⁽²⁾.

وقد أورد المقرئ بعض الفقرات من هذا الكتاب. جاء في مقدمتها قوله: «ذكر القرطبي صاحب (التذكرة) في كتابه (قمع الحرص بالزهد والقناعة) ما صورته: روينا أن الإمام أبا عمر بن عبد البر رضي الله تعالى عنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه فقال:

قل لمن ينكر أكلي لـطعام الأُمراء
أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين، وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين... الخ⁽³⁾ واستطرد في ذكر من كان يقبل

(1) ج 13 ص 16 .

(2) راجع ج 5 ص 165 ، ج 13 ص 16 من الجامع. وكذلك (التذكرة) ص 471، 472 . وص من هذا الكتاب.

(3) أنظر نفع الطيب ج 4، 219، 220، 221 تحت عنوان: (ابن عبد البر يفتي بجواز أكل طعام الأُمراء ويحتج له) الطبعة الأولى 1367 .

جوائز السلطان وهداياه من التابعين والأئمة المهتدين. وهذه المسألة من كلام ابن عبد البر، كما قال القرطبي.

5 - المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس:

وهو من الكتب التي لم أجد - رغم كدي وتنقيري في شتيت المراجع والمطازن - أية إشارة تفصح عن مكان وجوده، ومنهج مؤلفه في تصنيفه سوى ما ذكره - عرضاً - في تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

ويبدو لنا من خلال دراستنا للتفسير⁽¹⁾ أن هذا الكتاب ألف في الفقه الإسلامي على مذهب المالكي. ويتجلى ذلك واضحاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾⁽²⁾ ففي المسألة الرابعة - وبعد أن ذكر أقوال الفقهاء واختلافهم في مقدار الحيض - قال: «وقد أتينا على ما للعلماء في هذا الباب - من أكثر الحيض وأقله وأقل الطهر، وفي الإستظهار، والحجة في ذلك - في (المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس)»⁽³⁾.

6 - كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا: مجلدان.

توجد نسخة منه في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة وليس هناك من تكلم أو نقل عنه سوى الإمام شمس الدين الذهبي المتوفي سنة 748 هـ، وابن قيم الجوزية (691 هـ - 751 هـ) ومؤلفه القرطبي. ويضاف إلى ذلك أن كتب التراجم التي ترجمت لحياة القرطبي أشارت إلى أن هذا الكتاب من مصنفته، دون أن تنقل عنه شيئاً أو تتوسع في الحديث عنه.

(1) راجع ج 1 173 ، ج 93 210 ، ج 38 ، ج 12 100 ، ج 14 30 ج 18 152 .

(2) البقرة من الآية 222 .

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 3 ص 84 .

جاء في كتاب (العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيهما) للذهبي قوله: «قال القرطبي في (الأسنى) الأكثر من المتقدمين والمتأخرين - يعني المتكلمين - يقولون: إذا وجب تنزيه الباري جل جلاله عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عند عامة العلماء المتقدمين وقادتهم المتأخرين تنزيه الباري عن الجهة...»⁽¹⁾.

وقال ابن القيم: «إن الجهمية لما قالوا إن الاستواء مجاز صرح أهل السنة بأنه مستو بذاته على عرشه، وأكثر من صرّح بذلك أئمة المالكية، فصرح به الإمام أبو محمد بن أبي زيد في ثلاثة مواضع من كتبه... وصرح به أبو عبدالله القرطبي في كتاب شرح أسماء الله الحسنى...»⁽²⁾.

أما القرطبي فإنه لا يترك مناسبة يتحدث فيها عن صفات الله وأسمائه الحسنى، وعن الاعتقاد - بصفة عامة - في تفسيره الجامع وكتابه: التذكار والتذكرة إلا وأحال القارئ إلى كتابه (الأسنى) لتفصيل والبيان. وننقل فيما يلي النصين الآتين من التفسير، لنحكم - بعد ذلك - على موضوع كتابه هذا.

أ - عند تفسير قوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾⁽³⁾ يقول القرطبي في المسألة الثامنة: «و(الكبير) الذي كل شيء دونه. (المتعال) عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرته وقهره، وقد ذكرناها في (شرح الأسماء) مستوفى، والحمد لله»⁽⁴⁾.

ب - وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾⁽⁵⁾ يقول

(1) الطبعة الثانية سنة 1388 هـ - 1968 م ص 194 . أنظر أيضاً الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 219.

(2) مختصر: الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة ج 2 ص 324، 325 طبعة سنة 1380 هـ.

(3) الرعد الآية 9 .

(4) الجامع لأحكام القرآن ج 9 ص 289 .

(5) البقرة من الآية 143 .

القرطبي: «الرأفة أشد من الرحمة. وقال أبو عمرو بن العلاء: الرأفة أكثر من الرحمة، والمعنى متقارب. وقد أتينا على لغته وأشعاره ومعانيه في كتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) فليُنظر هناك»⁽¹⁾.

فهذان النصفان يدلان على أن كتاب (الأسنى) يعالج قضية العقيدة والإيمان بالله وبأسمائه وصفاته.

7 - كتاب اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية:

وهذا الكتاب - أيضاً - لم أعر عليه ولا أعرف شيئاً عنه سوى أن مؤلفه ذكره في موضوعين من تفسيره بشكل يختلف كل منهما عن الآخر. فمرة ذكره باسم «اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله»⁽³⁾. «وأخرى أورده باسم (اللمع اللؤلؤية شرح العشرينات النبوية للفارابي رحمه الله)⁽⁴⁾. وقد علق المحققون لتفسير القرطبي على هذا الإضطراب بقولهم اضطربت الأصول في هذا الكتاب وفي اسم مؤلفه، ولم نعر عليه». وكان القرطبي قد ذكر كتابه هذا في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾⁽⁵⁾ واستشهد ببعض الأحاديث التي تدل على أن كل شيء في هذا الوجود يسبح لله سبحانه وتعالى. وهي:

قال رسول الله ﷺ : (لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) رواه ابن ماجة في سننه، ومالك في

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 2 ص 158 .

(2) المرجع السابق ج 10 ص 268 .

(3) المرجع السابق ج 16 ص 146 .

(4) المرجع السابق أيضاً ج 16 ص 146 (هامش).

(5) الإسراء الآية 44 .

موطئه⁽¹⁾ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وخرج البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل⁽²⁾. وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ ونحن نسمع تسبيحه. وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)⁽³⁾ قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وقد أتينا على جملة منها في (اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله)⁽⁴⁾.

أما في الموضوع الآخر فقد ذكره في سياق حديثه عن (تُبِع). وبعد أن ناقش الأقوال التي تعرضت لحقيقته وأصله قال: «وقد ذكرنا بقية خبره وأوله في (اللمع اللؤلؤية شرح العشرينات النبوية للفارابي رحمه الله)⁽⁵⁾».

8 - الإعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام:

هذا الكتاب يبحث في السيرة النبوية. واتضح لنا ذلك من عنوانه، ومن سياق الكلام الذي أورده فيه مؤلفه⁽⁶⁾. وهو من الكتب المجهولة بالنسبة لنا - الآن - ولعلنا نثر عليه مع غيره من مؤلفات القرطبي المفقودة مستقبلاً إن شاء الله تعالى.

9 - منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد:

جاء ذكره في المسألة السابعة عند تفسير القرطبي لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ

(1) الموطأ وشرحه تنوير الحوالك ج 1 68 طبعة 1370 هـ.

(2) البخاري ج 4 ص 235 .

(3) المنذري: مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 163 .

(4) الجامع لأحكام القرآن ج 10 268 .

(5) المرجع السابق ج 16 ص 146 .

(6) أنظر المرجع السابق ج 15 ص 113، 217 .

صابراً نعم العبد إنه أواب»⁽¹⁾ سئل سفيان عن عبيد بن ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال كلاهما سواء، لأن الله تعالى أثنى على عبيد، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحداً، فقال في وصف أيوب: «نعم العبد إنه أواب»⁽²⁾ وقال في وصف سليمان: «نعم العبد إنه أواب»⁽³⁾. بعد هذا قال الإمام القرطبي: «وقد رد هذا الكلام صاحب (القوت) واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني وذكر كلاماً كثيراً، شيد به كلامه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب (منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد)»⁽⁴⁾.

10 - التقريب لكتاب التمهيد:

وهو مخطوط في مجلدين ضخمين. يوجد في خزانة جامعة القرويين بفاس تحت رقم (117/80)⁽⁵⁾. والأصل الذي كتب عنه الإمام القرطبي هو كتاب: (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) لحافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد ابن عبدالبر النمري، القرطبي، المالكي، المتوفي بشاطبة من بلاد الأندلس سنة 463 هـ. وهو من مواليد سنة 368 هـ. قال عنه ابن حزم: «هو كتاب في الفقه والحديث ولا أعلم نظيره»⁽⁶⁾ وفي دار الكتب المصرية قطعة من هذا الكتاب⁽⁷⁾. واختصره ابن عبدالبر وسماه: (الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار فيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار)⁽⁸⁾.

(1) ص من الآية 44 .

(2) ص من الآية 44 .

(3) ص من الآية 30 .

(4) الجامع لأحكام القرآن جـ 15 ص 215، 216 .

(5) الزركلي: الأعلام جـ 10 ص 185 - المستدرك الطبعة الثانية.

(6) كشف الظنون جـ 1 نهر 1907 .

(7) د. شوقي ضيف: مقدمة كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر. طبعة سنة 1386 هـ القاهرة.

(8) كشف الظنون جـ 1 نهر 78 .

وقد بدأ الأستاذان مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري في تحقيق كتاب (التمهيد). وتم لهما تحقيق الجزء الأول في 20 صفر سنة 1387 هـ الموافق 30 مايو سنة 1967 م. وطبع في المطبعة الملكية بالرباط، وجاء في نهايته: «تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني» وهو يقع في أكثر من تسعة أجزاء. وقد وصفه المحققان بقولهما: «هو كتاب فريد في بابه، موسوعة شاملة في الفقه والحديث، ونموذج فذ في أسلوبه ومنهجه، رتب المؤلف بطريقة الإسناد، على أسماء شيوخ الإمام مالك، الذين روى عنهم ما في الموطأ من الأحاديث، وذكر ما له عن كل شيخ مرتباً على حروف المعجم⁽¹⁾. ونقل القرطبي في تفسيره كثيراً عن كتاب (التمهيد) ومختصره (الاستذكار) وكذلك الحال بالنسبة لكتابه (التذكرة).

ولعلنا استطعنا أن نقرب صورة كتاب القرطبي إلى الأذهان، بما سقناه من معلومات عن كتاب (التمهيد) فأدر كنا موضوعه الذي تناوله فيه.

11 - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد (عليه السلام):

وهذا رد على رسالة وردت إلى الإمام القرطبي من طليطلة. وتوجد مخطوطة منه في مكتبة كوبرلي زاده باستانبول تحت رقم (794 ب 814)⁽²⁾.

أما إسماعيل البغدادي فقد ذكره باسم: «الإعلام بما في دين النصارى وإظهار محاسن دين الإسلام»⁽³⁾. والكتاب - فيما يبدو من عنوانه - ألفه القرطبي لبيان فساد العقيدة المسيحية وإبطالها.. وإثبات صحة العقيدة الإسلامية المتمثلة في الإيمان بالله ووحدانيته ووجوده، والإيمان برسوله محمد ﷺ ، وبأن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ

(1) التمهيد: المقدمة ج 1 (ح).

(2) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 415 .

(3) هدية العارفين ج 2 ص 129 .

حميد»⁽¹⁾. وفي هذا السياق يذكر القرطبي عند تفسيره لقوله الله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ يَتِيمًا﴾⁽²⁾ قوله: «في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار»⁽³⁾ كما روى الإمام مسلم في صحيحه⁽⁴⁾.

12 - كتاب الانتهاز في قراء أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز:

وهو كتاب يعالج فيه صاحبه موضوعات قرآنية في علم القراءات. وأورد ذكر كتابه هذا في (التذكار في أفضل الأذكار)⁽⁵⁾.

13 - رسالة في ألقاب الحديث:

منها نسخة خطية في الجزائر تحمل رقم (377)⁽⁶⁾. وحين علمت بوجود هذه المخطوطة في الجزائر أرسلت إلى وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية مستفسراً عن إمكانية الحصول عليها، فأبلغتني - مشكورة - بتاريخ 1392/5/10 هـ 72/6/21 م بما يلي:

«أما كتاب الإمام القرطبي ومخطوطه فقد استفسرنا من بعض الجهات المختصة وعلمنا أنه ما زال مخطوطاً لم يطبع بعد»⁽⁷⁾.

(1) فصلت الآية 42 .

(2) النمل من الآية 28 .

(3) جـ 13 ص 191 .

(4) انظر تفسير القرطبي: جـ 4 ص 105، 106 ، جـ 3 ص 286 .

(5) أنظر ص 22، 98، 126 .

(6) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ 1 ص 415 .

(7) رسالة الوزارة تحت رقم 72/ م. ت. أ. ن.

14 - المصباح في الجمع بين الأفعال والصحاح:

وهو دراسة تدور حول كتابي (أبنية الأفعال) لأبي القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد القطاع السعدي المعروف بابن الصقلي الأديب اللغوي المولود سنة 433 هـ والمتوفي سنة 515 هـ⁽¹⁾. (وتاج اللغة وصحاح العربية) لأبي نصر الجوهري المتوفي سنة 398 هـ.

ومن هذا الكتاب نسخ خطية في كل من مكتبات العالم: بريل في هولندا تحت رقم (283)، جارولا في استانبول تحت رقم (265)، بتنه في الهند ج 1 ص 24.⁽²⁾

15 - كتاب الأقضية:

منه نسخة خطية في الآصفية بالهند ج 1 ص 658.⁽²⁾

16 - كتاب شرح التقصي لما في الموطأ من حديث رسول الله ﷺ :

ومؤلف كتاب (التقصي) هو الإمام الشهير أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي. وقد جمع أبو عمر في كتابه هذا ما في الموطأ من الأحاديث المرفوعة، موصولة كانت أو منقطعة، مرتبة على شيوخ مالك. وكان أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفي سنة 474 هـ صاحب (المنتقى) في الفقه المالكي، وأبو عمران الفاسي يفضلان كتاب (التقصي) لأبي عمر على (الملخص) للقاسمي، ذكر ذلك عياض في فهرسته⁽²⁾.

ويبدو أن كتاب (شرح التقصي) يبحث فيه مؤلفه مسائل من الفقه والحديث.

(1) البغدادي: هدية العارفين ج 1 نهر 695.

(2) محمد الكتاني: الرسالة المستطرفة ص 15 .

17 - أرجوزة:

جمع فيها الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - أسماء النبي ﷺ (1).
وللقرطبي تأليف وتعليق مفيدة غير ما ذكرنا، تدل على اتساع اطلاعه،
ووفور علمه وإمامته في مجالات الثقافة الإسلامية المختلفة.

(1) انظر الديباج ص 317 وشجرة النور الزكية ص 197 .

الباب الثالث

تفسير القرطبي ومصادره فيه

تفسير القرطبي ومصادره فيه

قبل البدء في الحديث عن التفسير والمصادر العلمية التي استقى منها المؤلف تفسيره هذا - نرى أن نقدم بين يدي هذا البحث بمقدمة عن نشأة التفسير القرآني والشروط التي وضعها علماء الإسلام لكل من يريد أن يتصدى لتفسير القرآن الكريم، ومدى انطباقها على شخصية القرطبي التفسيرية، ووصف جامعه والمنهج الذي اتبعه المحققون عند تحقيقهم إياه..

بعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ إلى الناس كافة، يدعوهم إلى إخلاص العبودية لله وحده، والإيمان بربوبيته ووحدانيته، والكفر بما سواه من الآلهة المفتعلة التي عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى - كما زعموا - وإقامة العدل والحق في المجتمع.. واقتضت إرادة الله تعالى أن تكون هذه الدعوة مصحوبة بمنهج يوجهها ويرسم لها معالم الطريق التي يجب أن تسير فيه. ويبين لحاملها المسئولية المناطة بهم، والملقاء على عواتقهم.. إنه كتابه الكريم الذي هو «كتاب الدعوة وسفر الهداية الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، فيه هدى ونور، يهدي به من يشاء من عباده»⁽¹⁾ «وكان نزوله مقترناً بالدعوة وتطورها وسيرها. فنزلت منه قطع مختلفة، نجماً نجماً، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها»⁽²⁾. وكانت وظيفته في المجتمع الإنساني «هداية

(1) المودودي: المبادئ الأساسية لفهم القرآن. الطبعة الثانية 1389 هـ ص 20 .

(2) المرجع السابق ص 34 .

الناس وتقويم سلوكهم وتصحيح عقائدهم والتشريع لحياتهم بما يعين هذه الحياة على اطراد السير وسلامة القصد»⁽¹⁾.

وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. فكان المؤمنون به والجاحدون له على حد سواء - يفهمونه ويحيطون بمعانيه ويدركون مواعظه وتوجيهاته، ويعون تحديه بالإعجاز.. لهذا فإن لمعانيه الواضحة، وفهمه الميسر قام حوله صراع عنيف بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانسراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع آياته، فلا يزال يدفعها بالاعراض والمعارضة⁽²⁾. «وكان النبي ﷺ يبين المجهل ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات»⁽³⁾ فالصحابة رضوان الله عليهم - كانوا يتلقون من رسول الله ﷺ معاني القرآن الكريم، إلى جانب تلقيهم لألفاظه ومفرداته. ويروي (أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل)⁽⁴⁾. فمما نقل عن النبي ﷺ تفسيره الظلم بالشرك في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾⁽⁵⁾. وذلك أنه لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال ﷺ (ليس كما تظنون وإنما هو الشرك) ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان: «إن الشرك لظلم عظيم»⁽⁶⁾.

وهكذا ظل المسلمون يتلقون عن نبيهم ﷺ مراد الله سبحانه وتعالى من كلامه العزيز. وتخرج جماعة منهم عن تفسير ما لا علم لهم به، خشية أن تقع تحت

(1) د. السيد أحمد خليل: اللغة بين الأدب والتشريع ص 30 مجلة آداب اسكندرية العدد (20) سنة 1966 م.

(2) ابن عاشور: التفسير ورجاله ص 7، 8 ط. الأولى 1966 م تونس.

(3) تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 367 .

(4) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص 5 .

(5) الأنعام الآية 82 .

(6) د. بدران أبو العينين مع القرآن الكريم ص 83 طبعة 1388 هـ.

طائفة تحذيره عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه ابن عباس: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)⁽¹⁾ لهذا فإنه يروى عن أبي بكر الصديق قوله: «أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم»⁽²⁾.

ويعلل صاحب كتاب (المباني في نظم المعاني) ذلك بقوله: «ولكن الذي نظنه بأبي بكر رضي الله عنه أنه عظم في صدره القرآن، وجل قدره عن أن يتكلم فيه لغير موضع الحاجة التي لا بد منها، ولم يأمن أنه إن أبدل بهذه اللفظة لفظة أخرى لعلها لا تقع موقع الأولى في إِبلاغ الوصف»⁽³⁾. وكانوا لا يدونون ما يسمعون من أحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة في مجال التفسير القرآني، حتى لا يحدث لبس وإبهام بينه وبين القرآن الكريم. وإنما ظهرت حركة التدوين فيما بعد. وفي هذا المعنى يحدثنا الأستاذ الدكتور السيد أحمد خليل فيقول: «لم يدون الحديث في العصر الأول للإسلام لأسباب معروفة، وهي خشية الخلط بينه وبين القرآن... ولكن المهم أن حركة التدوين في الحديث بدأت منذ القرن الأول، وأنها كانت حركة ممزوجة بالفقه، ولذلك قالوا: إنَّ واضع التفسير مالك بن أنس بمعنى جامعه لا مدونه»⁽⁴⁾.

وظل تفسير المسلمين للقرآن الكريم يعتمد على علوم أثرية نقلية. هي ما يروى من أحاديث رسول الله ﷺ، وأقوال صحابته رضي الله عنهم، ذلك أن السنة مفسرة وموضحة لمقاصد القرآن لقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾⁽⁵⁾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)⁽⁵⁾ يعني السنة. ولأن الصحابة أدري بما شاهدوه من القرآن

(1) مقدمة في أصول التفسير ص 31 الطبعة الأولى سنة 1355 هـ.

(2) مقدمتان في علوم القرآن: تحقيق جفري ص 189 طبعة 1954 م.

(3) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن ص 43 الطبعة الأولى 1373 هـ.

(4) النحل من الآية 44 .

(5) المنذري: مختصر سنن أبي داود ج 7 ص 7 .

وأحواله المختلفة التي أدركوها حق الإدراك. ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وأئمتهم كالخلفاء الراشدين، وعبدالله بن مسعود الذي يروى عنه أنه قال: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته»⁽¹⁾.

وهذا التفسير هو ما يسمى بـ «التفسير النقلي» الذي كان أول التفسير نشأة، فقد جعلت تتناقله الطبقات شفاهاً، ثم تدويناً تدريجياً، حتى افردت له المؤلفات الخاصة، واستمر ذلك إلى أن تغيرت موجهاً الحياة، وظهر تفسير جانب العقل فيه أثر من جانب النقل، عنى المؤلفون به، وإن بقي في كتبهم أثر من الروايات المنقولة، يرجعون إليه بين الفينة والفينة، حتى فترت العناية من أفراد التفسير المأثور بالتأليف المستقل⁽²⁾. ومن تلك التفاسير التي نهجت هذا المنهج النقلي: جامع البيان في تفسير القرآن: لابن جرير الطبري. والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي. والجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدالله القرطبي.. والتفسير الذي اتصف بالجانب العقلي هو التفسير بالرأي وبالدراية، وهو ما يعتمد على علوم اللسان العربي «من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات... ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب (الكشاف) للزمخشري»⁽³⁾.

وتبعاً لشخصية المفسر العلمية فإننا نرى أنواعاً مختلفة من التفسير، ذات ألوان متعددة «فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ومنها ما يغلب عليه بيان نواحي البلاغة والإعجاز، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع

(1) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص 24، 25، 26 .

(2) أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس 352 مادة (تفسير).

(3) تاريخ ابن خلدون: ج 1 ص 368 طبعة 1284 هـ.

وبيان أصول الأحكام»⁽¹⁾ كما سنرى ذلك عند الفقيه القرطبي الذي فسر القرآن تفسيراً ملأه بالفروع الفقهية والأدلة المدعمة لمذهبه والرد على المخالف. فقد ألف الجامع لأحكام القرآن وفيه الكثير من الأحكام الفقهية⁽²⁾ فالمفسرون للنصوص «إنما يبسطون شخصيتهم عليها بما حصلوه من المعارف، وما استقر في وعيهم من ثقافات»⁽³⁾.

وقد اشتملت كتب تفسير المتقدمين بالمأثور على روايات قصصية وإخبارية هي محل شك وارتياب لدى النقاد والمتبعين للحركة العلمية والروائية. وقبل مؤلفو التفاسير المأثورة هذه الروايات التي سميت بـ «الاسرائيليات» وهي ما يروى عن اليهود والنصارى في مجال الاخبار عن بدء الخليقة وأسرار الوجود، قبلوا ذلك، لأن العرب - كما يقول ابن خلدون - لم يكونوا أهل كتاب ولا علم. وكانت تغلب عليهم صفة البداوة فإذا أرادوا معرفة شيء مما تشوق إليه النفس البشرية فيما يتعلق بأسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، ليس أمامهم من يسألونه إلا أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، الذين اعتنقوا الإسلام ودانوا به، ولا زالت عالقة بأذهانهم ما ورثوه عن أسلافهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية. وأقطاب هذه الروايات الاسرائيلية هم: كعب الأبحار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم.. وتساهل المفسرون في النقل عنهم، فامتلأت تفاسيرهم بالمنقولات التي تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. وظل الحال - كذلك - إلى أن رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص. وجاء أبو محمد عبدالحق بن عطية من متأخري المغرب فليخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها. ووضع ذلك في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» حسن المنحى، وتبعه

(1) محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم ص 7 .

(2) د. بدران أبو العينين بدران: مع القرآن الكريم ص 98 .

(3) د. السيد أحمد خليل: اللغة بين الأدب والتشريع ص 46 .

القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في تفسير آخر مشهور بالمشرق الإسلامي⁽¹⁾.

ويضيف الأستاذ الدكتور السيد أحمد خليل سبباً آخر من أسباب قبول تلك الروايات - بجانب ما ذكره العلامة ابن خلدون - فيقول: «ويضاف إلى ما علل به ابن خلدون قبول هذه الروايات أن الحركة الأولى في تفسير القرآن كانت تعتمد على النقل وليس ثمة مجال للعمل الفكري الذي ينبغي ويثبت، وإنما الأمر مرده إلى الرواية المحضة. وطبعي أن يتردد على الألسنة ذكر كثير من هذه الأحداث المنقولة عن بني إسرائيل، وأن تتلقى بالاطمئنان. ولقد شعر النبي نفسه بهذه الموجة العنيفة التي غمرت المسلمين في هذه الفترة فأخذ ينهي عن الأخذ عنهم. والحديث المروى عن عمر يبين مبلغ تأثره بذلك، إذ يقول: (أتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والله لقد جئكم بها بيضاء نقية) حين مر عليه وهو يستمع إلى قاص يهودي. وليس معنى ذلك أن النقول المختلفة من الأديان المختلفة التي ترامت إلى علم العرب كان لها أثرها في الجانب العملي من الدين، بل ظل الفقه أو آيات الأحكام بعيدة عن هذا التأثير بمثل هذه المنقولات⁽²⁾ ويستطرد الدكتور السيد في ذكر الظروف التي أحاطت بالمسلمين لقبولهم ما يروى عن أهل الكتاب فيقول: «ويلاحظ أن القصص الإسرائيلي لم ينفذ أثره إلى أعماق الحياة الإسلامية، إلا بعد أن أصبح القصص فناً عملياً يقال في المساجد. فالقصص الإسرائيلي أقوى أثراً وأبلغ عبرة، فهو لذلك مادة خصبة لهؤلاء القصاصين. يعودون إليها متى شاءوا فيأخذون منها ما يعينهم على أداء مهمتهم»⁽³⁾. لهذا فقد انتشر هذا النوع القصصي في المجتمع الإسلامي. وبدأ من لا علم له ولا خبرة بالتحقيق والتمحيص ينقله ويشيعه بين العوام من الناس حتى كادت الروايات الخرافية الباطلة من الإسرائيليات تصبح قضايا مسلمة عند هؤلاء. فماذا

(1) تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 368 ط سنة 1284 هـ.

(2) نشأة التفسير 34، 35.

(3) المرجع السابق 38.

يستفيد المسلمون عندما تثار لهم قضايا لا ترتبط بمصالحهم في دينهم وديناهم. ومثال ذلك ما يذكرونه عن أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعصا موسى من أي الشجر كانت وأسماء الطيور التي أحيهاها الله لابراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرها من الروايات التي أقمحت في كتب التفسير القرآني «فكانت حجاً حاجزاً عند بعض المفسرين دون التغلغل في إدراك معانيه»⁽¹⁾. فهذه أمور لا ندرك حقيقتها إلا بالنقل نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم⁽²⁾. وما لم يكن كذلك، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم، ممن عرف عنهم أخذهم من أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه. وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه)⁽³⁾.

وقد تأثر الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - بهذا الجو الروائي حيث أورد في تفسيره الجامع لأحكام القرآن بعض الروايات التي ليس لها سند لصحتها يدعمها ويؤكد حقيقتها. وإننا نتعجب كيف قبلت عقلية القرطبي - ذات المقدرة الموفقة، والموهبة العجيبة، والعلم الواسع في تفسير القرآن وعلومه - إيراد بعض الأخبار الكاذبة، والقصص الخرافي الذي يرفضه المنطق السليم والتفكير المستنير، والذي لا يخدم التفسير القرآني ولا يحقق نفعاً للمسلمين في دينهم وديناهم وهو العالم الذي اشتهر بالدقة وتحري الأقوال. وقد مر بنا أنه عاب على ابن عطية الأندلسي ذكره لحديث لم يسنده إلى كتاب ولا إلى إمام، قال عنه إنه حديث غريب⁽⁴⁾. وحين ذكر

(1) الشيخ محمد أبو زهرة / مقدمة كتاب: منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم لعبدالله شحاته طبعة سنة 1382 هـ.

(2) انظر صحيح البخاري ج 4 187 طبعة دار الشعب.

(3) ابن تيمية/مقدمة في أصول التفسير 13 - 14 طبعة دمشق 1355 هـ / 1936 م - الطبعة الأولى.

(4) انظر ص 122, 123 في كتابنا هذا.

القاضي ابن الطيب أن الصحابة الذين جمعوا القرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ خمسة هم: عثمان وعلي وتميم الداربي وعبادة بن الصامت وعبدالله بن عمرو بن العاص، عقب القرطبي عليه بقوله: «قلت: لم يذكر القاضي، عبدالله بن مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما ممن جمع القرآن»⁽¹⁾ ثم استدل بأحاديث تؤكد وجهة نظره هذه. وتبدو دقته هنا في أنه لم يكذب ابن الطيب ويصفه بالجهل - كما يفعل بعض العلماء - وإنما قال: «فيما رأيت» فهذا يدل على منتهى الدقة في اختيار الألفاظ واستعمالها، وعلى الأمانة العلمية التي تحلى بها. وإزاء هذا كله لا نملك إلا أن نقول: إن العصمة لأنباء الله المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ونذكر روايتين - على سبيل المثال - من تلك الروايات التي أقحمها القرطبي في تفسيره، لنحكم - بعد ذلك - على مدى تأثره بما يروى عن أهل الكتاب. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾⁽²⁾ يقول: «روى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك في قوله: «وسع كرسية السموات والأرض» قال: إن الصخرة التي عليها الأرض السابعة ومنتهى الخلق على أرجائها، عليها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه: وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر، فهم قيام عليها قد أحاطوا بالأراضين والسموات، ورؤوسهم تحت الكرسي، والكرسي تحت العرش، والله واضع كرسية فوق العرش»⁽³⁾. أورد القرطبي ذلك دون أن يقيم دليلاً شرعياً صحيحاً يقطع به عنده في روايته هذه، ولم يضع هذه الرواية وغيرها في ميزان النقد الإخباري، ولم يفكر في أن هذه الروايات تحدث تشويشاً واضطراباً في أذهان الناس، وإيرادها في كتب التفسير لا تعطي لقراءها الصورة الصافية، النقية، لما تتضمنه الآيات من المعاني والأحكام. وهو في هذا يجري عليه ما

(1) ج 1 - 57 - 58 .

(2) البقرة من الآية 255 .

(3) ج 2773 .

يجري على البشر من النسيان والخطأ والتأثر والضعف والعجز. ولكن الذي نريد قوله: كيف سمح القرطبي لنفسه أن ينقل رواية عن موضوع هو من الموضوعات الغيبية التي لا يبت فيها المرء برأي إلا إذا كانت معه أدلة نقلية صحيحة، ثبتت صحتها بالتواتر. فالملائكة « عليهم السلام » يجب الإيمان بوجودهم. وهذا الوجود من أمور الغيب التي استأثر الله تعالى به وحده، لهذا لا يجوز أن نصفهم ونتحدث عنهم إلا بما وصفهم الله به وتحديث عنهم في كتابه الكريم، أو بوحي أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ . فالقرآن يتحدث عن الملائكة فيقول: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويستلون﴾⁽¹⁾ ويقول: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجدت لمن خلقت طيناً﴾⁽²⁾. وفي البخاري: «يقول الله عز وجل: من ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم»⁽³⁾. فالله سبحانه وتعالى يصفهم بأنهم من عباده المقربين الذين ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾⁽⁴⁾ وليسوا على هيئة إنسان أو حيوان أو طير كما جاء في الرواية. ويضاف إلى ذلك أن أحد رواة هذه الرواية وهو «السدي» قد طعن فيه علماء الحديث وجرحوه وأثبتوا أن أوهم سلاسل الإسناد: الكلبي عن السدي عن ابن عباس وتسمى «سلسلة الخنزف»⁽⁵⁾.

وعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾⁽⁶⁾ يذكر القرطبي ما روي عن معنى كلمة (جسداً) فيقول: «قيل شيطان في قول أكثر أهل التفسير، ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، واسمه

(1) الزخرف الآية 19 .

(2) الاسراء الآية 61 .

(3) الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 289 .

(4) التحريم من الآية 6 .

(5) ابن عاشور / التفسير ورجاله ص 18 .

(6) ص الآية 34 .

صخر ابن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت. قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمانة، قاله شهر ووهب. وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى رد الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان، لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف: كيف تضلون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسي سليمان، متشبهاً بصورته، داخلًا على نساءه، يقضي بغير الحق، ويأمر بغير الصواب. واختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكى عن ابن عباس ووهب ابن منبه: أنه كان يأتيهن في حيضهن»⁽¹⁾.

وحسبي من التعليق على هذا ما ذكره المحقق لجامعه حيث قال: «إن هذه الأقوال لا تصح قطعاً لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولو صح شيء منها لكان الوحي محل الشك والارتياب»⁽²⁾ وذكر أبو حيان الأندلسي رأيه في هذه القضية فقال: «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان إلى أن يقول: «ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكره كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدون أن ذلك المتصور

(1) ج 15، 199، 200 .

(2) الجامع ج 15، 200 (هامش).

هو النبي ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مستترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها»⁽¹⁾ والقرطبي نفسه - رحمه الله - بعد أن انتهى من سرد ما قيل في موضوع «الجسد» قال: «وقد ضعف هذا القول من حيث أن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حق، وهم مع الشيطان في باطل»⁽²⁾ ومن ضعفه القاضي ابن العربي حيث يتحدث عن سليمان فيقول: «كان الشيطان قد أخذ خاتمه وجلس مجلسه، وحكم في الخلق على لسانه، حسبما روى في كتب المفسرين. وهو قول باطل قطعاً، لأن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ولا يحكمون في الخلق بصورة الحق، مكشوفاً إلى الناس، بمراى منهم، حتى يظن الناس أنهم مع نبيهم في حق، وهم مع الشيطان في باطل، ولو شاء ربك لوهب من المعرفة والدين لمن قال هذا القول ما يزرعه عن ذكره، ويمنعه من أن يخلده في ديوان من بعده، حتى يضل به غيره»⁽³⁾.

ونحن نسأل كيف قبل القرطبي أن يذكر في جامعه أمثال هذه الروايات، وهو نفسه لا يثق في صحتها ولا يطمئن إليها، وقد بين ضعفها وعدم ثبوتها. بالإضافة إلى ذلك أنه ينقل عن القاضي ابن العربي كلمة يشدد فيها النكير على الروايات الإسرائيلية الباطلة، ويبين مسؤولية القارئ تجاهها. فهو يذكر ذلك ولا يمتنع عن إيراد بعض تلك الروايات في تفسيره. وكما قلنا: إنه يجري عليه ما يجري على الطبيعة البشرية من النسيان والخطأ. ومما نقله عن ابن العربي قوله: «والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خيالاً. وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب

(1) البحر المحيط ج 7 397 - الطبعة الأولى 1328 هـ مطبعة السعادة بمصر.

(2) الجامع ج 15 ص 201 .

(3) أحكام القرآن القسم الرابع 1638 تحقيق البجاوي الطبعة الأولى 1378 هـ - 1958 م.

وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب، فقالوا: «هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً»⁽¹⁾ ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم⁽²⁾، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ عن عمر قراءة التوراة⁽³⁾.

والروايات التي تنسب إلى ابن عباس ويرويه عن أهل الكتاب هي في جملتها لا يصح سندها إليه، ولا يقبل أنه سمعها وأقرها. ذلك أن رسول الله ﷺ دعا له بقوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فليس التفقه في الدين، ولا تعلم التأويل هو ما يرويه الوضعون عنه زوراً وبهتاناً. لهذا فلشهرته الواسعة في علم التفسير «إن الوضعين والمتحلين والمجازين فتنوا بالكذب عنه، وإسناد الأكاذيب إليه، وحاشاه. وذلك شأن الانتحال في إرجاع كل متحل إلى المشتبه في الباب الذي وقع الانتحال فيه. وبذلك أصبح السقيم في ما ينسب إلى ابن عباس غالباً على الصحيح، حتى ذكر علماء الحديث، نقلاً عن الإمام الشافعي أنه لم يثبت على ابن عباس في التفسير إلا نحو مائة حديث. وبذلك ينبغي الاعتماد على أن تلك الكتب المشهورة - وقد طبع بعضها - المشتملة على تفسير كثير مسند إلى ابن عباس، هي مصادر غير موثوق بها للتفسير عند العلماء، وأن التفسير الموثوق بنسبته إلى ابن عباس هو ما مر بغرايبيل النقد، فانتهى إلى الكتب الموثوق بها: مثل صحيح البخاري ومسلم وبقية الصحاح⁽⁴⁾.

وقد صدق أبو جعفر الطبري حين وصف تلك الروايات بقوله: «العلم بذلك

(1) البقرة من الآية 79 .

(2) صحيح البخاري ج 9 136 طبعة الشعب - مع وجود اختلافات لفظية بين الروايتين.

(3) الجامع ج 15 210، 211 .

(1) ابن عاشور / التفسير ورجاله ص 19 .

غير نافع، ولا صار الجهل به ضاراً»⁽¹⁾ .

وليس ما أورده الأستاذ البردوني حجة للقرطبي من أن له «في ذلك كثيراً من العذر، لأنه - رحمه الله - تابع فيه ثقافة عصره وما تجرئ به ألسنة العلماء في ذلك الزمان»⁽²⁾ فهذا لا يمنع القرطبي العذر في إيراد ما لا يحقق العلم به نفعاً، ولا له صلة بالعقيدة والأحكام الشرعية التي تقوم على أساسها الحياة عند المسلمين. ونحن لا ننقده بعقيلة العصر الحاضر الذي اشتهر فيه أمر الإسرائيليات، وإنما بناء على ما سبقت الإشارة إليه، من أنه كان عالماً محققاً، يتحرى الحق والصدق في ما يفصله من قضايا الاعتقاد والفقه والحديث واللغة. وأنه كان - أحياناً - يفند تلك المزاعم والخرافات الإسرائيلية، كما سنرى ذلك في الباب الخامس من هذه الرسالة. فمكانته العلمية هذه هي التي جعلتنا نعارض ذكره لروايات لا علاقة لها بحياة المسلمين وأحكام دينهم. ومع هذا فإن ما أورده القرطبي من أخبار وروايات لا تغض من قيمة تفسيره، ولا تساوي قطرة من محيط، بالنسبة إلى تلك الثروة الفقهية والأدبية والنحوية، التي عرضها في تفسيره الذي أجمع على أهميته ومقدرة صاحبه، وعلمه الواسع، جل علماء الإسلام الذين كتبوا عنه - قديماً وحديثاً - وإن كنا نود ألا يتعرض صاحبنا لذلك، حتى لا يكون تفسيره العظيم معرضاً للغمز واللمز من أولئك الذين جهلوا قيمة هذا الرجل، وما بذله من جهود طيبة لخدمة للإسلام والمسلمين.

وبهذه المناسبة نؤيد ما ذهب إليه الشيخ عبد المنعم النمر⁽³⁾ والدكتور علي حسن عبدالقادر في دعوتهما إلى تجريد كتب التفسير مما علق بها من «تلك

(1) جولد تسيهر / المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص 89 ترجمة علي حسن عبدالقادر الطبعة الأولى 1363 هـ - 1944 م.

(2) الجامع ج 1 مقدمة الطبعة الثانية 1372 هـ / 1952 م (هـ).

(3) مجلة العربي الكويتية. العدد (129) سنة 1389 هـ / 1969 م ص 22 .

الإسرائيليات الكاذبة المخترعة، التي لا يقرها العقل ولا يعترف بها الشرع»⁽¹⁾ وليس هذا العمل شاقاً، لا سيما إذا علمنا أن علماءنا الأوائل قد نقدوا الروايات، وبينوا درجة الإسناد، وعلى ضوء ذلك يستطيع علماءنا المخلصون - اليوم - أن يجردوا كتب التفسير وينقوها من الخزعبلات والخرافات المضللة، ويقتلعوا منها الدعاوى التي لا بينات لها، والتي يرفضها المنهج العلمي للتفسير القرآني. كما أننا نرى ما رآه الدكتور محمد حسين الذهبي، حين قال: «على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الاعراض عن هذه الإسرائيليات، وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفاً عن القرآن، وشاغلاً عن التدبر في حكمه وأحكامه، وبديهي أن هذا أحكم وأسلم»⁽²⁾، ذلك لأن الناس لو اقتصروا على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرها من المصنفات التي تداولها العلماء ورواها الأئمة الثقات لكان لهم في ذلك غنية كما يقول الإمام القرطبي.⁽³⁾

وهكذا مرت نشأة التفسير القرآني بمراحل وتطورات أوجزناها - فيما سبق - وليس لنا أن نفصل أكثر من ذلك، لأن هذا التفصيل لا مجال له هنا⁽⁴⁾. وتبع ذلك الحديث عن تأثر كتب التفاسير المأثورة بالروايات الإسرائيلية الواهية.

أما عن أدوات المفسر والعلوم التي يحتاج إليها، فإننا نذكر أولاً: أن الناس قد اختلفوا في تفسير القرآن الكريم، بمعنى هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه؟ وانقسموا تبعاً لذلك - إلى مذهبين:

- (1) د. علي عبد القادر / المذاهب الإسلامية لجولد تسيهر ص 181 .
- (2) التفسير والمفسرون ج 1، 182، 183 . الطبعة الأولى 1381 هـ / 1961 م.
- (3) التذكار في أفضل الأذكار 156 . الطبعة الأولى 1355 هـ.
- (4) تراجع - مثلاً - الكتب التالية:
- أ - الدكتور / السيد أحمد خليل: نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن.
- ب - الدكتور / السيد أحمد خليل: دراسات في القرآن.
- ج - الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: التفسير ورجاله.
- د - الدكتور محمد حسين الذهبي / التفسير والمفسرون. (ثلاثة أجزاء).

أحدهما: يشدد في ذلك ولا يجيز لأحد تفسير شيء من كتاب الله تعالى، وإن كان عالماً أديباً، متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والأخبار والآثار، وإنما يجب عليه الاختصار على ما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة الذين شاهدوا نزول القرآن، أو عن التابعين الذين تتلمذوا عليهم وأخذوا عنهم. وقد احتج أصحاب هذا المذهب بقوله ﷺ: (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار).

ثانيهما: يجيز لكل من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسره، واحتج أنصار هذا المذهب بقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾⁽¹⁾. ويذكر الراغب الأصفهاني عن بعض المحققين أن هذين المذهبين «هما الغلو والتقصير» فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة بقوله تعالى: ﴿ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾⁽²⁾.

وقد ناقش الإمام أبو عبدالله القرطبي هذا الموضوع مناقشة تدل على سعة اطلاعه وعمقه في البحث والتفكير. فنقل عن بعض العلماء قولهم: «إن التفسير موقوف على السماع، لقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾⁽³⁾. وهذا فاسد، لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر. وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه

(1) ص من الآية 29 .

(2) مقدمة التفسير 424 - مطبوعة مع كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) لعبد الجبار بن أحمد.

(3) النساء من الآية 59 .

التأويل). فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك! وهذا بين لا إشكال فيه»⁽¹⁾ .

وقد نقل القرطبي عن ابن عطية الأندلسي معنى قوله عليه الصلاة والسلام: (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) خلاصته أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله تعالى فيقدم على إيضاحه وتفسيره دون نظر لأقوال علماء الإسلام، وما تقتضيه قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه. بعد ذلك عقب الإمام القرطبي عليه بقوله: «هذا صحيح وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء، فإن من قال فيه بما سنع في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطيء، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح»⁽²⁾ .

ولكي لا يتصور على تفسير معاني كلام الله عز وجل، كل من هب ودب، فإن علماءنا الأوائل - رضي الله عنهم - قد اتفقت أغلبيتهم على ألا يلج هذا الباب إلا من تتوافر فيه خمسة عشر علماً⁽³⁾ هي:

اللغة، الاشتقاق، التصريف، النحو، المعاني، البيان، البديع، القراءات، أسباب النزول، الآثار والأخبار، السنن، أصول الفقه، الفقه والأخلاق، النظر والكلام، الموهبة.

فعلم اللغة: هو معرفة الألفاظ المفردة بحسب دلالتها على ما وضعت له بحسب جوهرها. والاشتقاق معرفة مناسبة بعض الألفاظ المفردة إلى بعض⁽⁴⁾ وبعلم

(1) الجامع ج 1 33 - أنظر أيضاً تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري مطبوع على هامش تفسير الطبري ج 1 49 - 50 الطبعة الأولى سنة 1323 هـ.

(2) ج 1 32, 33 .

(3) انظر كشاف اصطلاحات الفنون / للتهانوي ص 35 طبعة سنة 1382 هـ - ومفتاح السعادة / لطاش كبرى زاده ج 1 427 - والاتقان / للسيوطي ج 2 213 .

(4) محيي الدين الكافيجي / كتاب التيسير في قواعد علم التفسير ص 5 مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (707) تفسير.

التصريف تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: ومن فاته علمه فاته المعظم. لأن (وجد) مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها⁽¹⁾. أما علم النحو فيقصد به معرفة أحكام ما يعرض للألفاظ باعتبار التركيب من الإعراب بحسب دلالتها على أصل المعنى، وذلك بناء على ما بين الإعراب والمعنى من ارتباط الفرع بالأصل⁽²⁾. وعلوم المعاني والبيان والبديع تعرف بها خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ووجوه تحسين الكلام، وهي علوم البلاغة التي لا بد للمفسر من مراعاتها، وذلك لما يقتضيه الإعجاز القرآني الذي لا يدرك إلا بها. وبعلم القراءات يعرف القارئ كيفية النطق بالقرآن، وبه يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض. ولا بد لمعرفة ما يتعلق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات من مطالعة الكتب المدونة في أسباب النزول، إذ «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب»⁽³⁾ وعلم الآثار والأخبار هو ذلك العلم الذي يبحث في شرح القصص التي تنطوي عليها السور القرآنية من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية⁽⁴⁾. والمقصود بالسنن هو العلم الذي نقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة الذين شهدوا الوحي مما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه مما هو بيان لمجمل أو تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾⁽⁵⁾ وبقوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾⁽⁶⁾ ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعموم والخصوص والمجمل والمبين والمحكم والمتشابه والظاهر

(1) السيوطي / الاتقان ج 2 213 .

(2) ابن عاشور / التفسير ورجاله 25 .

(3) أبو الحسن النيسابوري / أسباب النزول 3، 4 طبعة مصر سنة 1315 هـ.

(4) الراغب الأصفهاني مقدمة التفسير 425 .

(5) النحل من الآية 44 .

(6) الأنعام من الآية 90 .

والمؤول والمنطوق والمفهوم والافتضاء والإشارة والدلالة والإجماع والقياسات الشرعية والمواضع التي يصح فيها القياس والتي لا يصح فيها. فهذه المعرفة هي ما تسمى بعلم أصول الفقه⁽¹⁾. ورد في كتاب (الناسخ والمنسوخ) لأبي القاسم هبة الله بن سلامة المفسر (المتوفي سنة 410 هـ) أنه ينبغي للمفسر أن يحيط علماً بالناسخ والمنسوخ، لأن كل من تكلم في شيء من علم القرآن الكريم ولم يعلم شيئاً عنهما كان كلامه ناقصاً⁽²⁾. وقد اهتم العلماء بمعرفة أحكام الدين وآدابه وآداب السياسات الثلاث التي هي سياسة النفس والأقارب والرعية، وهذا ما يتناوله بالبحث والدراسة علم الفقه والأخلاق. أما علم الكلام والنظر فهو معرفة الأدلة العقلية والبراهين الحقيقية والتقسيم والتحديد والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك. وعلم الموهبة هو ما يورثه الله من عمل بما علم واتقى وأحسن كما قال النبي ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾⁽³⁾ وجاء في هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: (ألا من زهد في الدنيا، وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدياً بغير هداية، ومن رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر رغبته فيها) وتفسير قوله: «علماً بغير تعلم» هو أنه يلهمه زيادة على ما يعلم بأن يوفقه لاجتهاد الرأي، واستنباط الصواب، ليس أنه يصير عالماً من غير أن يتعلم البتة⁽⁴⁾. ويذكر الأستاذ أبو الأعلى المودودي في مقدمة تفسيره الذي سماه: «تفهيم القرآن» أنه لا يتم فهم القرآن إلا حين ينفذ المرء ما جاء فيه من أحكام وأوامر ونواه، فيقول: «لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا حين

(1) محيي الدين الكافيجي / التيسير في قواعد علم التفسير 6 مخطوط.

(2) النيسابوري / أسباب النزول 4 - 5 (هامش) طبعة سنة 1315 هـ.

(3) البقرة من الآية 282.

(4) مقدمة كتاب المباني في نظم المعاني ص 175 مطبوع مع مقدمة ابن عطية في كتاب (مقدمتان في علوم القرآن) تحقيق آرثر جفري طبعة سنة 1954 م.

تحكم هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة إلى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك»⁽¹⁾ .

وفي هذا الصدد يروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب بكلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى. قالوا:

فالأول هو حقائق اللغة وموضوعه الكلام.

والثاني هو التوحيد وأصول الشرائع.

والثالث فروع الأحكام وتأويل المحتملات.

والرابع الغيوب من وقت قيام الساعة ووقت ظهور آياتها»⁽²⁾ .

هذه هي العلوم أو الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، فمن تكاملت فيه أصبح جديراً بأن ينال شرف تفسير كتاب الله العزيز، وخرج من كونه مفسراً للقرآن برأيه. ومن لم يحصل على ذلك، وفسر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهبي عنه، وتعرض لغضب الله وسخطه، لأنه حكم - جهلاً وتخميناً - بأن ما ذهب إليه في تفسير معنى الآية هو مراد الله سبحانه وتعالى. وهذا ما نلاحظه في عصرنا الحاضر حين تصدر للتفسير بعض الرجال الذين ليسوا على علم بكتاب الله. وكان أطفال العلماء والمفسرين الأولين أكثر علماء ومعرفة منهم، ذلك لأن أولئك الرجال قد أعرضوا عن كتب التفسير النقلي والعقلي، وأحبوا أن يظهروا أمام الناس بأنهم أعلم بالقرآن وعلومه من كل من سبقوهم.

وليس معنى هذا أن يكون فهم القرآن وتفسيره مقصوراً على علمائنا السابقين دون أن يخوض فيه من جاء بعدهم من العلماء والمفكرين. فمن حق هؤلاء أن

(1) المبادئ الأساسية لفهم القرآن / ترجمة خليل الحامدي 54 الطبعة الثانية 1389 هـ.

(2) نجم الدين النسفي: كتاب التيسير في التفسير الورقة الثالثة - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (61) تفسير.

يفسروا القرآن، ويضيفوا إلى الآية معنى جديداً، لم يسبق أن وصل إليه الأقدمون. ولكن هذا لا يتحقق إلا إذا تكاملت وتوافرت فيهم تلك الشروط أو الأدوات التي وضعها كبار علماء الإسلام. وكل من يريد التطلع إلى التفسير يجب عليه أولاً أن يتبين «هل هو من رجاله؟ عليه أن يعرف مدى إلمامه بلغة العرب، ومدى فهمه لأسرارها وتذوقه لأساليبها، ومدى معرفته بالسنة النبوية، وأن يضع أمامه - دائماً - قول النبي ﷺ: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)⁽¹⁾ فالذي يمنح نفسه صفة المفسر، دون أن يكون على بينة بما قدمناه، ويطوع نصوص القرآن وأحكام الشريعة لانحرافات العصور ويجعل من تلك الانحرافات قيماً على النصوص، توجهها حسبما تتجه، هو في الحقيقة إنسان تنعدم فيه روح المفسر النزيه، التقى، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽²⁾ ونضرب مثلين لذلك النوع من أدعياء التفسير.

أولهما: ما ورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾⁽³⁾ يقول أحد العصريين في ذلك: «ومجرد ارسال النظرة لا ضرر منه، فنحن قد نرى وجهاً فنهتف بالقلب اعجاباً (الله) ونقصد الخالق الذي صور وليس المخلوق، فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط، وإنما تكتب لنا حسنة، وهي نظرة لا يقتدر عليها إلا متصوف عابد»⁽⁴⁾ فهو «يجعل النظرة التي حرمها الله ليست حلالاً فقط، وإنما يجعلها عبادة يثاب عليها الناظر ويكتب له بها حسنة»⁽⁵⁾.

(1) د. علي العماري / تيارات في التفكير الديني المعاصر من رسالة: التيارات العصرية في فهم القرآن ص 11 طبعة سنة 1970 م مطبعة الأزهر.

(2) فاطر من الآية 28 .

(3) النور الآيتان 30، 31 .

(4) عبد الرحمن الزغبى - يوسف الشال - عبد الفتاح بركة: ملاحظات على كتاب (محاولة لفهم عصري للقرآن 36، 37 في رسالة: التيارات العصرية لفهم القرآن طبعة سنة 1970 م.

(5) أحمد بدوي / الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام 108 .

ثانيهما: أن بعضهم قال في قطع اليد الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾⁽¹⁾ أن المراد في هذا القطع هو اعطاء السارق والسارقة من المال ما يكفيهم، وليس المراد القطع الحقيقي. ومن الواضح أن هذا تفسير بالهوى يصادم ما ثبت في السنة الصحيحة: من أن الرسول ﷺ قطع فعلاً يد من ثبتت سرقة. فقد قطع يد الخزومية، وأنكر على من أراد أن يشفع فيها، وقال: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها»⁽²⁾.

تلك هي أدوات المفسر التي بدونها لا يمكن أن يفسر معاني القرآن وآياته المحكمة. نبيها لتمييز بها بين التفسير القرآني الشرعي الصحيح وبين التفسير المعتمد على الهوى ومناصرة الباطل في أي شكل من أشكاله وقد اختلفت حظوظ علماء ومفسري عصر الحروب الصليبية - ومنهم القرطبي - من هذه الأدوات وإن اتفق أكثرهم في سعة الثقافة.

والآن بعد هذا التفصيل المسهب في التفسير وأدواته، نتحدث عن مدى انطباق هذه الأدوات على شخصية القرطبي التفسيرية، لتبين إلى أي حد تمثلت فيه، وأثرت في تفكيره التفسيري. فنقول وبالله التوفيق:

أشرنا - فيما سبق - أن صاحبنا كان قد جمع في تفسيره بين المأثور والرأي، أي بين منهجي الرواية والدراية، لهذا فهو يعارض اعتماد التفسير على السماع وحده وعلى مجرد الرأي المحض الذي لا يستعين فيه صاحبه بأدوات التفسير وعلومه ومنهج القرطبي هذا هو منهج أهل الحق في تفاسيرهم، وقد سبق التلميح إلى ذلك، وسنرى هذا بشكل أوضح خلال جولاتنا في أعماق تفسيره. ولكي يمكننا معرفة حظ القرطبي من تلك الأدوات والعلوم التي يحتاج إليها المفسر، لا بد لنا أن نعرض

(1) المائة من الآية 38 .

(2) د. بدران أبو العينين / مع القرآن الكريم ص 102 - أنظر البخاري ج 8 199 مختصر صحيح

مسلم ج 2 38، 39 .

معاً بعض الأمثلة من تفسيره الجامع لأحكام القرآن، حتى ندعم ما ذهب إليه في منهجه القرآني ففي مجال العربية بعامة نجده يناقش اللفظ اللغوي من وجوه المتعددة، من حيث اشتقاقه وتصريفه وما يتضمنه من المعاني المختلفة ذات الدلالات الحسية والمعنوية، وبيان المذاهب النحوية ذات الاتجاهات المتباينة. وهو في هذا كله ينقل عن أئمة العربية وأساطينها، سواء من كان منهم في شرق بلاد الإسلام أو غربها، ويستشهد بكلام العرب شعرها ونثرها وأمثالها ولغات قبائلها، في عصور الجاهلية وصدر الإسلام وبني أمية وبني العباس ليؤكد ما ذهب إليه من إيضاح اللفظ وتصريفه وإعرابه. وينسب ما يستشهد به - في أغلب الأحيان - إلى أصحابه. فهو ينقل عن امرئ القيس وسيبويه والخليل ابن أحمد والكسائي وكعب بن مالك والكميت وابن فارس والجوهري والفرزدق وابن سيده الأندلسي صاحب المعجم اللغوي (المحكم) وشيخه أبي جعفر أحمد بن محمد القيسي القرطبي، وغيرهم.

هذا ونلاحظ أنه لا يكتفي بالنقل دون أن يكون له رأي فيما ينقله، فهو - أحياناً - بعد انتهائه مما ينقله في موضوع بحثه الذي يعالجه، يدلي برأيه وما وصل إليه فهمه، وهو تارة يؤيد ويدعم ما ينقله بالشواهد والأدلة ويستحسنه، وأخرى يقف منه موقف العالم الناقد الذي يفند بالحجج والبراهين ما يراه غيره ويذهب إليه، كما سنرى ذلك بشكل أكثر تفصيلاً عند حديثنا عن (القرطبي الناقد).

ففي المسألة السادسة والعشرين وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾ يناقش عالمنا لفظة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ فيذكر ما فيها من القراءات واللهجات، ثم يبين أصلها التي كانت عليه قبل أن تنتهي إلى ما هي عليه الآن فيقول: «وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بكسر النون، وهي لغة تميم وأسد وقيس وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل وأصل ﴿نَسْتَعِينُ﴾ نستعون، قلبت حركة الواو إلى العين فصار ياء، والمصدر استعانة، والأصل استعوان،

(1) الفاتحة من الآية 5 .

قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفاً ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى، ولزمت الهاء عوضاً⁽¹⁾ .

وعند تفسير قول الله تعالى: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾⁽²⁾ بعد أن نقل صاحبنا عن أهل اللغة قولهم: أصل الخدع في كلام العرب الفساد، وحكى ذلك أبو العباس أحمد بن يحيى المشهور بـ «ثعلب» عن ابن الأعرابي، وأنشد سويد بن أبي كاهل. وهو يصف ثغر امرأة:

أبيض اللون لذيذ طعمه طيب الريق إذا الريق خدع

قال: ف ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ على هذا، أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء. وكذا جاء مفسراً عن النبي ﷺ، وهو قوله: (لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر) قالوا: يا رسول الله: وكيف يخادع الله؟ قال: (تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره) ثم حكى عن ابن فارس صاحب (المجمل) أن أصل (الخدع) الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء. ثم استشهد على هذا المعنى بقول العرب: انخدع الضب في جحره⁽³⁾ .

ونجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَوْباً كَبِيراً﴾⁽⁴⁾ يتناول المعاني الحسية والمعنوية التي تدل عليها كلمة ﴿حَوْباً﴾ وما فيها من لغات. وهو في هذا يستشهد بحديث رسول الله ﷺ وبكلام العرب شعرها ونثرها. فيقول: «يقال: حاب الرجل يحوب حوباً إذا أثم. وأصله الزجر للابل، فسمى الإثم حوباً، لأنه يزجر عنه وبه. ويقال في الدعاء: اللهم اغفر حوبتي، أي إثمي. والحوبة أيضاً الحاجة. ومنه في الدعاء: إليك أرفع حوبتي، أي حاجتي. والحوب الوحشة، ومنه قوله عليه السلام لأبي أيوب: «إن طلاق أم أيوب لحوب» وفيه ثلاث لغات (حوباً) بضم الحاء

(1) ج 1 146، 147 .

(2) البقرة الآية 9 .

(3) ج 1 196 .

(4) النساء من الآية 2 .

وهي قراءة العامة ولغة أهل الحجاز. وقرأ الحسن (حوباً) بفتح الحاء. وقال الأخفش: وهي لغة تميم. مقاتل: لغة الحبش. والحبوب المصدر، وكذلك الحباية. والحبوب الاسم. وقرأ أبي بن كعب (حاباً) على المصدر مثل القال. ويجوز أن يكون اسماً مثل الزاد. والحوأب (بهمزة بعد الواو): المكان الواسع. والحوأب ماء أيضاً. ويقال ألحق الله به الحوبة أي المسكنة والحاجة، ومنه قولهم: بات بجيبة سوء. وأصل الياء الواو، وتحوَّب فلان أي تعبد وألقى الحوب عن نفسه. والتحوب أيضاً التحزن. وهو أيضاً الصياح الشديد، كالزجر، وفلان يتحوب من كذا أي يتوجع وقال طفيل:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجَّجٍ من الغيظ في أكبادنا والتحوَّب⁽¹⁾

وفي المسألة الثالثة وعند قوله تعالى: ﴿أَن اللّٰهُ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾⁽²⁾. يوضح القرطبي ما في هذه الآية من وجوه الإعراب فيقول: (أن) بالفتح في موضع نصب. والتقدير بأن الله. ومن قرأ بالكسر قدره بمعنى قال: إن الله (بريء) خبر أن. (ورسوله) عطف على الموضع، وإن شئت على المضمرة المرفوعة في (بريء) كلاهما حسن، لأنه قد طال الكلام. وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف، التقدير: ورسوله بريء منهم. ومن قرأ (ورسوله) بالنصب - وهو الحسن وغيره - عطفه على اسم الله عز وجل على اللفظ. وفي الشواذ (ورسوله) بالخفض على القسم، أي وحق رسوله، ورويت عن الحسن. وقد تقدمت قصة عمر⁽³⁾ فيها أول الكتاب⁽⁴⁾.

وفي مجال علم القراءات نرى إمامنا يتحدث عن الأوجه المختلفة التي تدور حولها، ناقلاً ما روى منها عن القراء والمفسرين، ومبيناً ما كان منها متواتراً وغير متواتر. وهو يطمئن لقراءة الجماعة ويستحسنها. فعند قول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا

(1) ج 5، 10، 11.

(2) التوبة من الآية 3.

(3) أنظر ج 1، 24.

(4) ج 8، 70، 71.

الشیطان عنها»⁽¹⁾ یبین أن قراءة الجماعة ﴿فأزلهما﴾ بغير ألف، من الزلّة وهي الخطیئة، أي استنزلهما وأوقعهما فیها. وأن قراءة حمزة ﴿فأزلهما﴾ بألف، من التنحية، أي نحاهما. یقال أزله فزال⁽²⁾ . بعد ذلك ذكر رأیه فی هاتین القرائتین فقال:

«قلت: وعلى هذا تكون القرائتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمکن فی المعنى. یقال منه: أزله فزلّ. ودل على هذا قوله تعالى: ﴿إنما استنزلهما الشیطان ببعض ما كسبوا﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿فوسوس لهما الشیطان﴾⁽⁴⁾ والوسوسة إنما هي إدخالهما فی الزلل بالمعصية. وليس للشیطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته على إدخاله فی الزلل، فیکون ذلك سبباً إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى (أزلهما) من زلّ عن المكان إذا تنحى، فیکون فی المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال امرؤ القیس:

یزلّ الغلام الخفّ عن سهواته ویلوي بأثواب العنیف الثقيل⁽⁵⁾

وعند قوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شیباً﴾⁽⁶⁾ یبین أن قراءة عبدالله وعطية (كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شیباً إن كفرتم) أي على أساس التقديم والتأخیر. وعلى هذه القراءة یكون «يوماً» مفعول بـ «تتقون» وليس بظرف، وإن كان الكفر بمعنى الجحود كان الیوم مفعول «كفرتم». وینقل عن ابن الأنباري قوله: «ومنهم من نصب الیوم بـ (كفرتم) وهذا قبیح، لأن الیوم إذا علق بـ (كفرتم) احتاح إلى صفة، أي كفرتم بیوم. فإن احتج محتج بأن الصفة قد تحذف وینصب ما بعدها، احتججنا علیه بقراءة عبدالله (فكيف تتقون يوماً)⁽²⁾ وهنا یعقب

(1) البقرة من الآیة 36 .

(2) ج 1 311 ، 312 .

(3) آل عمران من الآیة 155 .

(4) الأعراف من الآیة 20 .

(5) المزل من الآیة 17 .

(6) ج 19 49 .

الإمام المقرئ القرطبي على كلام ابن الأنباري بقوله: «قلت: هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود ف «يوماً» مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء»⁽¹⁾ .

أما أسباب النزول فهو علم - كما قلنا - لا يجوز لأحد الحديث فيه إلا بعد «الرجوع إلى المعارف المنقولة عن تواريخ نزول الآيات، ومحالها، والمناسبات التي جاءت فيها للاستعانة بذلك على استيضاح المعاني المقصودة من التركيب»⁽²⁾ القرآني، لأن «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»⁽³⁾ . ولما كانت معرفة هذا العلم شيئاً أساسياً وضرورياً للمفسر، فإن القرطبي قد نال منه حظاً عظيماً، حتى تمكن من المعرفة الكاملة لما تدل عليه الآيات من معاني وأحكام. ونكتفي هنا بتعليقه على ما ذكره القشيري عن ابن عباس من أن الآية الكريمة ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾ قد نزلت في إسلام عمر، فإن النبي ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، فأسلم عمر وصاروا أربعين. والآية مكية، كتبت بأمر رسول الله ﷺ في سورة مدنية. وبعد أن بين ذلك عرض علينا رأيه الذي يدل على سعة اطلاعه وعمق ثقافته في أسباب النزول والأخبار: «قلت: ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ابن عباس، فقد وقع في السيرة خلافه. عن عبدالله بن مسعود قال: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه. وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة. قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى

(1) ج - 50 19 .

(2) ابن عاشور / التفسير ورجاله 10 .

(3) ابن تيمية / مقدمة في أصول التفسير 10 - الطبعة الأولى 1355 هـ / 1936 م .

(4) الأنفال الآية 64 .

أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر منهم. وهو يشك فيه»⁽¹⁾.

وعلم السنن من العلوم التي اهتم بها القرطبي اهتماماً كبيراً، إذ بها يعرف المفسر بيان ما أجمله القرآن، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً. فمن ذلك أنه عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾⁽²⁾ تناول سبب نزول هذه الآية الكريمة، وهو ما أسنده الواحدي (صاحب كتاب أسباب النزول) عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الثمر ويأكل فقال: (يا ابن عمر ما لك لا تأكل) فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال: (لكنني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق سنتهم ويضعف اليقين) قال: والله ما برحنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ وهو السميع العليم ولم يفت القرطبي المحدث أن يبين ضعف هذه الرواية، مستدلاً على ذلك بما عرف عنه من اعتماده على السنة وأقوال الصحابة الذين شهدوا نزول القرآن الكريم ووعوا معانيه وأحكامه.

«قلت: وهذا ضعيف يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم، اتفق البخاري عليه ومسلم. وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين»⁽³⁾.

ويلاحظ عليه أنه كان دقيقاً ومحققاً عند استشهاده بأحاديث رسول الله ﷺ، ذلك لأنه لا يكتفي بذكر متن الحديث، بل يذكر سنده ومصدره وبابه.

(1) ج 8، 42، 43 .

(2) العنكبوت من الآية 60 .

(3) ج 13، 359، 360 أنظر البخاري ج 7، 81 كتاب النفقات.

وهذا يدل على منتهى اليقظة الفكرية، والدقة المتناهية. فما ورد في هذا المجال قوله: «وفي صحيح مسلم من (كتاب التفسير) عن عبدالله بن مسعود في قوله عز وجل: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾⁽¹⁾ قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن»⁽²⁾ وقوله: «وقد ترجم البخاري في آخر كتاب الشهادات (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل: ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾⁽³⁾ وساق حديث النعمان بن بشير: (مثل القائم على حدود الله والمدهن⁽⁴⁾ فيها مثل قوم استهموا على سفينة⁽⁵⁾ فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أخرجنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهما وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»⁽⁶⁾ وكذلك الحال في كتب الصحاح الأخرى كالنسائي⁽⁷⁾ وأبي داود⁽⁸⁾ وابن ماجه⁽⁹⁾ والترمذي⁽¹⁰⁾ .

أما حظّه من علمي (أصول الفقه - الفقه والأخلاق) فقد بلغ فيهما شأواً عظيماً. ولا شك أن تتلمذه على كبار الفقهاء والأساتذة العلماء الذين برزوا في كل فن من فنون العربية والشريعة، كان له أثره العميق على تكوين شخصيته الفقهية، بالإضافة إلى ما منحه الله من قوة البصيرة، وحدة الذاكرة، وحسن الفهم، والذي

(1) الاسراء من الآية 57 .

(2) جـ 10 279 .

(3) آل عمران من الآية 44 .

(4) ورد في جـ 7 392 (الواقع فيها) وكذلك البخاري جـ 3 237 طبعة دار الشعب.

(5) جـ 4 87 .

(6) تنمة الحديث من جـ 7 392 .

(7) انظر جـ 14 192 .

(8) جـ 5 358 .

(9) جـ 4 136 .

(10) جـ 10 90 .

يكشف هذه الجوانب الهامة هو تفسيره العظيم. فلنتصفح معاً، لنرى هذه الشخصية الفذة من خلاله. فعند قوله تعالى: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾⁽¹⁾ نجده يذكر في المسألة الثانية تعريف المصلحة والمفسدة في الشرع الإسلامي، وما تهدف إليه نظمه وأحكامه في حياة البشر جميعاً. فيقول:

«هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق، هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين، وبسطه في أصول الفقه»⁽²⁾.

وفي تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾⁽³⁾ وفي المسألة الثانية والأربعين ينقل القرطبي الفقيه عن عالم الأندلس الشهير ابن عطية قوله: «وأما التراب المنقول من طين أو غيره فجمهور المذهب على جواز التيمم به، وفي المذهب المنع وهو في غير المذهب أكثر، وأما ما طبخ كالجص والآجر ففيه في المذهب قولان: الإجازة والمنع، وفي التيمم على الجدار خلاف»⁽⁴⁾.

وبعد ذلك علق على كلام ابن عطية فيما يتعلق بالتيمم على الجدار فقال: «والصحيح الجواز لحديث أبي جهيم بن الحارث بن الصمة الأنصاري قال: أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه، فلم يرد عليه النبي ﷺ»

(1) يوسف الآية 47 .

(2) جـ 9 203 .

(3) النساء من الآية 43 .

(4) جـ 5 238 .

حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه، ثم رد عليه السلام. أخرجه البخاري (1). وهو دليل على صحة التيمم بغير التراب كما يقوله مالك ومن وافقه. ويرد على الشافعي ومن تابعه في أن الممسوح به تراب طاهر ذو غبار يعلق باليد» (2).

كما أننا نجد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ (3) يتحدث عن أخلاق الإسلام العليا، والصفات الحميدة التي يجب على المسلمين اتباعها والتحلي بها. فيقول في المسألة السابعة: «ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك) (4) فحضر عليه السلام على مكارم الأخلاق، لما يترتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والفسدة، فإن الجار قد يتأذى بقتار قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتهدج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لا سيما إن كان القائم ضعيفاً أو أرملة فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة» (5).

أما ما يتعلق بدراسة المعتقدات، وهو ما يسمى بعلم النظر والكلام، فإن القرطبي - رحمه الله تعالى - قد جال في هذا الميدان وصال، وبين المنهج الصحيح للاعتقاد، وإن الباحث حين يدرس تفسيره يلاحظ أن هذا الرجل كان سلفياً في عقيدته. يبرهن على صحة العقيدة الإسلامية (6)، ويقدم الأدلة على فساد العقائد الإلحادية (7) التي يصف أصحابها بأنهم كفرة. وقد بين رأيه في محاجة

(1) أنظر البخاري ج 1 92 طبعة دار الشعب مختصر صحيح مسلم ج 1 53 .

(2) ج 5 238 .

(3) النساء من الآية 36 .

(4) أنظر مختصر صحيح مسلم ج 2 234 ، حيث تتفق الروايتان معنى وتختلف لفظاً.

(5) ج 5 185 .

(6) أنظر على سبيل المثال ج 2 190 .

(7) أنظر أيضاً ج 7 99 - 282 .

الكفار ومقارعتهم بالحجة عندما ذكر قوله تعالى: ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ إلى قوله: ﴿سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾⁽¹⁾ قال: «ودلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم. وقد تقدم في (البقرة)⁽²⁾ ونهت على أن من ابتداء بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة»⁽³⁾ كما أنه يرد بعنف على المذاهب الكلامية كالمعتزلة والجبرية والقدرية والخواارج والمتصوفة... ومن وافقهم من أهل الزينغ والضلال - كما يقول - كل ذلك بأدلة نقلية وحجج عقلية منطقية. ونكتفي ببيان موقفه من تلك الطوائف بما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾⁽⁴⁾ يقول:

«وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيراً بفضله وإن كان شراً فبعده، وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلاً، وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله»⁽⁵⁾ والموهبة أيضاً قد توافرت في شخص القرطبي، فقد منحه الله سبحانه وتعالى فكراً ثاقباً، وقلباً واعياً، وعلماً واسعاً، وذلك لإيمانه العميق بأن ما يتعلمه المرء من الآداب والأحكام في العبادات والمعاملات والمطعومات والملبوسات وغيرها يجب أن تترجم إلى سلوك عملي في واقع حياته الخاصة والعامة. ومما يجدر

(1) المؤمنون الآيات من 80 إلى 89 .

(2) راجع جـ 286 3 .

(3) جـ 146 12 .

(4) البقرة الآية 134 .

(5) جـ 139 2 .

ذكره في هذا المقام، تأكيداً لهذا المعنى، أنه قد نقل عن ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁽¹⁾ قوله: (كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله: ﴿أحسن عملاً﴾: أحسن العمل أخذ بحق وانفاق في حق مع الايمان، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه)⁽²⁾ وهنا يعقب الإمام العامل القرطبي على هذا القول الكريم: «قلت: هذا قول حسن، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه، وقد جمعه النبي ﷺ في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبدالله الثقفي لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - في رواية: غيره - قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) أخرجه مسلم والاستقامة هنا لا يحددها الإنسان، المحدود في قواه العقلية والجسمية، بل الذي بينها ويرسم معالمها هو الله سبحانه وتعالى بما أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ، وذلك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿واستقم كما أمرت﴾⁽³⁾.

هذه هي الأدوات والمعارف التي يحتاج إليها المفسر وقد تمثلت في القرطبي بصورة واضحة، كما لمسناها فيما سقناه من الأمثلة - التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر - وهي تدل على مكانته وطول باعه في علم التفسير القرآني.

بعد هذا العرض الاجمالي لنشأة التفسير وما علق به من روايات لا تقوى على الوقوف لضعف سندها ومتنها. وما يحتاج إليه من أراد أن يتصدى لتفسير كتاب الله الكريم من علوم وأدوات، وانطباقها على الإمام المفسر أبي عبدالله القرطبي، بعد هذا كله نتحدث عن تفسيره الجامع لأحكام القرآن، ونصف نسخه الخطية الموجودة في أشهر دور الكتب فنقول، ومنه وحده حسن التوفيق والقبول: إن الجامع لأحكام القرآن يمثل سفيراً ضخماً لتفسير آيات كتاب الله الحكيم،

(1) الكهف الآية 7 .

(2) ج 10 355 - أنظر مختصر صحيح مسلم / للحافظ المنذري ج 1 131 الطبعة الأولى 1388 هـ / 1969 م .

(3) الشورى من الآية 15 .

جمعه مؤلفه في خمسة عشر مجلداً. وتناول فيه موضوعات علمية متعددة مثل: استنباط الأحكام الشرعية، ومناسبات النزول، والناسخ والمنسوخ، والمسائل الفقهية واللغوية وغيرها. وقد كان هذا التفسير القيم مدفوناً في مقابر النسيان إلى أن هيا الله له من يخرجه إلى حيز الوجود ليستفيد منه القاصي والداني من المسلمين، فقامت دار الكتب المصرية - مأجورة، مشكورة - بإحيائه وطبعه فطبعته لأول مرة في عشرين جزءاً سنة 1351 هـ / 1933 م في ورق مصقول، غاية في الدقة والأناقة. وقدمته هدية ثمينة إلى أبناء العالم الإسلامي ليستضيئوا بنوره ويسيروا حياتهم على نهجه وهدهاه. ورأت الدار سنة 1372 هـ / 1952 م «بعد أن تحققت حاجة الناس إلى هذا الكتاب، ورغبة الكثير من العلماء في الأقطار الإسلامية في ذبوعه - أن تقرر إعادة طبعه تعميماً للفائدة»⁽¹⁾ وصورته دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1387 هـ / 1967 م عن هذه الطبعة. وقد اعتمدنا - في بحثنا - على النسخة المصورة في طبعتها الثالثة. كما أن مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر بالقاهرة قد قامت بطبعه في ثمانين عدداً، إيماناً منها بحتمية نشر التراث الإسلامي وتمكين المسلمين من الإطلاع عليه والاستفادة منه.

ويلاحظ أن القرطبي لا يترك مناسبة من المناسبات، إلا ويذكر فيها تفسيره في كتابيه المطبوعين: (التذكار والتذكرة)، وذلك إشارة منه إلى أنه فصل في الجامع ما أجمله فيهما. ويضاف إلى ذلك أنه ألف جامعاً بالمشرق الإسلامي وتبع ابن عطية المفسر في طريقتة ومنهاجه، إذ لخص تفاسير من سبقه من مفسري السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين⁽²⁾.

وتوجد عدة نسخ خطية من تفسير القرطبي، بعضها كامل، والآخر ناقص، في دور الكتب الشهيرة في كل من:

(1) الجامع لأحكام القرآن جـ 1 (هـ) مقدمة الطبعة الثانية.

(2) مقدمة ابن خلدون 348 طبعة سنة 1322 هـ.

تركيا، سورية، مصر، تونس، المغرب، ألمانيا، لندن، أسبانيا، الهند وهولندا. ففي تركيا توجد منه في مكتبات سليم آغا في استانبول تحت رقم (87 إلى 89)، وفي السليمانية (114 - 115)، وفي كوبرلي زاده (115 - 116)، وفي نور عثمانية (371 - 381)، وفي ولي الدين (207 - 213)، وفي آيا صوفيا (227 - 231)، وفي عاطف أفندي (194 - 207)، وفي حكيم أغلو (34 - 45)، وكارولا في استانبول (1274) (1).

ويوجد منه في المكتبة الظاهرية بدمشق جزء كتب عليه أنه الجزء الأول يبدأ بأول الكتاب وينتهي بتفسير آخر سورة (البقرة). وفي آخره كتبت عليه هذه العبارة: «تم هذا الجزء الأول». كما توجد نسخة حديثة: خرمت من أولها ورقة، ثم ألحق النقص بخط مغاير. وقد أصابت الرطوبة أوائلها وأتلفت مواضع من الأوراق، ثم رُم التلف، وأعيد كتابة الكلمات المطموسة والمخرومة. وقد قطعت الزوايا اليسرى من أعالي الأوراق في أواخرها، ثم رمت الأجزاء المقطوعة. وفيها أكل أرضة قليل في أعقاب الأوراق. والخط الذي كتبت به هذه النسخة نسخ معتاد حديث، ورؤوس الفقر مكتوبة بالحمرة وبخط أكبر كتبه محمد بن الحاج حما الشهير بابن معن بابشيه الملق بالغربية سنة 1074 هـ كما جاء في آخر النسخة في الجزء الأخير منها (2).

وفي مكتبات مصر توجد منه عدة أجزاء في دار الكتب بالقاهرة تحت رقم (159) الفهرس الأول (3). وجزء يبدأ من سورة ﴿إبراهيم﴾ إلى سورة ﴿يس﴾ جزءاً - مجلد 1 خط (289) وجزء آخر وهو الأول ينقص منه صدر الخطبة، وجاء بآخره: يتلو إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني قوله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا

(1) بروكلمان / تاريخ الأدب العربي - ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ج 1 737 الملحق.

(2) عزة حسن: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم 385 (12 التفسير) طبعة 1381 هـ / 1962 م ص 213.

(3) بروكلمان ج 1 415.

لكم⁽¹⁾ جزءاً - مجلداً. خط سنة 747 هـ (147)⁽²⁾. وتوجد ثلاث نسخ كاملة، وكثير من الأجزاء المتفرقة في مكتبة دار الكتب والمكتبات الأخرى بمصر كالأزهر. وفيما يلي وصف للنسخ الكاملة:

1- نسخة تحت رقم (92) تفسير. تقع في خمس مجلدات. بقلم معتاد. كتبها محمد الرملاوي الشافعي. فرغ من كتابتها في 8 رجب سنة 1258 هـ وهي كثيرة الأخطاء والتحريف⁽³⁾.

2- والنسخة الثانية تحت رقم (95) تفسير. وتقع في ثلاث مجلدات بقلم معتاد ومجدولة بالمداد الأحمر. وهي من مخطوطات القرن الثاني عشر ومسطرتها 45 سطرًا. كانت هذه النسخة هي الأصل المعتمد عليه في الطبعة الأولى⁽⁴⁾.

3- أما النسخة الثالثة فتوجد في مكتبة حلیم وتحمل رقم (1) وهي تقع في أربع مجلدات، مكتوبة بقلم معتاد تمت كتابته في 15 رجب سنة 1230 هـ ومجدولة بالمداد الأحمر. ومسطرتها 43 سطرًا في حجم الربع⁽⁵⁾.

أما الأجزاء المتفرقة الأخرى فقد وصفها أيضاً الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش - رحمه الله تعالى - في مقدمة الجزء الثالث من تفسير القرطبي. والذي يهمنا هنا - ذكره أن النسخة التي تحمل رقم (268) تفسير والموجودة بالدار هي نسخة منقولة عن نسخة المؤلف. ويوجد منها أحد عشر جزءاً. عشرة منها بخط عبدالله بن عبد الرحمن بن إسحاق بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي سنة 766 هـ. وقد رواها عن ابن المؤلف عن المؤلف. وأما الجزء الباقي وهو الرابع فمكتوب بقلم معتاد بخط

(1) البقرة من الآية 75 .

(2) فهرس الخزانة التيمورية ج 1 التفسير ص 24 طبعة 1367 هـ / 1948 م - القاهرة.

(3) الجامع لأحكام القرآن مقدمة ج 3 (ج).

(4) مقدمة ح 3 من الجامع (د).

(5) المرجع السابق ح 3 (ط).

أحمد بن عبد المغيث بن عبد الرحمن الخزرجي الأنصاري سنة 765 هـ (1) .

وأشار صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة سنة 1347 هـ / 1929 م إلى أنه توجد من التفسير نسخ خطية غير كاملة في خزانة دار الكتب المصرية (2) . كما أنه توجد نسخة في مجلد في مكتبة بلدية الاسكندرية، وهي قطعة من الجزء الأول، وفيها من أثناء الكلام على علم التفسير إلى الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم بعد الغم أمانة نعاساً﴾ وهي مكتوبة بقلم عادي قديم بدون تأريخ (ن 1085 - ب) المجلد السادس من نسخة أخرى وفيه من أول تفسير (سورة النساء) إلى آخر (سورة المائدة) وهو مكتوب بقلم مغربي بمدينة (بجاية) سنة 853 هـ (ن 1163 - ب) (3) . وفي تونس بجامع الزيتونة يوجد منه جزء واحد (56 - 62) . وفي المغرب بجامع القرويين بفاس منه عدة أجزاء (62 - 79، 89 - 90، 184 - 196) أما في ألمانيا فمنه ثلاثة أجزاء. في برلين، الأول تحت رقم (810) ، الثالث (812) ، الرابع (811) . وفي المتحف البريطاني (6642) . وفي الديوان الهندي بلندن أيضاً (1107) . ومنه في أسبانيا بمكتبة الأسكوريال الفهرس الثاني، (1294 - 1296) (1284 - 1290، 1292) . وفي الهند في بتنة جزء واحد (1026) . وفي الآصفية الجزء الأول (536 - 538) . وفي بنك بور الجزء الثامن عشر (1376) . أما هولندا ففيها منه الجزء السادس عند برل في ليدن (213) . ومكتبة ليدن (1674) (4) .

وقد اختصر سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن الشافعي المتوفي سنة 804 هـ تفسير القرطبي. والتبس الأصل على المولى أبي الخير صاحب موضوعات العلوم فنسبه إلى محمد بن عمر بن يوسف الأنصاري القرطبي المتوفي سنة 631 هـ (5) . كما أنه

(1) المرجع السابق (د).

(2) يوسف سر كيس جـ 7 نهر 1504 .

(3) فهرس كتب الشريعة الإسلامية - المكتبة البلدية سنة 1344 هـ / 1926 م.

(4) بروكلمان جـ 1 415 وملحقه 737 .

(5) حاجي خليفة / كشف الظنون جـ 1 نهر 534 طبعة 1360 هـ / 1941 م.

قد وقعت تحت أيدينا نسخة خطية من التفسير في مكتبة الأوقاف بطرابلس بليبيا. هذا وصف لبعض النسخ الخطية من الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، وهو من بقية مشاهير مفسري القرن السابع الهجري⁽¹⁾.

وقد كان للأستاذ محمد الببلاوي شرف إحياء هذا التفسير الممتاز الذي ذاعت شهرته بين علماء الإسلام، إذ اقترح على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية طبعه ونشره، ورغب إليه في القيام بمراجعته وتصحيحه⁽²⁾. وقد اشترك في تحقيقه في طبعته الأولى مع الأستاذ أحمد عبد العليم البردوني بعد جزئه الرابع أصحاب الفضيلة: الشيخ إبراهيم أطفيش، والشيخ بشندي خلف الله، والشيخ محمد محمد حسنين⁽³⁾. أما الطبعة الثانية فقد اشترك في تحقيقها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، والأستاذان أحمد البردوني ومصطفى السقا. وكان للشيخ أطفيش الفضل الكبير في إخراج هذا التفسير القيم إلى حيزي الوجود، وتمكين المسلمين من الاستفادة منه، إذ حقق منه أحد عشر جزءاً، تبدأ من الجزء الثالث، وتنتهي بالجزء الثالث عشر. أما الأستاذ البردوني فقد حقق سبعة أجزاء: الجزأين الأول والثاني، ثم من الجزء الرابع عشر إلى الجزء الثامن عشر. والجزآن الأخيران حققهما الأستاذ السقا. وتتفق الأصول التي اعتمدا عليها في تحقيقهم على النسخ الخطية رقم (95) و (283) تفسير بالدار. و(1) تفسير في مكتبة حلیم. باستثناء الأجزاء من الخامس عشر إلى الجزء العشرين، فإنها تنقصها النسخة رقم (283). ويضاف إلى هذا الأصول نسخ خطية أخرى، وصفت جميعها في مقدمة الجزء الثالث من التفسير في طبعته الثانية. أما عن المنهج الذي اتبعه هؤلاء المحققون، فإننا نوجزه فيما يلي، تسجيلاً لفضلهم، وتقديراً لجهودهم العظيمة، فهم قد أضفوا على التفسير ما يشد اهتمام

(1) كتاب الضياء المنتشر في وفيات أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر / محمد بن محمد بن عبد الله ص 322 طبعة سنة 1349 هـ.

(2) مقدمة تفسير القرطبي / الطبعة الأولى.

(3) مقدمة التفسير - الطبعة الثانية (هـ) سنة 1372 هـ / 1952 م.

القراء إليه، ويحفزهم إلى المزيد من دراسته والاطلاع عليه، إلى جانب ما بذله فيه مؤلفه من جهد كبير، وما عرضه من معلومات يحتاج إليها كل من أراد أن يعرف شيئاً عن: التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ. وكان من منهجهم في التحقيق أنهم كانوا يقومون بذكر أسماء الشعراء الذين لم يذكرهم المؤلف ويصوبون - أحياناً - ما يذكره خطأ منها، ويتممون صدر البيت أو عجزه حين يكتفي المؤلف بذكر أحدهما، ويبينون مناسبات ما يستشهد به من الأبيات الشعرية، ذات الاتجاهات المتعددة، وفي عصور مختلفة، ويشرحون ما فيها من كلمات مبهمة، ويضعون علامات الشكل على الأعلام أو الكلمات التي تحدث التباساً عند القارئ. كما أنهم يترجمون لتلك الأعلام أو يشيرون إلى الذين ترجموا لهم في كتب التاريخ والتراجم. وذلك كله في هامش التفسير.

وإذا وجد في الأصول التي يعتمدون عليها في تحقيقهم فراغ، ربما حدث من نسيان النسخ أو أن الظروف البيئية وعوامل الإهمال وعدم الاكتراث ساعد على انطماسها أو كشطها، فإننا نراهم يضعون كلمة أو عبارة تناسب مع السياق أو المعنى الوارد في التفسير. كما أنهم يقارنون بين النسخ الخطية من التفسير التي عثروا عليها، ويرجعون إلى كتبه كالتذكرة، ومؤلفات الآخرين في التفسير والحديث والنحو واللغة والتاريخ - لتصويب ما يصعب تصويبه من الأصول المعتمدة - ولا سيما المؤلفات التي يكثر المؤلف النقل عنها كتفسير ابن عطية الأندلسي وابن العربي والاستيعاب لابن عبد البر وغيرها، أو المؤلفات التي نقلت عنه كتفسير ابن عادل والعلامي وسليمان الجمل، والخطيب الشربيني. وعن المسؤولية التي أنيطت بهم تجاه تحقيق تفسير القرطبي يحدثنا الشيخ المحقق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش عن ذلك فيقول:

وقد «رجعنا إلى كتب التفسير والقراءات وكتب الحديث والإعراب التي رجع إليها المؤلف وغيرها كثير. وبخاصة تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) فإن المؤلف كثير النقل عنه. وقد راعينا قراءة نافع التي جعلها المؤلف أصلاً غالباً كسائر علماء

المغرب، أما الآيات بالحرف الكبير فقد اعتمدنا في رسمها على قراءة عاصم برواية حفص طبقاً للمصحف الذي قامت بطبعه الدار.

وقد أشرنا إلى صفحات الآيات التي استشهد بها القرطبي ومواقعها من أجزاء التفسير، تسهيلاً للرجوع إليها، واستكمالاً للبحث⁽¹⁾.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نسجل للمحققين أنهم قد اتصفوا بالأمانة العلمية، والصراحة في القول، التي هي من أوجب ما يوجب منهج التحقيق العلمي السليم. فما لم يعثروا عليه مما ذكره المؤلف ويريدون تحقيقه قالوا عنه: إننا لم نهتد إليه، أو لم نتمكن من العثور عليه، ذلك أن التحقيق نتاج خلقي، لا يقوى عليه إلا من وهب خلتين شديديتين: الأمانة والصبر، وهما ما هما!!⁽²⁾ فهم لم يتصرفوا فيما لاحظوه على التفسير من عثرات وبعض الروايات الضعيفة التي اكتفوا بالتنبيه عليها في الهامش، وبيّنوا وجه الصواب فيها. وبذلك حققوا الأمانة وأدوا واجب العلم. والذي يؤيد هذا ويدعمه، هو أن القرطبي حينما ذكر روايات مرفوضة شرعاً وعقلاً - كالتي تحدثنا عنها سابقاً - علق المحقق أحمد البردوني بقوله:

«يلاحظ أن المؤلف - رحمه الله - خرج عما سنه في مقدمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذي لا يتمشى مع روح الدين الإسلامي»⁽³⁾ كما أننا نجده يعلق على قول القرطبي: «وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات أي الحروف»⁽⁴⁾ فيذكر أنه لم ير التعبير عن الشبهة بمعنى الحرف لغيره، وقد سبق التعبير به في الجزء الأول صفحة (16) ولا شك أن هذا يدل على أن القرطبي كان له إدراك لغوي عظيم، ينتقي المفردات اللغوية ويختارها من تلك المعاجم التي استفاد منها، وساعدته على تكوين

(1) الجامع لأحكام القرآن - مقدمة الجزء الثالث (ص).

(2) عبد السلام هارون / تحقيق النصوص ونشرها - الطبعة الثانية 1385 هـ - 1965 م ص 44، 45.

(3) الجامع ج 1 256 (هامش) وراجع أيضاً في هذا السياق ج 11 169، ح 15 166.

(4) ج 1 67 باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف.

شخصيته اللغوية. وربما أن بعضها قد ضاع في غمار المحن والفتن التي مرت بالمسلمين، فلم يعثر عليها المحقق حين كان يبحث عن الحرف بمعنى الشبهة. ولعل القرطبي قد نقل ذلك المعنى من معجم (المحكم) لابن سيده الأندلسي الذي يقع في نحو عشرين جزءاً، ويقال أنه قد بدىء في تحقيقه بالكويت وهو من المعاجم اللغوية المهمة التي ينقل عنها. أما ما عثرنا عليه من معاني الحرف فهو «أن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء وعلى الكلمة وعلى المعنى وعلى الجهة. قاله ابن سعدان النحوي»⁽¹⁾.

والآن ننتقل إلى الأمثلة العملية لجهد المحققين، فنذكر ثلاثة أمثلة تزكي ضخامة مسؤوليتهم، وسلامة منهجهم. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾⁽²⁾ يقول الإمام القرطبي في المسألة الرابعة: «قال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ الآية، وقوله: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾⁽³⁾، وقوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾⁽⁴⁾.

وقال سلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً	أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الدنيا فما باله	يستمنح الناس ويسترفد
والرزق مقسوم على من ترى	يناله الأبيض والأسود

بعد ذلك علق المحقق البردوني عن (سلم بن عمرو) و(يناله) فقال عن الأول: «كذا في الأصول: والصحيح أن الأبيات للجماز، وهو ابن أخت سلم بن عمرو

(1) السيوطي / الانتقاء في علوم القرآن ج 1 57 .

(2) البقرة الآية 44 .

(3) الصف الآية 2 .

(4) هود من الآية 88 .

الخاسر. يراجع الأغاني (حـ 764) طبع دار الكتب المصرية» وعن الثاني قال: «كذا في الأغاني. وفي الأصول: (يسعى له)⁽¹⁾. وحين ذكر الإمام القرطبي قوله ﷺ: (لو مد لنا الشهر لواصلنا وصلاً يدع المتعمقون تعمقهم)⁽²⁾ أسند المحقق الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش هذا الحديث إلى مصادره فقال: «الحديث ذكر في صحيح مسلم في (كتاب الصوم. باب النهي عن الوصال في الصوم)⁽³⁾ وصحيح البخاري في (كتاب الاعتصام. باب ما يكره من التعمق والتنازع)⁽⁴⁾ ... الخ»⁽⁵⁾.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضحاها﴾⁽⁶⁾ يقول القرطبي: «والضحأ: مؤنثة. يقال ارتفعت الضحأ، (وهي) فوق الضحو وقد تذكر» ويعلق المحقق مصطفى السقا عن كلمة (الضحو) فيقول: «كذا في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي. وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل: (فوق الصخور) تحريف. يريد أن الضحأ: أشد ارتفاعاً من الضحو والضحوة (كما في اللسان: ضحأ)⁽⁷⁾. بالإضافة إلى ذلك زيادة كلمة (هي) التي بين قوسين من المحقق وهذا مما يقتضيه سياق العبارة. وفي الوقت الذي نقدر فيه الجهد العظيم الذي بذله المحققون، فإننا ينبغي أن نذكر أنه قد فاتهم أن يصححوا آية من سورة (ق) وردت - خطأ - في موضعين من التفسير. الأول في الجزء الثالث عشر صفحة (15) وقد حققه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش.

(1) الجامع جـ 1 ص 367 (هامش).

(2) حـ 12 ص 165 .

(3) المنذري / مختصر صحيح مسلم جـ 1 ص 160 لم يذكر الحديث السابق بلفظه، وإنما ذكر بلفظ آخر.

(4) أنظر صحيح البخاري جـ 3 ص 48، 49 جـ 9 ص 119 طبعة دار الشعب - ورد بلفظ مشابه لما ورد في صحيح مسلم.

(5) الجامع جـ 12 ص 165 (هامش).

(6) الشمس الآية 1 .

(7) جـ 20 ص 73 (هامش).

والثاني في الجزء السابع عشر صفحة (6) وحققه الأستاذ أحمد عبد العليم البردوني. والآية التي نحن بصدد الحديث عنها هي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مَاءً مَبْرُكًا فَسَأَبْنَا بِهِ جَنَاتٍ وَحُبِّ الْحَمِيدِ﴾⁽¹⁾ فالذي ورد في الموضعين السابقين ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ بزيادة ألف مهموزة. وهذه الآية قد اتفقت على قراءتها على الوضع المذكور قراءتا نافع⁽²⁾ وعاصم برواية حفص⁽³⁾ وغيرهما⁽⁴⁾.

ولما انتهى المحققون من تحقيقهم لتفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، وتم طبعه في دار الكتب المصرية في عشرين جزءاً، استقبله المهتمون بالدراسات الإسلامية في العالم الإسلامي بالبشر والغبطة، لما فيه من البحوث القيمة في شتى علوم الشرع والعريية. ومن هؤلاء الشيخ محمد بهجت البيطار الذي اطلع عليه وأعد دراسة عنه، بين فيها خصائصه، ومنهج مؤلفه فيه، وملاحظاته على القائمين على تحقيقه. وقد جاء في تلك الدراسة قوله:

«كنا نسمع بهذا التفسير الجليل، قبل أن نراه، فلما طبع أقبلنا عليه نتصفح أجزاءه، لنقف على خصائصه ومزاياه، فرأينا منها ما يأتي:

1 - أن أول ما يتجلى للناظر فيه كون الآيات الكريمة مطبوعة بحرف كبير، يميزها عن سطور التفسير، مشكولة شكلاً تاماً، معدودة بالأرقام، وهذا الشكل التام شامل لآيات الشواهد أيضاً.

2 - جدة الحروف، وجودة الورق، وجمال الطبع والفصل بين الجمل بأنواع

(1) ق الآية 2 .

(2) أنظر المصحف الشريف الذي طبعته ونشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة 1930 م السورة رقم (50) الآية رقم 9 .

(3) أنظر المصحف الشريف الذي التزمت بنشره مكتبة القاهرة السورة (50) الآية (9) بمصر 1375 هـ . 1956 م.

(4) أنظر حجة أبي زرعة ص 677 .

الفواصل، التي تعين القارئ على صحة اللفظ وفهم المعنى»⁽¹⁾ ثم يواصل حديثه عن الجامع من الناحية الشكلية فيقول: «أما ملاحظتنا على هذا التفسير الجليل فمنها: 1- أنه كان من تمام الاتقان أن يوضع في رأس كل صفحة خلاصة ما تضمنته، علاوة على ذكر الجزء واسم السورة، ليكون المطالع على علم مجمل بها قبل قراءتها. 2- أن توضع فهرس في أواخر الأجزاء، مرتبة على حروف الهجاء، تذكر فيها أسماء الأعلام، وأوائل الآيات، وأهم ما فسر في التعليقات ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة»⁽²⁾.

وقبل أن نغادر هذا المجال الرحب من الحديث عن تفسير القرطبي ووصف نسخه الخطية هنا وهناك، نرى أنه من الضروري - وفقاً للمنهج العلمي الدقيق - أن نسجل أننا قد بذلنا جهداً سخياً، وبحسناً بصبر وأناة، وسألنا بعض المحققين والمتخصصين في الدراسات الإسلامية وغيرها، من أجل الحصول على المراجع التي تحدثت عن القرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن بلغات أجنبية، فلم نظفر بسوى تأريخ الأدب العربي لمؤلفه كارل بروكلمان، وهو باللغة الألمانية، وقد ترجم الدكتور عبد الحليم النجار ثلاثة أجزاء منه. أما ما يتعلق بموضوعنا فقد قام بترجمته الدكتور عبد الرحمن بدوي.

هذا وقد كلفت من قام - مشكوراً، مأجوراً - بالبحث في مكتبة (الكونجرس) بوشنطن، بمساعدة موظفي:

- قسم المراجع - Reference - Department
 - قسم الاستشراق - Orientalia - Division
 - فرع الشرق الأدنى - Near East - Section
- ولم يستطع العثور على أي موضوع بأية لغة أجنبية عن القرطبي أو كتابه

(1) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق / المجلد العشرون ص 562 - 563 سنة 1364 هـ - 1945 م.

(2) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ص 562, 563 .

الجامع، وكاد أن يجزم بعدم وجود شيء كتب عنه أو عن كتابه في العالم، إذ لو وجد لوجد في مكتبة (الكونجرس) ومن أهم المراجع التي قام بالبحث فيها عن ذلك فهرس الإسلاميات (Index - Islamtous) علماً بأن هذا الفهرس يتناول الفترة ما بين (1906 م - 1965 م) الذي هو فهرست الموضوعات التي كتبت عن الموضوعات الإسلامية في المجلات والمطبوعات الجامعة.

Acatalogue of Articles on Islamic Subjects in Periodicals and other Collective Publications. Compiled by J. D. Pearson, M. A.

أما مصادر القرطبي في تفسيره، فإن الباحث حين يدرسه بأجزائه العشرين، تملك نفسه الدهشة لتلك المؤلفات الضخمة التي اطلع عليها، قبل تصنيفه لكتابه هذا، واستفاد منها فائدة عظيمة، إذ نقل عنها كثيراً في شتى موضوعات الثقافة الإسلامية وفروع اللغة العربية وغيرها. ونلاحظ أنه حينما ينقل عن غيره، فإنما ينقل بأمانة ونزاهة حيث ينسب ما ينقله لقائله، وفاء بشرطه الذي أخذه على نفسه في مقدمة تفسيره، إذ قال: «وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله»⁽¹⁾. وإن كان صاحبنا يكثر من النقل - كما قلنا - فهو يحسن في أغلب الأحيان - ما ينقله عن أئمة العربية وعلماء الإسلام، كما قال صاحب شذرات الذهب⁽²⁾. كما نلاحظ عند نقله أن شخصيته الفكرية والفقهية تبرز واضحة، فهو ينقد ويستحسن ما ينقله، مؤيداً ومدعماً ذلك بالأدلة النقلية والعقلية. كما سنعرف ذلك في الباب الخامس (القرطبي الناقد).

ونذكر فيما يلي بعض المصادر التي استقى منها القرطبي ثقافته الواسعة، ومعرفته الرائعة التي بثها في كتبه، واعتمد عليها في تصنيفه، وكانت خاتمة مسكها كتابه: الجامع لأحكام القرآن. كما سنذكر - أيضاً - نماذج - من تلك المصادر لمعرفة

(1) الجامع - المقدمة ج 1 ص 3 .

(2) ج 5 ص 335 طبعة سنة 1351 هـ.

كيفية نقله عنها، ومقارنتها بالنصوص التي وردت فيه.
وهذه المصادر تشمل كتب التفسير والقراءات والحديث، والفقه، والنحو،
واللغة، والتوحيد، والتصوف، والأخلاق، والسيرة والتاريخ والتراجم.

أولاً: كتب التفسير:

- 1 - الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي (481 هـ - / 546 هـ) - المحرر
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وهو لا يزال مخطوطاً.
- 2 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224 هـ، 839 م / 310 هـ، 922 م)
جامع البيان في تأويل القرآن. وقد تم طبعه.
- 3 - القاضي أبو بكر محمد بن العربي الأندلسي المتوفي سنة 543 هـ - أحكام
القرآن حقه علي محمد البجاوي وجعله أربعة أقسام.
وكذلك كتاب أحكام القرآن لكل من:
أبي عبدالله محمد بن خوزمنداد - أبي بكر الرازي الحنفي - الكيا الطبري -
ابن بكير القاضي إسماعيل - علي بن موسى القمي الحنفي.
- 4 - جار الله محمود الزمخشري 467 هـ، / 538 هـ، 1143 م. الكشاف عن
حقائق التنزيل - طبع -.
- 5 - أبو بكر محمد بن محمد الحسن الجويني الشافعي الأشعري - النكت من
التفسير.

ثانياً: كتب علوم القرآن:

- 1 - أبو جعفر النحاس - معاني القرآن.
- 2 - أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق - معاني القرآن.
- 3 - أبو جعفر النحاس - الناسخ والمنسوخ.
- 4 - أبو عبيد القاسم بن سلام - الناسخ والمنسوخ.

5 - أبو حفص عمر بن شاهين - الناسخ والمنسوخ.

6 - أبو جعفر النحاس - اعراب القرآن.

7 - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (271 هـ / 328 هـ) - الرد على من

خالف مصحف عثمان.

8 - أبو محمد مكي بن أبي طالب الحموي القيسي ت 437 هـ - كتاب الرعاية

لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة - 4 أجزاء.

9 - أبو عبيد القاسم بن سلام - فضائل القرآن.

ثالثاً: كتب القراءات:

1 - أبو عبيد القاسم بن سلام - كتاب القراءات (المقصور والممدود)⁽¹⁾.

2 - أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (المتوفي 444 هـ) - كتاب البيان.

3 - أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري المتوفي 478 هـ - سوق

العروس.

رابعاً: كتب الحديث:

1 - صحيح البخاري (194 هـ / 256 هـ) ومسلم (المتوفي 261 هـ) وسنن ابن

ماجه (207 هـ / 275 هـ) وأبي داود (المتوفي 275 هـ) والترمذي (المتوفي 279 هـ)

والنسائي (المتوفي 303 هـ) - طبعت -

2 - الإمام مالك بن أنس (95 هـ / 179 هـ) - الموطأ - طبع ..

3 - أبو عبدالله المازري (المتوفي 536 هـ) - المعلم في شرح كتاب مسلم.

4 - أبو عبدالله الحميدي الأندلسي (المتوفي سنة 491 هـ) - الجمع بين

الصحيحين (البخاري ومسلم).

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 3 ص 227 ط 1948 م.

5 - أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (المتوفى 652 هـ) - المفهم في شرح صحيح مسلم.

6 - الإمام أحمد بن حنبل (164 هـ / 241) - المسند.

خامساً: علوم الحديث:

- 1- أبو عمرو عثمان بن الصلاح (577 هـ / 643 هـ) - علوم الحديث (المعروف بمقدمة ابن الصلاح في علم الحديث). - طبع -
- 2- أبو جعفر الطحاوي (239 هـ / 321 هـ) - مشكل الحديث - طبع
- 3- ابن الحصار - كتاب شرح السنة.
- 4- عثمان الشهرزوري - كتاب معرفة أنواع علم الحديث.
- 5- الحاكم أبو عبدالله - علوم الحديث.
- 6- عبد الرحمن بن أبي حاتم - كتاب الجرح والتعديل.

سادساً: كتب الفقه الإسلامي: -

- 1- أبو الوليد سليمان الباجي (403 هـ / 494 هـ) - المنتقى شرح موطأ مالك. طبع -
- 2- أبو بكر بن العربي - القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس.
- 3- أبو عمر يوسف بن عبد البر (363 هـ / 463 هـ) - كتاب الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة.
- 4- أبو عمر يوسف بن عبد البر - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.
- 5- أبو الحسن اللخمي المالكي - كتاب التبصرة.
- 6- أبو إسحاق الشيرازي (المتوفى 476 هـ / 1558 م) - كتاب التنبيه على مذهب الإمام الشافعي.

سابعاً: كتب النحو واللغة:

- 1- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (المتوفي حوالي 180 هـ) - الكتاب جزآن.
- 2- أبو نصر الجوهري (المتوفي سنة 398 هـ) - تاج اللغة وصحاح العربية - طبع -
- 3- علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده الأندلسي (المتوفي سنة 458 هـ) - المحكم.
- 4- أبو الحسين أحمد بن فارس - المجمل، طبع الجزء الأول منه بالقاهرة في مطبعة السعادة سنة 1331 هـ⁽¹⁾.
- 5- الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 هـ / 175 هـ) - كتاب العين - طبع -
- 6- يعقوب ابن السكيت - الإصحاح.
- 7- ابن الأنباري - كتاب الزاهر.
- 8- أبو عبيد معمر بن المثنى - كتاب المجاز.
- 9- أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري - كتاب التلخيص.

ثامناً: كتب علم الاعتقاد الإسلامي: -

- 1- القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفي سنة 403 هـ) - كتاب التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة حققه محمود الخضيرى ومحمد أبو ريد (1366 هـ / 1947 م) القاهرة وكذلك حققه رتشرد يوسف اليسوعي 1957 م بيروت.
- 2- القاضي ابن الطيب الأشعري المالكي - الهداية.
- 3- أبو حامد محمد الغزالي (450 هـ، 1058 م / 505 هـ، 1111 م) -

(1) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ج 1 ص 21 - 42 .

الاقتصاد.

- 4 - أبو منصور الماتريدي (المتوفي سنة 333 هـ) - العقيدة.
- 5 - ابن رشد - مقدمات أبي الوليد بن رشد.
- 6 - الإمام أبو الحسن شبيب بن إبراهيم بن حيدرة - حز الغلاصم في افحام
المخاصم.
- 7 - الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي الفقيه الأصولي الشافعي (المتوفي 429 هـ) - كتاب الإمامة.
- 8 - أبو منصور التيمي البغدادي - كتاب الفرق.
- 9 - أبو القاسم عبد الرحمن بن منده - كتاب التوحيد.
- 10 - الحسين الحلبي (المتوفي سنة 403 هـ) - منهاج الدين في شعب الإيمان.

تاسعاً: كتب التصوف والأخلاق: -

- 1 - أبو الحسن الماوردي البصري (364 هـ، 974 م / 450 هـ، 1058 م) أدب الدنيا والدين - طبع في القسطنطينية سنة 1299 هـ وفي القاهرة سنة 1344 هـ. تناول فيه فضل العقل وذم الهوى، وفي أدب العلم والدين والدنيا والنفس⁽¹⁾.
- 2 - عبد الأعلى بن عبد الله الشامي - أدب الدنيا والدين.
- 3 - الإمام عبد الكريم القشيري - التبحير في التذكير - دراسة لأسماء الله الحسنى وصفاته. طبع سنة 1968 م، وحققه د. إبراهيم بسيوني.
- 4 - الطبري - آداب النفوس.
- 5 - أبو الفرج بن الجوزي - كتاب روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق.
- 6 - أبو حامد الغزالي - كتاب كشف علوم الآخرة.

(1) ادوارد فنديك - اكتفاء القنوع بما هو مطبوع 341، 342 طبعة سنة 1313 هـ - سنة 1896 م بمصر.

7- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (260 هـ / 360 هـ) - كتاب مكارم الأخلاق.

8- علي بن معبد - كتاب الطاعة والمعصية.

عاشراً: كتب السيرة والتاريخ والتراجم: -

1- ابن عبد البر - كتاب الصحابة.

2- ابن عبد البر - كتاب الإستهباب في أسماء الأصحاب. طبع سنة (1358 هـ - 1939 م)

في هامش كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (773 هـ - 852 هـ).

3- ابن عبد البر - كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير حقه د. شوقي ضيف. ونشرته لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة. (1386 هـ / 1966 م).

4- محمد بن سعد الواقدي المتوفي سنة 230 هـ - طبقات ابن سعد - طبع -

5- أبو القاسم بن عساكر الدمشقي (499 هـ، 1105 م / 571 هـ، 1175 م) تأريخ مدينة دمشق الشام. وهذا الكتاب «ثمانمائة جزء في ثمانين مجلداً. لم يطبع وهو كتاب مطول جداً سلك فيه المؤلف مسلك المحدثين من ذكر الرواة»⁽¹⁾ «أتى فيه بالعجائب وهو على نسق تاريخ بغداد»⁽²⁾.

6- سيرة ابن إسحاق - طبعت -

7- إبراهيم بن القاسم الكاتب - عجائب البلاد.

8- تأريخ مصر.

9- تأريخ فتح الأندلس.

(1) ادوارد فنديك - اكتفاء القنوع، صححه محمد البلاوي ص 92 .

(2) ابن خلكان - وفيات الأعيان - ح 2 ص 471 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة سنة 1948 م - مطبعة السعادة.

الحادي عشر: كتب ثقافية عامة: -

- 1- ابن عبد البر - كتاب جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله طبع سنة 1330 هـ بالقاهرة في سنة 1388 هـ / 1968 م في طبعته الثانية.
- 2- أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي ولادته (حوالي 508 هـ / 597 هـ) كتاب تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار طبع في ألمانيا سنة 1893 م⁽¹⁾ .
- 3- القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (المتوفي 544 هـ / 1149 م) كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى. له شرحان مطبوعان:
الأول: طبع سنة 1290 هـ (جزآن).
الثاني: طبع سنة 1267 هـ (4 أجزاء)⁽²⁾ .
- 4- أبو طالب محمد بن علي المكي المتوفي 386 هـ - قوت القلوب - طبع في 4 أجزاء سنة 1351 هـ / 1932 م المطبعة المصرية - القاهرة.
- 5- الزمخشري - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. طبع في القاهرة سنة 1292 هـ⁽³⁾ .

وغير ذلك من عشرات المؤلفات والمراجع التي أسهمت في تكوين شخصية القرطبي العلمية، والتي قد تم طبع بعضها، ولا زال بعضها الآخر مخطوطاً، أو مطبوعاً ومفقوداً بالنسبة لنا إلى الآن.

ونكتفي بما ذكرناه من الكتب والمؤلفات، لأن المقام لا يسع لذكرها جميعاً، وهي تدل على يقظة القرطبي الفكرية ونشاطه العلمي الرائع الذي نتمتع به الآن، ومجهوده العظيم الذي بذله سخيّاً ابتغاء مرضاة الله تعالى.

(1) فنديك - اكتفاء القنوع ص 108 .

(2) المرجع السابق ص 130 .

(3) المرجع السابق ص 343 .

والآن بعد عرضنا لبعض المصادر والمراجع التي كان لها أثرها البالغ على شخصيته الثقافية، نرى أن المنهج العلمي يفرض علينا التحقيق والتمحيص لما نقله المؤلف من هذه المصادر فنعرض - بشيء من الإيجاز - للمقارنة بين النصوص التي ذكرها في جامعہ، ونقلها من مصادر قد تم طبعها أو لا زالت مخطوطة مما يسهل الرجوع إليها، لنعرف إلى أي حد يتصرف في نقله عن سبقه من المفسرين والمحدثين والفقهاء. وهل كان ينقل النص كله، أم أنه كان يكتفي بالمعنى. فمن ذلك أنه أورد حديثاً قال عنه: (وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله ﷺ البخيل والمتصدق كمثلي رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقبهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما تصدق بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيت يوسعها ولا توسع) (1).

وحيثما راجعت صحيح البخاري، الجزء السابع باب (جيب القميص من عند الصدر وغيره) صفحة (185) طبعة دار الشعب، وجدت أن هذا الحديث الذي ذكره القرطبي في تفسيره لا يختلف مع البخاري في روايته سنداً وامتناً. وكذلك الحال بالنسبة لصحيح مسلم (2).

وفي باب (التنبه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره) قال القرطبي: «قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له: وهكذا حال الحديث الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع عليه ليين. وقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من

(1) الجامع ج 10 ص 250 .

(2) راجع صحيح مسلم بشرح النووي ح 7 ص 107، 108 باب (مثل المنفق والبخيل) طبعة محمود الكتبي - القاهرة.

المفسرين في إيداعه تفاسيرهم»⁽¹⁾ .

ولما تصفحت كتاب «التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح» للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (725 هـ - 806 هـ) الذي حققه الأستاذ عبد الرحمن محمد عثمان وطبع بمطبعة العاصمة - الطبعة الأولى 1389 هـ / 1969 م صفحة (134) ، وقد جعلت مقدمة ابن الصلاح متناً لهذه الطبعة، لما تصفحت ذلك الكتاب وجدت أن هناك اختلافات بسيطة بين ما أورده القرطبي ونسخة الكتاب المذكور. فما نقله المؤلف من مقدمة ابن الصلاح وجاء فيه الاختلاف بقوله: «في فضل القرآن سورة سورة» وعند ابن الصلاح زيادة حرف الفاء لكلمة (سورة) الثانية. وزاد المؤلف حرف (قد) عن الكلام المنقول. كما أن هناك تقدماً وتأخيراً بين المصدرين، فالقرطبي يقول: «وإن أثر الوضع عليه لبين» وعند ابن الصلاح «وإن أثر الوضع لبين عليه» وزاد ابن الصلاح حرف اللام على «قد» وحذفت من عبارة القرطبي المنقولة عن مقدمة ابن الصلاح لفظة «والله أعلم».

وكذلك فإن المؤلف قد نقل هذا النص بتمامه في كتابه التذكار في أفضل الأذكار⁽²⁾ . وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾⁽³⁾ يورد القرطبي حديثاً يقول فيه رسول الله ﷺ: (إياكم والجلوس على الطرقات) فقالوا يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال: (فإذا أبيتتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه) قالوا وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: (غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) رواه سعيد الخدري خرجه البخاري ومسلم⁽⁴⁾ .

وعندما حققت هذا الحديث وجدته في مختصر صحيح مسلم، لمؤلفه عبد

(1) - ح 1 ص 73، 79 .

(2) أنظر ص 155 .

(3) النور من الآية 30 .

(4) ج 12 ص 223 .

العظيم المنذري - شيخ القرطبي - على النحو التالي: (في باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إياكم والجلوس في الطرقات) قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا، نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: (فإذا أبيتتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه) قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)⁽¹⁾. وبالمقارنة نلاحظ أنه ليس هناك فرق شاسع بينهما مما يستدعي ضرورة التنبيه عليه.

وفي حديثه عن فضل سورة البقرة ينقل عن ابن عبد البر قوله: (وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر: وكان لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشدته، فقرأ سورة البقرة، فقال إنما سألتك عن شعرك؟ فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد أن علمني الله (البقرة وآل عمران)، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة. وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال ابن عبد البر: وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفثة السلولي، وهو أصح عندي. وقال غيره: بل البيت الذي قاله في الإسلام:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح⁽²⁾

أما ما جاء في ترجمته من كتاب (الاستيعاب في أسماء الأصحاب) لابن

(1) مختصر صحيح مسلم تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ج 2 ص 134 - الطبعة الأولى 1388 هـ / 1969 م طبعة الكويت.

(2) الجامع ج 1 ص 153 .

عبد البر القرطبي فهو قوله: «ليبد بن ربيعة العامري الشاعر أبو عقيل قدم على النبي ﷺ مع وفد قومه بنو جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فأسلم وحسن إسلامه. وهو ليبد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة روى عن عبد الملك بن عمير عن أبي مسلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة ليبد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)⁽¹⁾ وهو شعر حسن فيه ما يدل على أنه قاله في الإسلام والله أعلم وذلك قوله: وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل

وقد قال أكثر أهل الأخبار: إن ليبدأ لم يقل شعراً منذ أسلم. وقال بعضهم لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفثة السلولي وهو أصح عندي وسيأتي في موضعه في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى⁽²⁾. وقال غيره: بل البيت الذي قاله في الإسلام قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح⁽³⁾

ويلاحظ على هذه النقول أن هناك اختلافاً كبيراً بين النصين، حيث لم يرد عند ابن عبد البر موضع استشهاد القرطبي بكلامه، وهو فضل سورة البقرة بالإضافة إلى وجود الحذف والزيادة والتقديم والتأخير بينهما. وهذا لا يقدر في أمانته العلمية، وموضوعيته التي عرفت عنه. فهو ربما نقل بتصريف، أو نقل من نسخة تختلف عن النسخة التي تم طبعها، ذلك لأنه قد ألف بعض المؤلفين المسلمين كتابة عدة مسودات لكتابه قبل أن يستقر رأيه على صورته النهائية. وفي هذا المعنى نجد المحدث

(1) أنظر مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 157 - البخاري ج 8 ص 43 .

(2) ربما يريد القول بأنه سبق التنبيه إليه، إذ ذكره في ص 259، 260 من الجزء الثالث. فليراجع.

(3) الاستيعاب ج 3 ص 306، 307 طبعة المكتبة التجارية - القاهرة 1358 هـ / 1939 م.

ابن حجر العسقلاني (773 هـ - 852 هـ) يقول في نهاية الجزء الثالث من كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) «وكتبته في المسودات ثلاث مرات من أجل الترتيب الذي اخترعته وهذه المرة الثالثة وقد خرجت النسخة مسودة أيضاً لكثرة الإلحاق»⁽¹⁾.

وكذلك نقل عن كتابه (جامع بيان العلم وفضله) في مواضع من تفسيره⁽²⁾. ومن المفسرين الذين أثروا فيمن جاء بعدهم ابن العربي صاحب تفسير (أحكام القرآن) الذي «اقتبس منه العلماء الأجلاء، واعتمدوا عليه في تأييد حججهم، بل إن بعضهم - مثل القرطبي - ينقل فقرات كاملة، وينسبها إلى ابن العربي في موضع الاحتجاج، ويكثر من ذلك حتى لا تكاد تخلو صفحة من مثل ذلك»⁽³⁾ ففي فضل سورة الفاتحة ينقل عنه قوله ﷺ: (ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها)⁽⁴⁾ أما عند ابن العربي في أحكامه فقد اختلف النص المنقول اختلافاً يدل على اختلاف النسخ التي كتبت في حياته وبعد مماته. وعنده ورد: (لأعلمنك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها)⁽⁵⁾.

وفي موضع آخر ينقل عنه معنى كلمة (أمين) فيقول: «قال قوم: هو اسم من أسماء الله، روي عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يساف ورواه ابن عباس عن النبي ﷺ ولم يصح، قاله ابن العربي»⁽⁶⁾ وورد في أحكام القرآن هذا المعنى بلفظ آخر «قيل: إنها اسم من أسماء الله تعالى، ولا يصح نقله ولا ثبت قوله»⁽⁷⁾.

(1) ص 644 طبعة المكتبة التجارية سنة 1358 هـ.

(2) أنظر مثلاً ج 1 ص 37 ، ج 8 ص 296 .

(3) علي البجاوي - مقدمة تفسير ابن العربي - القسم الأول ص 8 .

(4) الجامع ج 1 ص 110 .

(5) أحكام القرآن - القسم الأول ص 7 طبعة الحلبي 1387 هـ، في صحيح البخاري ج 6 ص 20 ورد بلفظ يختلف عن الروايتين السابقتين.

(6) الجامع ج 1 ص 128 .

(7) القسم الأول ص 6 .

أما عن ابن عطية الغرناطي - رحمه الله تعالى - فحدث عن تأثيره العظيم في شخصية القرطبي العلمية، ولا حرج، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات تفسيره أو كتابيه (التذكار والتذكرة) دون أن ينقل عنه، ويسترشد برأيه. ورغم أنه لم يعاصره، إلا أنه لم يفته أن ينال شرف التلمذة عليه - بعد وفاته - عن طريق تفسيره الرائع المسمى (المحرر الوجيز لتفسير الكتاب العزيز) الذي وصفه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بأن مؤلفه كان «أطرده نفساً، وأكثر جمعاً وتفناً، فهو وجيز باعتبار طريقة عرضه المباحث، لا باعتبار مقدار جملته»⁽¹⁾ وذلك عند سياق مقارنته، بينه وبين (الكشاف) لجار الله الزمخشري. وأورد حاجي خليفة هذه المقارنة عند الحديث عن التفسيرين: إذ «قيل: كتاب ابن عطية أقل وأجمع وأخلص وكتاب الزمخشري أخص وأغوص»⁽²⁾. وقد تحدث عنه آرثر جفري في مقدمة كتاب (مقدمتان في علوم القرآن) وهما: مقدمة كتاب المباني في نظم المعاني، ومقدمة ابن عطية بقوله: «وكان تفسيره هذا - كما هو معلوم - أصلاً لكثير مما اشتهر به القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن)»⁽³⁾.

ونقارن - الآن - بين ما نقله المؤلف عن ابن عطية من مقدمة تفسيره - المشار إليها - لنذكر الصورة الحقيقية لتأثره به، وكيفية نقله عنه. ولما كان نقله عنه كثيراً فإننا سنكتفي - على سبيل المثال - بهذين المثالين.

الأول: في باب معنى قول النبي ﷺ: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافرقوا ما تيسر منه)⁽⁴⁾ ناقش الإمام القرطبي اختلاف العلماء في المراد بالأحرف السبعة. وبين أنهم اختلفوا على خمسة وثلاثين قولاً ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي. وبعد أن ذكرها السيوطي أيضاً قال: «قد حكاها ابن النقيب في مقدمة

(1) التفسير ورجاله ص 65، 66 .

(2) كشف الظنون ج 2 نهر 1613 .

(3) المقدمتان - تحقيق جفري ص 4 طبعة الحانجي سنة 1954 م.

(4) الجامع ج 1 ص 41 - أنظر مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 322 ، البخاري ج 6 ص 228 .

تفسيره عنه بواسطة الشرف المزني المرسي فقال: قال ابن حبان: اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً⁽¹⁾ واكتفى القرطبي بذكر خمسة منها في جامع لأحكام القرآن. وفي القول الخامس يذكر: «أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى، وهي أمر ونهي ووعد وقرصص ومجادلة وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني. وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبي ﷺ، ثم قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾⁽²⁾ فكذا معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك⁽³⁾.

وعندما راجعنا مقدمة تفسير ابن عطية لنحقق النص المنقول عنه، لاحظنا اختلافاً كبيراً من زيادة وحذف، وإفراد وجمع وتذكير ألفاظ وتأنيسها. ومراعاة للدقة والأمانة العلمية التي تعلمناها من إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، نقل نص ابن عطية كما جاء في مقدمته، قال - بعد أن ذكر القول الخامس - «وهذا ضعيف لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ولا في تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة. وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبي ﷺ، ثم قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها على اختلافها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ أي على جهة وطريقة، هي شك وريب، فكذلك معنى هذا الحديث على سبعة طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك⁽⁴⁾.

(1) الاتقان ج 1 ص 60، 61 .

(2) الحج من الآية 11 .

(3) الجامع ج 1 ص 46 .

(4) مقدمتان في علوم القرآن ص 265، 266 .

ف عند المقارنة بين النصين نجد أن القرطبي قد تصرف في نقله عن ابن عطية حيث حذف بعض الألفاظ، واكتفى بذكر ما يراه موضحاً للرأي الذي يناقشه وهذا التعليل يصح لو ثبت لنا أن النسخة التي حققها آرثر جفري هي النسخة نفسها التي نقل عنها المؤلف.

الثاني: وفي باب (ذكر جمع القرآن) يقتبس صاحبنا نصاً من مقدمة ابن عطية لتفسيره دون أن يعزوه إليه، خلاف ما اشترطه على نفسه في مقدمة تفسيره، وما عرف عنه من نسبة ما ينقله لأصحابه. ولا يفهم من هذا أن القرطبي قد خان عهده ونسب نصاً لنفسه ليس من تأليفه. فمن المحتمل أن نسبته لابن عطية نسي النساخ أن يثبتوها، أو أن الله - سبحانه وتعالى - قد ألهمهما لقول ما اتفقا عليه لفظاً ومعنى. وبنينا حكمننا السابق على أساس ما هو موجود أمامنا في مقدمتي تفسيرهما. أما النص المذكور فقد افتتح به المؤلف باب (ذكر جمع القرآن) حيث قال: «كان القرآن في مدة النبي ﷺ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وفي لحاف وظُرر وفي خزف وغير ذلك»⁽¹⁾ وهنا يفصل ما بين النص لينقل عن الأصمعي معاني كلمتي: اللخاف والظُرر، فيقول: «قال الأصمعي: اللخاف حجارة بيض رفاق، واحدها لخرة، والظُرر: حجر له حد كحد السكين، والجمع ظرار، مثل رطب ورطاب، وربع ورباع، وظران أيضاً مثل صرد وصردان»⁽¹⁾ ثم يواصل الكلام «فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة (في زمن الصديق رضي الله عنه، وقتل منهم في ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة) أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما) بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبيّ وابن مسعود وزيد، فيذهب. فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، فجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضي الله عنه»⁽²⁾. فما وجدناه في مقدمة ابن عطية لا يختلف عما ذكره صاحبنا

(1) الجامع جـ 1 ص 49 .

(2) الجامع جـ 1 ص 49، 50 .

هنا، إلا في أمور يسيرة فمن ذلك أن ما بين القوسين لم يرد عند ابن عطية، وإن ذكر (زيد) قبل (ابن مسعود) وأن لفظة (إلى ذلك) بعد الفعل (فندبا).

ويلاحظ أن نقله عنه يأخذ عدة أساليب: فتارة يقول: قال ابن عطية في تفسيره، وأخرى، قال: أبو محمد عبد الحق، أو صححه، وثالثة قاله عبد الحق وإن كان يغلب عليه قوله: قال ابن عطية.

هذا، وإن كثرة النقول - عند القرطبي - لا تنقص من مكانته كعالم وفقه ومفسر لكلام الله تعالى، ويبدو أن هذه عادة توارثها الخلف عن السلف. فهو بهذا العمل قد قدم لنا مجموعة ضخمة من آراء علماء الإسلام في فروع القرآن واللغة العربية، والشريعة الإسلامية. والتي لولا توفيق الله إياه في مجهوداته الجبارة هذه لم تتمكن من الإطلاع عليها والاستفادة منها، وذلك لأن أكثر هذه الآراء والأفكار مبثوثة في كتب، إما لا تزال مخطوطة - لم تطبع بعد - وإما قد ساعدت خطوب الزمان ومدلهماتة على فقدانها وضياعها إنها «ثروة وذخيرة تنبئ عن همة أسلافنا، مهما يتضايق المعاصرون الذين لا ينهض استعدادهم للتنقيب عنها. ثروة تركها لنا الأقدمون - وكم تركوا من ثروات ضاع أغلبها مع الأسف - ومن واجبتنا نحن أن نعتر بهذه الثروة، ونحافظ عليها، ونحاول أن نجلوها ونصفيها، ونزيل عنها بعض ما يشوبها، ونحسن تقديمها. بعد أن سهل الاطلاع وسهلت الطباعة»⁽¹⁾. إنها أمانة في أعناقنا ومسؤولية عظيمة يجب أن نؤديها بكل صدق وإخلاص، ابتغاء مرضاة الله تعالى.

(1) الشيخ عبد المنعم النمر: ابن جرير الطبري مجلة العربي الكويتية ص 19 العدد (129) 1389 هـ / 1969 م.

الباب الرابع

منهج القرطبي في التفسير القرآني

منهج القرطبي في التفسير القرآني

إن العالم الذي يريد أن يتصدى للتأليف، ويتطلع إلى أن يكون حقيقاً بحمل رسالة العلم، ومن ذويه وحماته، لا بد له - قبل البدء في التأليف - من أن يكون صورة ذهنية لما يؤلف، فيتصور موضوع بحثه، وكيفية البدء فيه، وتقسيمه إلى أبواب وفصول، وما يحتاج إليه من مصادر معتمدة تغذي عقله، وتخدم بحثه، وتدفعه نحو مصاف التأليف الإبداعي المبتكر، وتجعله واثقاً ومتحققاً مما سيقدمه لمن يأتي بعده من القراء والباحثين والمؤلفين.

وبعبارة أدق، فإن المؤلف يرسم خط سيره في الطريق الشاق، المضني، الذي سيسلكه حين يبدأ في كتابة موضوع دراسته، أي أنه يضع لنفسه منهجاً علمياً يحدد فيه الخطوات التي سيتبعها خلال تأليفه للموضوع المطروح على بساط الدراسة والبحث. والمؤلف الذي يتبع هذه السياسة المنهجية يستحق - بجدارة - أن يكون في قمة العلماء والمفكرين، أما الذي لا يهتم من التأليف سوى أن يقال عنه إنه (مؤلف كبير) أو أنه يشعر بالسعادة حين يرى اسمه على غلاف الكتاب، أو يشار إليه بالبنان، دون أن يحدد لنفسه منهجاً يسير عليه، بل يخبط خبط عشواء، فهو إنسان لا يستحق أن يكون أميناً على العلم والفكر، ذلك لأنه لم يراع الأمانة العلمية التي لا ينالها إلا من أوتي حظاً عظيماً من الصدق والإخلاص للعلم والمتعلمين.

والقرطبي - رحمة الله تعالى عليه - وهو من علماء القرن السابع الهجري لم يفته أن يتصور تصوراً ذهنياً لما تناوله بالتأليف في مجالات التفسير والقراءات واللغة والحديث، فهو يبين منهجه في مقدمة كتبه - كما أشرنا سابقاً - ويكون صادقاً ومراعياً له حين يبدأ في التأليف العملي. لهذا فإننا نلاحظه يشرق ويغرب فيما وصل

إلينا من آثاره العلمية. فإذا قابله حديث، أو أن موضوعاً معيناً قد تحدث عنه بصورة مفصلة في كتاب غير الكتاب الذي بدأ في تأليفه، فإننا نجده يحيل القارئ إلى ذلك الكتاب بقوله: وقد بسطنا القول في هذا بكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا⁽¹⁾، أو على ما بيناه في كتابنا في القراءات في باب (مخارج الحروف)، أو حسب ما ذكرناه في كتاب جامع أحكام القرآن من سورة الأعراف⁽²⁾ وسيأتي لهذا مزيد بيان في آخر سورة (مريم) إن شاء الله تعالى⁽³⁾.

فمثلاً عندما ناقش أقوال العلماء من ترك البسملة في سورة (براءة) قال: «وللعلماء من ترك البسملة في سورة براءة خمسة أقوال ذكرناها في كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآية الفرقان وذكرناها أيضاً في كتاب الانتهاز في قراء أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز»⁽⁴⁾. وعندما ذكر قوله ﷺ: (لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) قال رحمه الله: «خرجه مالك في موطنه وابن ماجه في سننه. واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري. وقد تقدم أن الميت يسمع صوته كل شيء إلا الإنسان. في رواية إلا الثقلين. والأخبار في هذا المعنى كثيرة قد أتينا على جملة منها في هذا الكتاب»⁽⁵⁾.

وحين أورد في المسألة الثالثة عند تفسير قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾⁽⁶⁾ قال: «دل - أي قوله تعالى - على أن المعلق على شرطين لا

(1) أنظر التذكار 13، 14، 98 .

(2) التذكرة 321 .

(3) الجامع ج 4 ص 61 .

(4) التذكار 22 - أنظر الجامع ح 8 ص 61 .

(5) التذكرة 275 .

(6) البقرة من الآية 81 .

يتم بأقلهما، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾⁽¹⁾، وقوله عليه السلام لسفيان بن عبدالله الثقفى وقد قال له: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) رواه مسلم⁽²⁾. وقد مضى القول في هذا المعنى وما للعلماء فيه عند قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾⁽⁴⁾.

وهكذا ينهج القرطبي هذا المنهج الدقيق في جامعه لأحكام القرآن وكتايبه (التذكار والتذكرة) وغيرها. والملاحظ عليه أن الله - جلت قدرته - قد منحه عقلية يقظة، وذكاء خارقاً، وفهماً رائعاً. وبفضل توفيق الله إياه في اتباع المنهج الذي حدد فيه معالم خطته التأليفية، فقد جاءت موضوعات كتبه منسقة، ومرتبة على أدق نظام، وجاءت أفكاره مركزة، ومدعمة - في أغلب الأحيان - بأوثق الأدلة وأصحها. ومن هنا يتضح لنا قيمة المنهج العلمي ومدى فاعليته في تقدم الحياة العلمية.

ويبدو لنا واضحاً ذلك المنهج العلمي الذي اختاره القرطبي، في مقدمة تفسيره، ففيها يستعرض منهجه الذي ضمنه حديثه عن التفسير والقراءات واللغة والنحو والأحكام الشرعية وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من الموضوعات الهامة التي لا يستغني عنها مسلم. وفي هذه المقدمة يورد لنا منهجه وخطته التي اتبعها في تفسير القرآن الكريم فيقول: -

«لما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشغل به مدى عمري وأستفرغ فيه منتي، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمن نكتاً من التفسير واللغات،

(1) فصلت من الآية 30 .

(2) الحافظ المنذري - مختصر صحيح مسلم جـ 1 ص 13 باب: في الإيمان بالله والاستقامة.

(3) البقرة من الآية 35 راجع جـ 1 ص 304 .

(4) جـ 2 ص 12 .

والاعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبيناً ما أشكل منهما، بأقوال السلف، ومن تبعهم من الخلف»⁽¹⁾.

وكان مبعث كتابته للتفسير هو تأثيره الشديد بآيات الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، اللتين تدلان في مضمونهما على التذكر والتفكير في مخلوقات الله تعالى، والعمل الدؤوب، النافع في الدنيا والآخرة. «وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملاً صالحاً بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿يَبْنِئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾⁽²⁾. وقال تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾⁽³⁾ وقال رسول الله ﷺ: (4) «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»⁽¹⁾.

ولم يكتب شيخنا - رضي الله تعالى عنه - بيان منهجه التفسيري هذا بل أضاف إلى ذلك شيئاً آخر، هو ما اشترطه على نفسه، وأخذَه على عاتقه، من نسبة القول إلى قائله، والحديث إلى مصنفه، والاضراب عن القصص والأخبار، إلا ما كان منها يوضح المعنى ويؤكدُه. «وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من أخرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن

(1) الجامع مقدمة ج 1 ص 2, 3 .

(2) القيامة الآية 13 .

(3) الانفطار الآية 5 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي ج 11 ص 85 - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 24 بزيادة (ال) بعد ثلاثة.

نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين أي الأحكام، بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد، مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب. وسميته بـ «الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان جعله الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراد به، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب»⁽¹⁾.

إننا حين نمنع النظر في منهجه وخطته التفسيرية نلاحظ أن هذا الرجل كان صاحب منهج علمي دقيق، منتهى الدقة، فهو لا يتسور على حق العلماء في مؤلفاتهم وآثارهم العلمية، بل نجده يأخذ على نفسه عهداً من أن ينسب كل ما ينقله من آراء واجتهادات إلى أربابها، وكل حديث إلى مصادره ومطانه الأصلية، حتى يعرف من لا خبرة له بعلم الحديث ومصطلحاته الصحيح من السقيم، والضعيف من القوي، والمتواتر من الآحاد، وهو في هذا لا يدعي لنفسه العلم المطلق بكل شيء، بل هو - كما يقول - يشير إلى جمل من ذلك وهذا يدل دلالة قوية على دقته وسلامة منهجه، وصدق تصويره إياه.

وسنعرض نماذج مختلفة من الأمثلة لتبيين مدى التزامه بمنهجه، وكيف طبقه عملياً حين تناول آيات الله تعالى بالتفسير والبيان، وذلك في الباب الخامس من أبواب هذا الكتاب. بالإضافة إلى ما سبق من عرض بعضها خلال دراستنا لأدوات المفسر، وما تستلزمه ضرورة الاستشهاد بها أثناء البحث كله.

بعد أن عرض المؤلف منهجه بدأ تفسيره بمقدمة حافلة بعلوم القرآن، فخصص عدة أبواب للحديث عن فضائل القرآن، وكيفية تلاوته، وتحذير أهل القرآن والعلم

(1) الجامع مقدمة جـ 1 ص 3 .

من الرياء، وما ينبغي لصاحبه أن يأخذ نفسه به ولا يفغل عنه علماً وعملاً، وما جاء في إعرابه، وثواب من قرأه معرباً، وما جاء في فضل تفسيره، وما يلزم قارئه وحامله من تعظيمه وحرمته، وما جاء من الوعيد في تفسيره بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين. ومعنى قوله ﷺ: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافرقوا ما تيسر منه) وفي جمعه وترتيب سوره وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره. وفي معنى السورة والآية والكلمة والحرف، وإعجازه، وما قيل في أعجمية بعض ألفاظه. وختم هذه الأبواب من مقدمة تفسيره بما جاء من الحججة في الرد على من طعن في القرآن، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان.

ففي باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى يذكر لنا الإمام القرطبي أحاديث رسول الله ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، كلها تبين كيف ينبغي للمسلم أن يتلو كتاب الله تعالى الذي أنزل على رسوله ﷺ هدى ورحمة للعالمين. كما أنه ناقش في هذا الباب موضوعاً يتصل اتصالاً وثيقاً بالتلاوة، وهو تحسين الصوت بالقرآن وترك الترجيع والتطريب فيه وفي باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به يتناول الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها حملة كتاب الله تعالى من الإخلاص في طلبه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومن قراءته ليلاً ونهاراً لئلا ينساه، أما في باب جمع القرآن الكريم فإنه يتحدث بشيء من البيان والتفصيل عن قصة جمعه، والدواعي التي دفعت بأمر المؤمنين أبي بكر الصديق لجمعه الأول، ثم عثمان بن عفان من بعده في جمعه الثاني. كما يبين كيفية الجمع وأسباب إحراق كل الصحف التي أصبح لا محل لها عند جمهور الصحابة لاتفاقهم الإجماعي على المصحف الإمام. وأخيراً يذكر أسماء الصحابة الذين نالوا شرف حفظ كتاب الله تعالى في عهد رسول الله ﷺ. وهكذا الحال في كل الأبواب التي قدم بها لتفسيره الجامع ينقل فيها ما يتعلق بالحديث وكلام الصحابة وآراء العلماء.

وبعد هذه المقدمة القرآنية يذكر ما قيل في (الاستعاذة) ويخصص الحديث عنها في اثنتي عشرة مسألة، ثم الكلام عن البسملة، وفيها سبع وعشرون مسألة.

ويبدو من خلال دراستي لبعض التفاسير القرآنية أن مؤلفي كتب التفسير قد ألفوا أن يقدموا لتفسيرهم بمقدمات تكاد أن تتشابه في موضوعها، وإن اختلفت طولاً وقصراً. ف نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري يفتح تفسيره المسمى بـ «تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان»، بمقدمات، منها ما هو في فضل القراءة والقارئ وأداب القراءة وجواز اختلاف القراءات وذكر القراء المشهورين المعتبرين⁽¹⁾. وفي الاستعاذة المندوب إليها في قوله عز من قائل: (2) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾⁽³⁾. وفي كيفية جمع القرآن⁽⁴⁾ ثم يتحدث عن معنى السورة والآية والحرف⁽⁵⁾، وتفسير القرآن بالرأي⁽⁶⁾. مستشهداً على كل ذلك للبيان والإيضاح - بما ورد عن رسول الله ﷺ، وما نقل عن علماء اللغة والنحو.

وابن جرير الطبري (المتوفي سنة 310 هـ) نجده يذكر في تفسيره (جامع البيان في تفسير القرآن) بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي⁽⁷⁾، وفي الحظ على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة⁽⁸⁾، ثم ذكر معنى السورة والآية⁽⁹⁾.

أما ابن عطية فإنه يكاد يكون المفسر الوحيد الذي تأثر به الإمام القرطبي وجعله قدوته في فهم كتاب الله تعالى، إذ يكثر نقوله عنه، لهذا فلا غرابة أن تأتي

(1) التفسير جـ 1 ص 7 مطبوع على هامش تفسير الطبري الطبعة الأولى بمصر سنة 1323 هـ.

(2) الاسراء الآية 98 .

(3) جـ 1 ص 12 .

(4) جـ 1 ص 23 .

(5) جـ 1 ص 26، 27 .

(6) جـ 1 ص 50 .

(7) الطبري جـ 1 ص 26 .

(8) جـ 1 ص 27 .

(9) جـ 1 ص 35، 36 .

مقدماتهما للتفسير قريبتى الشبه، بعضهما لبعض. ففي مقدمة ابن عطية - التي حققها آرثر جفري - أبواب في فضل تفسير القرآن، والكلام على لغته والنظر في إعرابه، ودقائق معانيه⁽¹⁾. وما قيل في الكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه ومراتب المفسرين⁽²⁾. وفي معنى قول النبي ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقراءوا ما تيسر منه»⁽³⁾ وفي جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره⁽⁴⁾. وفي الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق⁽⁵⁾، وفي ذكر نبذة مما قاله العلماء في إعجاز القرآن⁽⁶⁾، وفي بيان أسماء القرآن، وذكر السورة والآية⁽⁷⁾، ثم القول في الإستعاذة⁽⁸⁾ وتفسير بسم الله الرحمن الرحيم⁽⁹⁾.

فهذه الأبواب تتشابه في موضوعاتها بما ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره. وقد علمنا أن تفسير ابن عطية كان أصلاً لتفسير الجامع لأحكام القرآن، إذ اعتمد صاحبه عليه واستفاد منه، وجعله في مقدمة مصادره ومراجعته، ذلك لأن «تفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري...»⁽¹⁰⁾.

ويظهر أن اعتماد بعض كتب التفسير اللاحقة على السابقة لها أمر مألوف في حياة التفسير القرآني، حيث اعتاد مؤلفوها الاقتباس منها والاسترشاد بها. فهذا

(1) المقدمتان ص 261 .

(2) ص 263 .

(3) ص 265 .

(4) ص 274 .

(5) ص 277 .

(6) ص 278 .

(7) ص 282 .

(8) ص 285 .

(9) ص 287 .

(10) ابن تيمية - مقدمة في أصول التفسير ص 23 .

القرطبي اعتمد على تفسير ابن عطية الذي هو بدوره قد جعل تفسير (التفصيل الجامع لعلوم التنزيل) لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي «مبني تفسيره، وأكثر دوران ذكره في أثناء كلامه»⁽¹⁾. وكذلك فإن القاضي ناصر الدين البيضاوي (المتوفي سنة 696 هـ) قد اعتمد أيضاً في دراسته للقرآن الكريم لتحرير تفسيره على التفسيرين العظيمين وهما: (تفسير الكشاف على حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لأبي القاسم الزمخشري (467 هـ - 538 هـ) و(تفسير مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي (المتوفي سنة 606 هـ)⁽²⁾. أما أبو حيان الأندلسي فإن اعتماده كان على تفسيري (الزمخشري وابن عطية) إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات «البحر المحيط» من قول لأحدهما أو لكليهما⁽³⁾.

وبعد أن انتهى شيخنا القرطبي من مقدمته التفسيرية، بدأ في تفسير سورة الفاتحة، واتبع فيها منهج التبويب، إذ قسمها إلى أربعة أبواب:

الأول: في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل.

الثاني: في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة.

الثالث: في التأمين، وفيه ثمان مسائل.

الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات، والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة.

ثم يفسر سورة (البقرة) ويبدأ بالكلام في نزولها وفضلها وما جاء فيها، من الأحكام والقراءات والإعراب واللغة وأسباب النزول وهكذا كل سورة إن وجد لها ذلك، كما يقول⁽⁴⁾.

(1) ابن عاشور - التفسير ورجاله ص 63 .

(2) التفسير ورجاله ص 97 .

(3) د. عبد المجيد المحتسب - أبو حيان الأندلسي: نحوي عصره ومفسره - مجلة العربي الكويتية العدد (130) سنة 1969 م ص 31 .

(4) الجامع ج 1 ص 152 .

والطريقة التي اتبعها في تفسيره، هي أنه يورد آية أو آيتين أو مجموعة من الآيات ثم يبدأ في تجزئتها آية، آية، مبيناً ما فيها من لغة واشتقاق، وما يقابلها في كلام العرب شعرها ونثرها. فإذا كانت الآية لها علاقة بمسائل فقهية ترك لقلمه العنان، متحدثاً عنها في المذاهب الفقهية المختلفة. وكذلك الأمر بالنسبة للنحو واللغة والقراءات والناسخ والمنسوخ. وقد يربط المعاني اللاحقة بالمعاني السابقة. فالآية: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾⁽¹⁾ يربط معانيها بالآية السابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾⁽²⁾ ويقول: «ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته على ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده»⁽³⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه...﴾⁽⁴⁾ يذكر الصلة التي تربط معاني هذه الآية بالآيات التي سبقتها، وهي من قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً...﴾ إلى قوله: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾⁽⁴⁾ فيقول: «ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحلوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقاً لهم»⁽⁵⁾.

(1) البقرة الآية 23 .

(2) البقرة الآية 22 .

(3) الجامع ج 1 ص 232 .

(4) الأنعام الآيات 136 - 141 .

(5) الجامع ج 7 ص 99 .

والذي نلمسه عند اطلاعنا على تفسير القرطبي أن صاحبه لم يبدأ في كتابته - كما قلنا - إلا بعد أن اكتملت صورته في ذهنه بشكل أكثر وضوحاً، مما يؤكد أنه كان منهجياً فيما يكتب، بحيث أنه كان يدرك الآيات أو الألفاظ القرآنية التي سبق تفسيرها وإيضاحها، فإذا ما تكررت في سور أخرى اكتفى بقوله: وقد تقدم بيان هذا، أو قد مضى المعنى في عدة مواضع، فلا معنى لاعادته هنا. وإذا كانت الآية التي يفسرها مرتبطة بآية أخرى لم يمر تأويلها، يشير بقوله: سنفصل ذلك في سورة كذا وكذا، أو في آية كذا...

ولا ينسى صاحبنا أن يناقش في تفسيره آراء الفرق المذهبية المتفقة مع السنة والمخالفة لها، كلما عرض لتفسير آية ترتبط - من قريب أو من بعيد - بتلك الفرق، مؤيداً بعضها، وواصفاً بعضها الآخر بالزيف والضلال والخروج عن عقيدة أهل الحق.... وهو في هذا كله ينقل عن أئمة الإسلام واللغة وأرباب الفصاحة والنحو. يذكر - أحياناً - القول وقائله، والمصدر الذي استمد منه نقوله، وأحياناً أخرى يكتفي بنقل الفكرة التي يريد أن يوضح بها رأيه واتجاهه ويدعمه، مع ذكر قائلها، أو يذكرها دون صاحبها مكتفياً بقوله: قال صاحب العين، أو في الإرشاد.

ومما يلاحظ عليه أنه عند خاتمة تفسير كل سورة أو آية أو عرض فكرة، أو بيان مسألة، يقول: والله أعلم فهو بهذا لم يعط لنفسه الحق في أن تفسيره للآية هو مراد الله عز وجل، وإنما هو مجرد اجتهاد لفهم النصوص، صواب عنده، ويجوز أن يكون خطأ عند غيره. ولهذا فإن العلماء الورعين يسندون - دائماً - المضمون الحقيقي للآية إلى الله جلّت قدرته.

يذكر ابن تيمية (المتوفي سنة 728 هـ) في مقدمته في أصول التفسير أن أحسن طرق التفسير وأصحها، هي أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فصل في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر. وإن لم يكن كذلك فإننا نلتجئ إلى السنة، لأنها شارحة للقرآن وموضحة له. وإذا لم نجد لا في القرآن ولا في السنة، فإننا نرجع إلى أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم

أجمعين - لأنهم شاهدوا الوحي وعاصروه، فهم أدري به وبما أحاطه من أحوال وفهم تام لمراميه ومقاصده. وإذا لم نجد التفسير في أي من الطرق السابقة، رجعنا إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق. وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به⁽¹⁾. وقد نقل ابن كثير (المتوفي 774 هـ) في مقدمة تفسيره ما ذكره ابن تيمية في مقدمته المشار إليها سابقاً⁽²⁾.

وهذا هو المنهج الذي سلكه إمامنا القرطبي - رحمه الله تعالى - في جامعه. يضاف إلى ذلك استخدامه لأدوات التفسير - التي تحدثنا عنها في الباب السابق - وما وصل إليه فهمه واجتهاده. ففي مقدمة تفسيره، يقرر أن الله سبحانه وتعالى جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما أجمله، وتفسير ما كان منه مشكلاً. قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾⁽³⁾ ثم جعل إلى العلماء بعد رسوله عليه الصلاة والسلام استنباط ما نبه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم، قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾⁽⁴⁾ فصار الكتاب أصلاً والسنة له بياناً، واستنباط العلماء له إيضاحاً وتبياناً⁽⁵⁾.

فمن الأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، ما أورده في المسألة الخامسة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قل هو أذى﴾⁽⁶⁾ (أي هو شيء تتأذى به المرأة وغيرها أي برائحة دم الحيض. والأذى كناية عن القدر على الجملة. ويطلق على

(1) مقدمة ابن تيمية ص 24، 25، 26، 28.

(2) ابن كثير ج 1 ص 3، 4، 5.

(3) النحل الآية 44.

(4) المجادلة من الآية 11.

(5) الجامع ج 1، المقدمة ص 2.

(6) البقرة من الآية 222.

القول المكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾⁽¹⁾ أي بما تسمعه من المكروه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَعِ أَذَاهُمْ﴾⁽²⁾ أي دع أذى المنافقين لا تجازهم إلا أن تؤمر فيهم، وفي الحديث: (وأميطوا عنه الأذى)⁽³⁾ يعني بـ «الأذى» الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد، يحلق عنه يوم أسبوعه، وهي العقيقة. وفي حديث الأيمان: «وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» أي تنحيته، يعني الشوك والحجر، وما أشبه ذلك مما يتأذى به المار⁽⁴⁾.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾⁽⁵⁾ ينقل ما جاء في تفسيرها على السنة الصحابة والتابعين فيقول نقلاً عن ابن عباس «هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بدرأ والحديبية. وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم. وقال مجاهد: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على الشرائط المذكورة في الآية»⁽⁶⁾.

يتضح لنا من ذلك أن شيخنا الجليل كان يعتمد في تفسيره على المنهج الأثري النقلي. وإلى جانب ذلك فقد اتصف تفسيره باستعمال العقل - أحياناً - وهو في استعماله هذا يخضع العقل للشرع، لا كما يفعل أصحاب التفسير بالرأي المذموم الذين يعتمدون على العقل أكثر من اعتمادهم على النقل، ومن أشهر مفسريهم المعتزلة والباطنية⁽⁷⁾. وقد رفع المعتزلة من شأن العقل، ومكنوا له في الحكم على الأشياء فقالوا بالحسن والقبح العقليين، كما قدموا حكم العقل على حكم الشرع⁽⁸⁾.

(1) البقرة من الآية 264 .

(2) الأحزاب من الآية 48 .

(3) البخاري جـ 7 ص 109 .

(4) الجامع جـ 3 ص 85، 86 .

(5) آل عمران من الآية 110 .

(6) الجامع جـ 4 ص 170 .

(7) حسن إبراهيم حسن - تأريخ الإسلام جـ 4 ص 442 .

(8) د. السيد أحمد خليل - دراسات في القرآن 122 طبعة سنة 1972 م.

وهذان الاتجاهان في التفسير هما ما يسميان: بالتفسير بالرواية، والتفسير بالدراية وقد اهتم المسلمون بهما «لأن الأولى طريق العلم بما مضى من الآثار، وما سلف به التاريخ ولأن الثانية طريق فهم هذه الآثار والتأريخ لها وتفسير ذلك التأريخ، والتعليل له، والانتفاع بما يحمله من دلالات لها آثارها القوية في تسديد خطى الحياة»⁽¹⁾.

ولكي يتضح لنا المنهجان السابقان اللذان جمع بينهما في جامعه لأحكام القرآن نذكر بعض الأمثلة. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَثَل الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةَ حَبَّةٍ﴾⁽²⁾ يذكر في المسألة الخامسة قوله: «في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله به المثل فقال: ﴿مَثَل الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فياًكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة)⁽³⁾. وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: (التمسوا الرزق في خبايا الأرض) يعني الزرع، أخرجه الترمذي. وقال ﷺ في النخل: «هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل) وهذا خرج مخرج المدح. والزراعة من فروض الكفاية فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار»⁽⁴⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾⁽⁵⁾ يذكر أن في هذا دليلاً على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبح

(1) د. السيد أحمد خليل - في التشريع الإسلامي 6 طبعة سنة 1966 م.

(2) البقرة من الآية 261.

(3) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 18 - المعنى واحد واللفظ مختلف. البخاري ج 3 ص 135 - اللفظ والمعنى واحد.

(4) الجامع ج 3 ص 305، 306.

(5) الاسراء من الآية 15.

ويحسن ويبيح ويحظر. ونراه يرجح القول بأن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا به فلا تكليف عليهم فيما مضى، ويقول ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل والله أعلم (1).

وفي موضع آخر ينقل عن أبي الحسن الأشعري وأصحابه وأكثر المالكية والصيرفي في (أن الشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره، وإنما حظه تعرف الأمور على ما هي عليه) (2).

وفي المسألة الرابعة عشر وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إلى الكعبين﴾ (3) يروى عن الطبري قوله: (عن يونس عن أشهب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما العظامان المتصقان بالساق المحاذيان للعقب، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم) وبعد ذلك رجح القرطبي هذا القول، وقال: «قلت: هذا هو الصحيح لغة وسنة فإن الكعب في كلام العرب مأخوذ من العلو ومنه سميت الكعبة، وكعبت المرأة إذا فلك ثديها، وكعب القناة أنبوبها، وأنبوب ما بين كل عقدتين كعب، وقد يستعمل في الشرف والمجد تشبيهاً، ومنه في الحديث (والله لا يزال كعبك عالياً) وأما السنة فقوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير (والله لا تقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم) قال: فرأيت الرجل يلصق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه وكعبه بكعبه. والعقب هو مؤخر الرجل تحت العرقوب، والعرقوب هو مجمع مفصل الساق والقدم، ومنه الحديث: (ويل للعراقيب من النار) يعني إذا لم تغسل، كما قال: (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار) (4) وفي مكان آخر من تفسيره نجده يبين معنى هذا الحديث فيقول: أن رسول الله ﷺ قد خوفنا

(1) الجامع ج 10 ص 231، 232 .

(2) الجامع ج 1 ص 251، 252 .

(3) المائدة من الآية 6 .

(4) الجامع ج 6 ص 96، 97 أنظر البخاري ج 1 ص 52 .

بذكر النار على مخالفة مراد الله عز وجل، ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا من ترك الواجب⁽¹⁾. وهو يرى وجوب استعمال حجج العقول وإبطال التقليد⁽²⁾، لا سيما فيما يخص الإقتناع وإثبات صحة العقيدة الإسلامية. فمثلاً عندما تناول بالتفسير قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽³⁾ قال: «ودلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾⁽⁴⁾، على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد»⁽⁵⁾.

ومما يتميز به الإمام القرطبي في منهجه للتفسير أنه لا يدعي لنفسه العلم المطلق، والمعرفة الكاملة بكليات الأمور وجزئياتها، فهو يذكر من المسائل والأحكام ما وصل إليه علمه. ومن أمانته العلمية أنه لا يعطي لنفسه حق القول بأن الموضوعات التي يبحثها والأحكام التي يتطرق إليها قد أوفاهما حقها من البحث وفصلها تفصيلاً بحيث لا يترك للاحق أن يضيف أشياء أخرى قد نسيها أو غفل عنها. ويبدو هذا المنهج الدقيق واضحاً عندما تناول بالتفسير قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾⁽⁶⁾ فبعد أن ذكر بعض أحكام الزكاة قال: «قلت: فهذه جملة من أحكام هذه الآية، ولعل غيرنا يأتي بأكثر منها على ما يفتح الله له»⁽⁷⁾.

(1) الجامع ج 6 ص 94، 95.

(2) الجامع ج 1 ص 231.

(3) النساء الآية 82.

(4) محمد الآية 24.

(5) الجامع ج 5 ص 290.

(6) الأنعام من الآية 141.

(7) الجامع ج 7 ص 109.

ومما ينبغي أن نذكره أن صاحبنا كان من الفقهاء المفسرين الذين يربطون أحوال الناس وواقعهم بالحكم الشرعي، ولعله تميز بهذه الميزة الفريدة عن غيره من مفسري القرآن الكريم، في عصوره الأولى. فمن منهجه التفسيري أنه إذا مر بآية وكانت فيها قضية فقهية ترتبط بحياة الناس الاجتماعية بين حكم الله تعالى فيها. وربما قد تأثر في هذا الاتجاه (بما روي عن الإمام أحمد بن حنبل في الخبر الذي رواه ابن القيم بسنده أنه قال ما خلاصته، حين تحدث عن ثقافة الفقيه أو المشرع جملة - إنه ينبغي أن يكون عالماً بالسنن والآثار والناس)⁽¹⁾. ونجد الأستاذ الدكتور السيد أحمد خليل يعلق على قول ابن حنبل «والناس» تعليقا، فيه إدراك ووعي لمسؤولية الفقيه أو المشرع، الذي يجب أن يلم بحياة الناس وظروفهم ووسائل حياتهم فيقول: «وفي قوله (والناس) إشارة دقيقة لامحة إلى أن العمل الفقهي أو التشريعي لا يكون سديداً إلا إذا توافر لدى صاحبه الخبرة بأحوال الناس وطرائق حياتهم، ووسائل اكتسابهم، وما يترتب على ذلك من منافع خاصة أو عامة: وهو ما عبر عنه بعض الفقهاء بالمصلحة. فالفقهاء الأولون قد أحسوا بضرورة وجود هذه الخبرة تسديداً منهم للعمل التشريعي»⁽²⁾.

ومن الأمثلة على ربطه الواقع الذي كان يعيش فيه بالحكم الشرعي، هو أنه عند تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾⁽³⁾ تطرق إلى حكم حمل الميت على أعناق الرجال، وبين أنه يجب الإسراع به إلى مثواه الأخير، لقوله عليه الصلاة والسلام: (أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم)⁽⁴⁾ بعد أن أورد هذا الحكم ودليله ندد بما كان يفعله

(1) د. السيد أحمد خليل - في التشريع الإسلامي (7) (هامش).

(2) المرجع السابق ص 7 (هامش).

(3) آل عمران من الآية 185 .

(4) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 128 . ورد فيه (وان تك) بحذف النون وكذلك

البخاري ج 2 ص 108 .

أهل عصره بموتاهم في الديار المصرية من المشي رويداً، والوقوف بالجنابة المرة بعد المرة، وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحل فعله ولا يجوز⁽¹⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بَأْسُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾ يقول في المسألة الثامنة: «وحكم المؤذن أن يترسل في آذانه، ولا يطرب كما يفعله اليوم كثير من الجهال، وقد أخرجه كثير من الطعام والعوام عن الاطراب، فيرجعون فيه الترجيعات، ويكثرون فيه التقطيعات حتى لا يفهم ما يقول، ولا بما به يصول. روى الدارقطني من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يطرب فقال رسول الله ﷺ: (إن الآذان سهل سمح فإن كان أذانك سهلاً وسمحاً وإلا فلا تؤذن)⁽³⁾.

وفي سياق ربط النص القرآني بالمسائل التشريعية يحدثنا الأستاذ الدكتور السيد أحمد خليل فيقول: «وفي القرن السابع، اتسع المنهج التاريخي في عرض المسائل التشريعية موصولة بالنص. فظهر كتاب (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي ثم كتاب (البحر المحيط) لأبي حيان»⁽⁴⁾.

وهكذا سار القرطبي في منهجه يعرض أقوال كثير من الفقهاء السابقين في شتى مسائل الفقه والتشريع الإسلامي، مع بيان ما وصل إليه اجتهاده من الأحكام الشرعية موافقاً لبعضهم بالحجة والمنطق، ومعارضاً لبعضهم الآخر بالدليل والبرهان. ففي مجال التشريع لشؤون الحكم والاقتصاد والتعليم والحياة الاجتماعية وما يحيط بها من علاقات بين أبناء المجتمع الإسلامي، وغيرهم من الملل الأخرى، نجد ما يذكر ما قاله علماء الإسلام فيما يتعلق بهذه الشؤون جميعها. ففي شؤون الحكم يناقش ما

(1) الجامع ج 4 ص 300 .

(2) المائدة الآية 58 .

(3) الجامع ج 6 ص 230 .

(4) في التشريع الإسلامي 148 طبعة سنة 1966 م.

روي عن السلف من وجوب نصب خليفة واحد للمسلمين يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخلافة الإسلامية⁽¹⁾ كالقصاص في القتل وإقامة الحدود⁽²⁾، ويعين له نواباً أمناء صالحين في كل بلدة، ويأمرهم بإقامة الحدود والتعزير والحبس والنفي والتغريب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وينفذون الأحكام على وجهها الصحيح من غير زيادة ولا نقصان⁽³⁾. ومن واجبه مشاوره العلماء فيما لا يعلم، وفيما أشكل عليه من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ووجوب الكتاب والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد الإسلامية الواحدة وعمارتها⁽⁴⁾. وهذه المشاورة مقصورة على الموضوعات التي تحتاج إلى الخبرة والتجربة من شؤون الحياة. أما الأحكام الشرعية المتعلقة بالحدود والعقوبات والمعاملات فلا يجوز أن يستشير فيها - إلا على أساس التعاون في استنباطها من الكتاب والسنة - لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام⁽⁵⁾. وسيأتي شيء من البيان والتفصيل لحكم الإسلام في الشورى.

وفي الاقتصاد يبين القرطبي حكم الإسلام في وجوب العمل على القادرين⁽⁶⁾، واتخاذ وسائله المباحة كالحرث وزراعة الأرض وغرسها بالأشجار وطلب النسل وهو نماء الحيوان، وبذلك يتم قوام الإنسان⁽⁷⁾ وصيد البحر، وهو كل ما

(1) الجامع ج 1 ص 264 .

(2) الجامع ج 2 ص 245 .

(3) الجامع ج 4 ص 47 .

(4) ج 4 ص 250، 249 .

(5) ج 16 ص 37 نقلاً عن ابن العربي. أنظر أحكام القرآن القسم الرابع - تحقيق علي البجاوي الطبعة الأولى 1378 هـ ص 1656 .

(6) ج 13 ص 14 ، ج 1 ص 230 .

(7) ج 3 ص 18 .

صيد من حيثانه⁽¹⁾ ، والتجارة وهي البيع والشراء⁽²⁾ ، والهدية المقصود منها التواد والتواصل⁽³⁾ . كما بين حكم الله تعالى فيما حرمه من الأعمال كالربا والمخابرة وهي أخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع، ويسمى المزارعة⁽⁴⁾ ، والقمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكة، أو حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكة كمهر البغيّ وحلوان الكاهن⁽⁵⁾ وأثمان الخمر والخنازير وغير ذلك⁽⁶⁾ ومن الموضوعات التي تناولها في هذا المجال: النبات والمعادن والركاز⁽⁷⁾ واللقطة⁽⁸⁾ والجزية⁽⁹⁾ والزكاة والغنائم والفيء⁽¹⁰⁾ . ويقرر الإمام القرطبي أن أصل المال لله عز وجل، وأن العبد ليس له فيه إلا حق التصرف بما يرضي الله ويتفق مع دينه، فيثبته على ذلك بالجنة⁽¹¹⁾ .

أما عن سياسة التعليم الإسلامية فيذكر أن الإسلام أوجب على أتباعه أن يطلبوا العلم، ما كان منه فرض عين كالصلاة والزكاة والصيام، أو فرض كفاية كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم، إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع

(1) ج 6 ص 318 .

(2) ج 5 ص 151 .

(3) ج 13 ص 198 .

(4) ج 3 ص 367 .

(5) مهر البغي هو ما تأخذه الزانية على الزنا وسماه مهراً لكونه على صورته وهو حرام بإجماع المسلمين. وأما حلوان الكاهن فهو ما يعطاه على كهنته - صحيح مسلم بشرح النووي ج 10 ص 231 طبعة 1349 هـ.

(6) الجامع ج 2 ص 338 .

(7) ج 3 ص 321 .

(8) ج 9 ص 134 .

(9) ج 18 ص 3 .

(10) ج 18 ص 14 .

(11) ج 17 ص 238 .

الناس فتضيع أحوالهم أو تبطل معاشهم فتعين أن يقوم به البعض، وإن طلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل⁽¹⁾، وشدد نكيره على الجهل واعتبره بأنه مفسد للدين⁽²⁾. وبين أنه من واجب العالم أن يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته. وهذه لفظة طيبة منه تدل على إدراك المستويات المختلفة، والفهم المتباين عند المتعلمين⁽³⁾. وكأنه يريد أن يقول: خاطب الناس على قدر عقولهم.

كما أنه ينص على أن المسلم من واجبه الوعي على ثقافات المخالفين له حتى يعرف فساد قولهم، ويعلم كيف يهدمه ويرد عليهم، فإذا لم يكن كذلك فإن فاقده الشيء لا يعطيه⁽⁴⁾. كما أنه يرى أن العالم يجب أن يرحل في طلب الايزاد من العلم لمقابلة العلماء وإن بعدت أقطارهم⁽⁵⁾. وعلى الوالد أن يعلم أولاده الحلال والحرام ويجنبهم المعاصي والآثام لقول ﷺ: (حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ)⁽⁶⁾.

والنظام الاجتماعي الإسلامي المتعلق بالأسرة والمجتمع من الأمور التي التفت إليها الإمام القرطبي وهو يتحدث في تفسيره عن الآيات المرتبطة بذلك. وقد بين أنه من واجب المسلم أن يعاشر والديه بالمعروف ويتواضع لهما ويمثل أمرهما، ويصل أهل ودهما⁽⁷⁾. وأن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة⁽⁸⁾. وأمر الإسلام الزوجة بطاعة زوجها والقيام بحقه في ماله وفي نفسها في حال غيبته⁽⁹⁾. كما أمره

(1) ج 8 ص 293، 294، 295.

(2) ج 1 ص 447.

(3) ج 2 ص 185.

(4) ج 7 ص 96.

(5) ج 11 ص 11.

(6) ج 18 ص 195.

(7) ج 2 ص 13.

(8) ج 5 ص 6.

(9) ج 5 ص 170.

بالإحسان إليها وبالعشرة الطيبة معها⁽¹⁾ . وينبغي للمسلم أن يحذر أذى جاره، ويعامله بأخلاق الإسلام المثلى، فتتمو بينهما المحبة وحسن المعاشرة ودفع الحاجة والمفسدة⁽²⁾ . ويفي بالعهد الذي يقطعه على نفسه، ولا يحل له نقضه وألا يغدر بأحد⁽³⁾ . ويجب على المسلمين أن يكتبوا ديونهم وأماناتهم، حفظاً لحقوقهم من الضياع وصيانة لهم من الوقوع في الخصومات والخلافات التي قد تترتب على عدم الكتابة والإشهاد في الديون⁽⁴⁾ ، ويعتصموا بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، لأن في ذلك اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف⁽⁵⁾ ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ويكون ذلك باللين من القول، والقدوة الحسنة لقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾⁽⁶⁾ . وهكذا يسير إمامنا في ربطه المحكم بين أحكام الإسلام والأوضاع الاجتماعية، إيماناً منه بصلاحية هذه الأحكام لكل زمان ومكان ومعالجتها لمشاكل ومتطلبات الإنسان أينما وجد وحيثما كان.

(1) ج 5 ص 172 .

(2) ج 5 ص 185 .

(3) ج 1 ص 248 .

(4) ج 3 ص 382 .

(5) ج 4 ص 164 .

(6) النحل من الآية 125 - أنظر الجامع ج 11 ص 199 .

الباب الخامس

القرطبي الناقد

القرطبي الناقد

تبين لنا - مما قدمناه - المنهج الذي ارتضاه الإمام القرطبي وسار عليه في جامعه، وهو اعتبار ما روي عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وما يصل إليه العقل من فهم واجتهاد باتباعه الأصول المقررة وقوانين العلم المحددة، أمر ذو أهمية عظمى في تفسير آيات كتاب الله تعالى. فهو إلى جانب إخضاع تفسير الآية للسمع، يحكم الرأي النزيه، الذي لا يشوبه هوى أو ميل إلى نصره نزعاً باطلاً. وإن كان منهج الرواية أو التفسير بالمأثور هو الطابع الغالب على تفسيره من منهج الدراية، أو التفسير بالرأي.

ولما كانت ثقافة القرطبي واسعة، واهتماماته العلمية عظيمة، فإنه لم يكن في تفسيره مجرد ناقل، بل كان يقيم ما ينقله ويزنه بموازين العلم الثابتة، ويبين وجهة نظره تجاه ما يعرضه من آراء للعلماء في شتى المجالات العلمية، تارة باستحسانها وقبولها، وأخرى بنقدها ورفضها. وهو حين ينقد فكرة أو رأياً أو جانباً من جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية فإنه يدعم نقده - في أغلب الأحيان - بالحجج الدامغة، والأدلة القاطعة، التي يراها حجة قوية تؤكد ما ذهب إليه وتؤيده.

فمثلاً في المسألة الخامسة والعشرين يقرر إمامنا الفاضل أن الجمهور من القراء والعلماء يشددون اليباء في الموضعين من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾ وذكر أن عمرو بن عمرو بن فائد قرأ ﴿إِيَّاكَ﴾ بكسر الهمزة وتخفيف اليباء، وذلك أنه كره تضعيف اليباء لثقلها وكون الكسرة قبلها. بعد هذا ينقد هذه القراءة فيقول: «وهذه

(1) الفاتحة الآية 5 .

قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير شمسك نعبد أو ضؤك، وإيابة الشمس (بكسر الهمزة): ضؤها، وقد تفتح وقال:

سفته إيابة الشمس إلا لثأته أَسِفَّ فلم تَكُدِم عليه بإئمد
فإن أسقطت الهاء مددت»⁽¹⁾ .

فهو يبين أن قراءة عمرو بن فائد هذه قد أهملها جمهور القراء والعلماء لاتفاقهم على تشديد الياء.

ومثلاً عند انتهائه من تفسيره لسورة (الضحى) عقد فصلاً بين فيه حكم التكبير إذا بلغ القارئ آخر السورة إلى أن يختم القرآن، وقد أجازته البزّي عن ابن كثير للرواية التي رواها مجاهد عن ابن عباس وهي قوله: قرأت على ابن عباس فأمرني به، وأخبرني به عن أبي عن النبي ﷺ. وبعد أن ذكر أن القراء الباقين لا يكبرون خشية من أن تتخذ ذريعة إلى الزيادة في القرآن. قال: «قلت: القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه، لا زيادة فيه ولا نقصان، فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن. فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه»⁽²⁾ .

بالإضافة إلى ذلك فإنه يستحسن بعض القراءات ويقول عنها: إنها قراءة حسنة⁽³⁾ ، كما أنه يرجح بعضها⁽⁴⁾ ويذكر ما كان منها شاذ⁽⁵⁾ .

وفي سورة «النساء» يبين أن هذه السورة مدنية، ثم ينقل أقوال العلماء من أنها نزلت عند هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة. وقال عنها أبو جعفر النحاس أنها

(1) الجامع ج 1 ص 146 .

(2) ج 20 ص 103 .

(3) الجامع ج 3 ص 26 - ج 7 ص 371 .

(4) ج 1 ص 386 .

(5) ج 3 ص 32، 67 .

مكية. ثم يذكر أن بعض الناس قالوا: إن قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ﴾ حيث وقع إنما هو مكّي، فيشبهه أن يكون صدر السورة مكياً، وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدني. بعد ذلك يبين بالحجة والدليل القول الصحيح المتعلق بمكان نزول هذه السورة فقال:

«قلت: والصحيح الأول، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، تعني قد بنى بها. ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بنى بعائشة بالمدينة. ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها. وأما من قال: بأن قوله: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ﴾ مكّي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية وفيها قوله: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ﴾ في موضعين⁽¹⁾ والله أعلم⁽²⁾ .

وفي مجال الرواية نجد يعارض بعض الروايات وينقدها نقداً علمياً، أساسه الدليل والحجة والبيّنة، مما يدل على طول باعه في التحصيل العلمي واتساع ثقافته ومعارفه. فمثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾⁽³⁾ يذكر ما قيل في أسباب نزول هذه الآية، فتارة ينسب سبب نزولها إلى مطعم بن ورقاء الأنصاري، وأخرى إلى من تكفل بأسرى بدر، وثالثة في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ویتيماً وأسيراً، ورابعة ينقل عن أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة. بعد أن ذكر هذه الأقوال جميعها بين أن ما يراه صحيحاً هو خلاف ما ذكره العلماء فقال:

«قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة. وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتها حديثاً لا يصح ولا يثبت»⁽⁴⁾ .

(1) الآيتان 21، 168 .

(2) ج 5 ص 1 .

(3) الإنسان الآية 9 .

(4) ج 19 ص 130 - أنظر نقد هذا الحديث في ج 19 ص 134، 135 .

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأعداء﴾ النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود⁽¹⁾ ينقل عن العلماء ما ملخصه: أن الله سبحانه وتعالى أعلم هذه الأمة في هذه الآيات بما كان يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد، ويؤنسهم بذلك. ولا بد لهم من تحمل الآلام والمشقات التي تقابلهم بعد إيمانهم بالله تعالى، وأن يصبروا على الطرح في النار والتعذيب وألا يعودوا إلى الكفر مرة أخرى.

وقد قيل هذا الكلام في سياق قصة حدثت لأمة من الأمم قبل الإسلام لاقت من التعذيب والاضطهاد ما لاقت. ثم بعد أن ذكر القرطبي قول ابن العربي: «وهذا منسوخ عندنا»⁽²⁾ رد عليه بقوله: «قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمز بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾»⁽³⁾. وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) خرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب. وروي ابن سنجر (محمد بن سنجر) عن أميمة مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضىء النبي ﷺ، فأتاه رجل، قال: أوصني فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت أو حرقت بالنار» الحديث.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾⁽⁴⁾. يذكر ما قيل في سبب هذا القربان وهو أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى. وكان آدم عليه السلام

(1) البروج الآيات (4 - 7) .

(2) ج 19 ص 293 .

(3) لقمان الآية 17 .

(4) المائدة من الآية 27 .

يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته وتوئمة فولدت مع قاييل أختاً جميلة واسمها اقليمياء، ومع هاييل أختاً ليست كذلك واسمها ليودا، فلما أراد آدم تزويجهما قال قاييل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأت، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على التقريب، قاله جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود. ثم يذكر رواية عن جعفر الصادق فحواها: أن آدم لم يكن يزوج ابنته من ابنه، وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتاً فسماها عناقا فبغت. ثم ولدت لآدم قاييل، ثم ولدت له هاييل، فلما أدرك قاييل أظهر الله له جنية من ولد الجن، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قاييل فزوجها منه. فلما أدرك هاييل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وأوحى إليه أن زوجها من هاييل ففعل. بعد هذا كله عارض الإمام القرطبي هذه الرواية وأبطلها فقال:

«قلت: هذه القصة عن جعفر ما أظنها تصح، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن. والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾⁽¹⁾ وهذا كالنص ثم نسخ. وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطناً، أولهم قاييل وتوئمة اقليمياء وآخرهم عبد المغيث. ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يميت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً. وما روي عن جعفر - من قوله: فولدت بنتاً وأنها بغت - فيقال: مع من بغت؟ أمع جني تسول لها! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم. والله أعلم»⁽²⁾.

أما اللغة فقد كان لشيخنا الجليل محاورات ومناقشات دارت بينه وبين علماء اللغة والتفسير على صفحات جامعه لأحكام القرآن. فهو ينقد ابن عطية وابن العربي والشعلبي والطبري في أحكامهم اللغوية، ويدلل على صحة ما

(1) النساء من الآية 1 .

(2) ج 6 ص 134، 135 .

يقوله بما ينقله عن علماء العربية وما يؤدي إليه اجتهاده. وفهمه للأبحاث اللغوية. فمثلاً عندما ذكر قوله ﷺ: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)⁽¹⁾ نقل عن ابن جرير الطبري قوله: «وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحداً من أهل العلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى: وكنت امرأ زمناً بالعراق عفيف المناخ طويل التّغن وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى في هذا الموضع الإقامة، من قول العرب: غنى فلان بمكان كذا أي أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾⁽²⁾ وأما استشهاده بقوله:

(ونحن إذا متنا أشد تغانيا)

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد، فغير جائز أن يقال: تغاني زيد وتضارب عمرو، وكذلك غير جائز أن يقال: تغنى بمعنى استغنى⁽³⁾ بعد أن أورد صاحبنا مناقشة الإمام ابن جرير الطبري لكلمة «تغنى» بين أن ما ادعاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تغنى بمعنى استغنى غير صحيح فقد ذكر الجوهري في الصحاح أنه يقال: تغنى الرجل بمعنى استغنى وأغناه الله. وتغانوا أي استغنى بعضهم عن بعض. واستشهد على ذلك بقول المغيرة ابن حبياء التميمي:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا
وذكره أبو عبيد الهروي (المتوفي سنة 401 هـ / 1011 م) في غريبه وحسبك بهما.

(1) الجامع ج 1 ص 13 .

(2) الأعراف من الآية 92 .

(3) الجامع ج 1 ص 14 .

وأما قوله: إن صيغة فاعل إنما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام. وتقول العرب: طارقت النعل وعاقبت اللص وداويت العليل، وهو كثير فيكون تغاني منها. وقد ذهب سفيان ابن عيينة إلى تأويل تغنى بمعنى استغنى، وهو صحابي كبير، عليم بتأويل الأحاديث كما قال ابن وهب في حقه⁽¹⁾.

وفي المسألة الرابعة وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنْ وَالسَّلْوى﴾⁽²⁾ ينقل عن ابن عطية قوله: «السلى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي فقال:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألدّ من السلى إذا ما نَشُورها
ظن السلى العسل وهنا يعقب القرطبي على قوله هذا، ناقداً إياه، ومبيناً
صواب ما ذهب إليه علماء اللغة والتفسير فيقول: «قلت: ما ادعاه من الإجماع لا
يصح، وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل، واستدل بيت الهذلي،
وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، سمى به لأنه يسلي به، ومنه عين السلوان، وأنشد:

لو أشرب السلوان ما سليت ما بي غنى عنك وان غنيث

وقال الجوهري: والسلوان العسل، وذكر بيت الهذلي:

(ألد من السلى إذا ما نَشُورها)

ولم يذكر غلطاً⁽³⁾.

ومثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾⁽⁴⁾
يذكر أن لفظ «عال» يحمل معاني متعددة، فهو بمعنى: جار ومال وافتر وغلب

(1) ج 1 ص 12، 13، 14 - أنظر التذكار أيضاً ص 118 .

(2) البقرة من الآية 57 .

(3) الجامع ج 1 ص 407، 408 .

(4) النساء من الآية 3 .

وثقل واشتد وتفاقم. ثم ينقل تفسير الإمام الشافعي رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ ألا تكثروا عيالكم. قال الثعلبي: وما قال هذا غيره، وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله. ويبين أن ابن العربي حصر لفظ «عال» في سبعة معان لا ثامن لها، وهي: مال، زاد، جار، افتقر، أثقل، قام بمثونة العيال، غلب. ونقل عنه أنه يقال: أعال الرجل كثر عياله. وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح⁽¹⁾. بعد أن عرض أقوال الشافعي وابن العربي فيما يختص بلفظ «عال» علق على ذلك بروح الناقد العالم فقال:

«قلت: أما قول الثعلبي (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطني في سننه عن زيد ابن أسلم، وهو قول جابر بن زيد، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه. وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكر: عال الأمر اشتد وتفاقم، حكاة الجوهرى. وقال الهروي في غريبه: (2) «وقال أبو بكر: يقال عال الرجل في الأرض يعيل فيها أي ضرب فيها. وقال الأحمر: يقال: عالني الشيء يعيلني عيلاً معيلاً إذا أعجزك». وأما عال كثر عياله فذكره الكسائي وأبو عمر الدؤري وابن الأعرابي. قال الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة: العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أي كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا، ولعله لغة. قال الثعلبي المفسر: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمر الدؤري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدافع فقال: هي لغة حمير، وأنشد:

وإن الموت يأكل كل حي بلا شك وإن أمشى وعالا

يعني وإن كثرت ماشيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ عن لاحق لحناً. وقرأ طلحة بن مصرف «ألا تعيلوا» وهي حجة الشافعي رضي الله عنه، قال ابن عطية: وقدح الزجاج وغيره في تأويل عال من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السراري وفي ذلك تكثير العيال،

(1) جـ 5 ص 20، 21 .

(2) أي القرآن والحديث.

فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثر العيال. وهذا القدر غير صحيح، لأن السراري إنما هي مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما العيال القادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. وحكى ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله⁽¹⁾. فالقرطبي يتميز في نقده بالنزاهة العلمية وعفة اللسان وإقامة الحجة ليدفع بها دعوى المخالف له في الاتجاه العلمي. فهو لم يستعمل في نقده ألفاظاً نابيةً، ويجرح غيره من العلماء بما لا يمت إلى شرف العلم وأدب العالم، كما يفعل بعض المفسرين والعلماء⁽²⁾، إلا إذا انتهكت حرمانات الله تعالى، واعتدى على أحكام الإسلام وعقائده فإنه ينتقم لله ويغضب من أجله. عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله)⁽³⁾.

وعلم النحو من العلوم التي اهتم بها صاحبنا، لأنه شرط أساسي للمفسر. فهو قد أحاط بمذاهبه المتعددة إحاطة مكنته من فهم كتاب الله تعالى، وأن يكون لنفسه رأياً يعارض آراء الآخرين وأحكامهم النحوية. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾⁽⁴⁾ يبين أن (يا بني إسرائيل) نداء مضاف، منصوب بالياء، وقد حذفت منه النون للإضافة. ثم يذكر الأصل لكلمة «بني» فيقول: إن الواحد «ابن» والأصل فيه «بني» ونجده يرد على من يقول: إن الأصل (بَنَوُ) حذف منه الواو احتجاجاً بقولهم (الفتوة) فيقول: إن هذا لا حجة فيه، لأنهم قد قالوا: (الفتوة)، وأصلها الياء. ثم نقل عن الزجاج النحوي: أن المحذوف عنده ياء كأنه من بنيت. أما الأخفش فقد اختار أن يكون المحذوف منه الواو، لأن حذفها أكثر لثقلها. ويقال ابن بين النبوة، والتصغير (بُنِّي) قال الفراء: يقال: يا بُنِّي

(1) ج 5 ص 22 .

(2) أنظر مثلاً الجامع لأحكام القرآن ج 2 ص 248 - ج 6 ص 332 - ج 9 ص 109 .

(3) البخاري ج 8 ص 37 طبعة الشعب صحيح مسلم بشرح النووي ج 15 ص 83 .

(4) البقرة من الآية 40 .

ويا بُنَيَّ لغتان، مثل يا أبتَ ويا أبتَ، وقرىء بهما. وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء، والابن فرع للأب وهو موضوع عليه⁽¹⁾.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحساناً﴾⁽²⁾. يذكر في المسألة الثانية أقوال الفراء والزجاج وجماعة من العلماء: أن المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يسفكوا الدماء، ثم حذفت أن والباء فارتفع الفعل لزوالهما، كقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾⁽³⁾ ثم نقل عن المبرد قوله: هذا خطأ، لأن كل ما أضمر في العربية فلا يعمل عمله مظهراً، تقول: وبلد قطعت أي رب بلد، بيد أن القرطبي لا يتفق مع المبرد في رأيه هذا، حيث عارضه بقوله: «ليس هذا بخطأ بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد سيويه:

ألا أيها ذا الزاجري أخضُرُ الوغَى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي⁽⁴⁾

بالنصب والرفع، فالنصب على إضمار أن، والرفع على حذفها⁽⁵⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿يُودُ أَحَدَكُمُ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾⁽⁶⁾ ذكر أن النحاة اختلفوا في حكمهم على (هو). فقيل: هو ضمير لأحد المتقدم، وقيل: هو ضمير التعمير. ثم ذكر أن الطبري حكى عن فرقة أنها قالت (هو) عماد. بعد ذلك عقب عليه بقوله:

«قلت: وفيه بعد، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين، مثل قوله:

(1) ج 1 ص 330 .

(2) البقرة الآيتان 83، 84 .

(3) الزمر من الآية 64 .

(4) البيت لطرفة بن العبد ذكره في معلقته.

(5) ج 2 ص 13 .

(6) البقرة من الآية 96 .

«إن كان هذا هو الحق»⁽¹⁾ ، وقوله: «ولكن كانوا هم الظالمين»⁽²⁾ ونحو ذلك»⁽³⁾ .
 وقد استدرك الإمام القرطبي على القاضي ابن العربي حين ذكر أن كلمة
 «استفعل» تأتي في لسان العرب على معان، ذكر منها: استفعل بمعنى طلب الفعل،
 واعتقد، ومنه استفعلت بمعنى أصبت، وبمعنى فعل. استدرك عليه بأنه لم يذكر
 استفعل بمعنى أفعال، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد⁽⁴⁾ . وقد ذكرناه⁽⁵⁾ .

وفي مجال الاتجاهات الأدبية نلاحظ أنه لا يفوته أن ينبه على ما يصدر عن
 بعض الأدباء والشعراء من آراء وأفكار. فيقيمها ويزنها بميزان النقد الإسلامي. فالذي
 يجده متفقاً مع الإسلام يستحسنه ويفضل دراسته والاطلاع عليه، وما لا يتفق معه
 يرفضه ويحذر المسلمين منه.

فمثلاً عند تفسير قول الله تعالى: «فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما
 أهلها فأبوا أن يضيفوهما»⁽⁶⁾ . ذكر في المسألة الرابعة أن في هذه الآية دليلاً على
 سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه. وأن الاستطعام هو
 سؤال الطعام أي سؤال الضيافة. فمن رد ضيفه ذم ونسب إلى اللؤم والبخل. ثم
 عرض لما أشار إليه الحريري في إحدى مقاماته، ملمحاً إلى هذه الآية. فقال: «ويعفو
 الله عن الحريري حيث استخف في هذه الآية وتمجن، وأتى بخطل من القول وزل،
 فاستدل بها على الكدية»⁽⁷⁾ والالحاح فيها، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله، ولا
 منقصة عليه، فقال:

(1) الأنفال من الآية 32 .

(2) الزخرف من الآية 76 .

(3) الجامع ج 2 ص 34 ، 35 .

(4) ج 9 ص 56 ، 57 . أنظر أحكام القرآن، لابن العربي القسم الثالث 1047 - الطبعة الأولى 1377 هـ.

(5) أنظر الجامع ج 1 ص 212 .

(6) الكهف من الآية 77 .

(7) الكدية: تكفف الناس. المحقق.

وإن رُدَدتْ فما في الرد منقصةٌ عليك قد رد موسى قبلُ والخضرُ(1)
ثم يعقب عليه بقوله:

«قلت: وهذا لعب بالدين، وانسلال عن احترام النبيين، وهي شئنة(2) أدبية، وهفوة سخافية، ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيء فإياك أن تلعب بدينك»(3).

وفي سياق حديثه عن قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾(4) يناقش حفظ الشعر وإنشاده ما كان منه مباح أو محرم. فبعد أن ذكر حديث عمرو بن الشريد الذي رواه مسلم في صحيحه. وقد ذكره أيضاً شيخه عبد العظيم المنذري في مختصره لصحيح مسلم(5). والذي استحسنت فيه الرسول عليه الصلاة والسلام شعر أمية بن أبي الصلت قال القرطبي: «وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً»(6). ومثال ذلك ما أنشده أبو بكر رضي الله عنه حين رثي النبي ﷺ:

فقدنا الوحي إذ وليت عنا وودعنا من الله الكلام
سوى ما قد تركت لنا رهينا توارثه القراطيس الكرام
فقد أورثتنا ميراث صدق عليك به التحية والسلام(7)

وينقل عن ابن عبد البر: أن الشعر إذا لم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإنه يجوز سماعه وإنشاده، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا

(1) أنظر مقامات الحريري: المقامة السابعة والثلاثون (الصعدية) ص 411 طبعة المكتبة التجارية.

(2) الشئنة: الخلق والطبيعة. مختار الصحاح ص 349 .

(3) جـ 11 ص 24، 25 .

(4) الشعراء الآية 224 .

(5) جـ 2 ص 157 باب في الشعر وإنشاده.

(6) جـ 13 ص 145 .

(7) جـ 13 ص 147 .

يحل سماعه ولا قوله. ثم يتحدث عن الشعر المذموم وينقده فيقول: «وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأشحهم على حاتم، وأن ييهتوا البريء ويفسقوا التقي، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول. كما روي أن النعمان بن عددي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

من مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قريه ورقاصه تجذو على كل منسِم
فإن كنت ندماني فبالأكبر أسقني ولا تسقني بالأصغر المتشلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه. وقال: أي والله إنني ليسؤني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت، وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت»⁽¹⁾.

وبعد أن ذكر ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه من أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً حتى يريه خير من أن يمتلىء شعراً)⁽²⁾ بعد هذا بين أن أحسن ما قيل في تأويل هذا الحديث «أنه الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلاً صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثّر من اللفظ والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم

(1) جـ 13 ص 148، 149 .

(2) جـ 13 ص 150 وفي مختصر صحيح مسلم جـ 2 ص 157 باب: كراهية الامتلاء من الشعر البخاري جـ 8 ص 45 - يريه: من (ورى) القيح جوفه يريه (وريا) أكله. مختار الصحاح ص 718.

العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوب على هذا الحديث (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر⁽¹⁾) ، حتى يصدده عن ذكر الله والعلم والقرآن. ثم ذكر تأويلاً آخر قد وصفه بأنه ليس بشيء، فقال:

«وقد قيل في تأويله: أن المراد بذلك الشعر الذي هجى به النبي ﷺ أو غيره. وهذا ليس بشيء، لأن القليل من هجو النبي ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبي ﷺ من المسلمين محرم قليله وكثيره، وحيث لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى»⁽²⁾ .

ولما كان الحديث المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي فإنه أصبحت له أهمية عظيمة «قد أكدها القرآن وأشار إليها الرسول نفسه، ودعا إليها الخلفاء الراشدون والصحابة على العموم. فالقرآن يقول: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾⁽³⁾ كما أنه يقرر أن الرسول في قوله لا يصدر عن رأي أو هوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾⁽⁴⁾ . وحديث معاذ حين بعث به إلى اليمن⁽⁵⁾ ، يؤكد هذه الأهمية، ويحدد مكان السنة من التشريع نفسه»⁽⁶⁾ . لما كان الحديث له هذه المكانة الرفيعة والأهمية البالغة فإن القرطبي لم يتباطأ ويتهاون في معرفة علم الحديث ومصطلحاته - كغيره من علماء الإسلام - ليستعين بذلك على الفهم السليم والادراك الصحيح لآيات الله تعالى، فهو حين يذكر حديثاً من الأحاديث التي يستشهد بها العلماء الذين ينقل عنهم، فإنه لا بد أن يمرر هذا الحديث بغرايبيل النقد لمعرفة السقيم

(1) الجامع ج 13 ص 151 - أنظر صحيح البخاري ج 8 ص 45 كتاب الأدب.

(2) الجامع ج 13 ص 151 .

(3) الحشر من الآية 7 .

(4) النجم الآية 4 .

(5) راجع مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير 25، 26 .

(6) د. السيد أحمد خليل - في التشريع الإسلامي ص 48 .

من الصحيح، والضعيف والحسن والموضوع والمنكر والشاذ وغير ذلك من اصطلاحات المحدثين⁽¹⁾ .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصَ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾⁽²⁾ يذكر في المسألة العاشرة قول ابن العربي: «ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا: يقتل الحر بعبء نفسه، ورووا في ذلك حديثاً عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: (من قتل عبده قتلناه) وهو حديث ضعيف. ودليلنا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾⁽³⁾ والولي ها هنا السيد، فكيف يجعل له سلطان على نفسه»⁽⁴⁾ . ثم بعد ذلك عقب عليه بقوله:

«قلت: هذا الحديث الذي ضعفه ابن العربي وهو صحيح، أخرجه النسائي وأبو داود، وتتميم منته: «ومن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه» وقال البخاري عن علي بن المديني: سماع الحسن من سمرة صحيح، وأخذنا بهذا الحديث. وقال البخاري: وأنا أذهب إليه، فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان، وحسبك بهما!. ويقتل الحر بعبء نفسه».

ومثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾⁽⁵⁾ يورد في المسألة الثالثة عشر حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ في موضوع اللقطة والضوال⁽⁶⁾ وهو قوله

(1) أنظر التقييد والإيضاح 18 .

(2) البقرة من الآية 178 .

(3) الاسراء من الآية 33 .

(4) ج 2 ص 248، 249 .

(5) يوسف الآية 10 .

(6) اللقطة والضوال: اسمان يتفقان في المعنى وفي الحكم - الجامع ج 9 ص 135 .

عليه الصلاة والسلام: (فإن لم تعرف فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوماً من الدهر فأدأها إليه) في رواية «ثم كلها فإن جاء صاحبها فأدأها إليه» خرجه البخاري ومسلم⁽¹⁾. ثم بين أن العلماء قد أجمعوا على أن صاحب اللقطة متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف. بعد ذلك يذكر أنه لا التفات لقوله، لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام (فأدأها إليه)⁽²⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِيمٌ﴾⁽³⁾ وفي سياق تفسيره لكلمة (زنييم) وهي بمعنى ولد الزنى الملحق في النسب بالقوم أي الذي لا أصل له، يورد ثلاثة أحاديث:

الأول: قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولده ولا ولد ولده).

الثاني: قال عبدالله بن عمر: إن النبي ﷺ قال: (إن أولاد الزنى يحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير).

الثالث: ما روته ميمونة حيث قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنى، فإذا فشا فيهم ولد الزنى أوشك أن يعمهم الله بعقاب).

ثم ذكر قول عكرمة: إذا كثر ولد الزنى قحط المطر.

بعد هذا أخذ في بيان ملاحظاته العلمية على كل ذلك فقال: «قلت: أما الحديث الأول والثاني فما أظن لهما سنداً يصح، وأما حديث ميمونة وما قاله عكرمة. ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: خرج النبي ﷺ يوماً فزعاً محمراً وجهه يقول: (لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد

(1) أنظر البخاري ج 3 ص 163 طبعة الشعب. ومختصر مسلم ج 2 ص 42 طبعة الكويت.

(2) الجامع ج 9 ص 137، 138.

(3) القلم الآية 13.

اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثرت الخبث)⁽¹⁾ خرجه البخاري. وكثرة الخبث ظهور الزنى وأولاد الزنى، كذا فسره العلماء.

وقول عكرمة (قحط المطر) تبين لما يكون به الهلاك. وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله⁽²⁾.

ويبدو في نقده للحدِيثين: الأول والثاني، أنه لم يبين بصورة أكثر وضوحاً الأسس أو القواعد التي بنى عليها نقده هذا. فهو لم يقيم الأدلة على بطلانها وعدم صحتها. ولعله بين ما وصل إليه علمه، واكتفى بما ذكر ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾⁽³⁾.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال العلمي أن إمامنا القرطبي - رحمه الله تعالى - قد خاض مع الشيعة الإمامية في نقاش علمي دقيق حول مسألة «الخلافة الإسلامية» ومن أحق بها؟ ففي بحثه الذي كتبه عن الخلافة⁽⁴⁾ عندما تناول بالتفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽⁵⁾ ذكر الأحاديث التي احتج بها الإمامية على أحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه في توليه الخلافة بعد رسول الله ﷺ.

ولما كانت بعض هذه الأحاديث قد طعن فيه رجال الحديث وعلماءه، وبعضها الآخر أُسيء فهمه، وحمل ما لا يحتمل، فإن القرطبي - كعادته في مناصرة

(1) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 288 . البخاري ج 9 ص 60 .

(2) ج 18 ص 234، 235 .

(3) يوسف من الآية 76 .

(4) راجع ج 1 ص 264 - 274 .

(5) البقرة من الآية 30 .

الإسلام وبيان معاملة الواضحة، وطرح ما يراد إلصاقه به - قد سلط كشفه النقدي على تلك الأحاديث، وقيمها بالمعايير النقدية التي منحها الله إياه، فأزال بذلك الغموض، وحدد الهدف. وكاد أن ينطبق على قوله المثل القائل: «ولا عطر بعد عروس»⁽¹⁾.

ففي المسألة السادسة وعند تفسيره للآية السابقة يذكر الأحاديث التي احتج بها الإمامية في النص على خلافة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. منها قوله ﷺ:

«من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقوله لعليّ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»⁽²⁾ ثم تولى الرد على ما احتج به هؤلاء الإماميون فقال:

«والجواب عن الحديث الأول: أنه ليس بتواتر، وقد اختلف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السجستاني وأبو حاتم الرازي، واستدلا على بطلانه بأن النبي ﷺ قال: (مزية وجهينة وغفار وأسلم موالٍ دون الناس كلهم ليس لهم مولى دون الله ورسوله»⁽³⁾. قالوا: فلو كان قد قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» لكان أحد الخبرين كذباً.

جواب ثانٍ: - وهو أن الخبر وإن كان صحيحاً رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته، وإنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولي، فيكون معنى الخبر: من كنت وليه فعليّ وليه، قال الله تعالى: ﴿فإن الله هو مولاه﴾⁽⁴⁾ أي وليه. وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علي كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلي.

(1) الجامع ج 4 ص 324 .

(2) ح 1 ص 266 .

(3) صحيح مسلم بشرح النووي ج 16 ص 74 - البخاري ج 4 ص 218 .

(4) التحريم من الآية 4 .

جواب ثالث: - وهو أن هذا الخبر ورد على سبب، وذلك أن أسامة وعلياً اختصما، فقال علي لأسامة: أنت مولاي. فقال: لست مولاك، بل أنا مولى رسول الله ﷺ، فذكر للنبي ﷺ، فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه).

جواب رابع: - وهو أن علياً عليه السلام لما قال للنبي ﷺ في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها: النساء سواها كثير⁽¹⁾. شق ذلك عليها، فوجد أهل النفاق مجالاً فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه، فقال النبي ﷺ هذا المقال رداً لقولهم، وتكديماً لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والظعن فيه، ولهذا ما روي عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا يبغضهم لعلي عليه السلام.

وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبي ﷺ لم يرد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليه السلام وما كان خليفة بعده وإنما كان الخليفة يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» «الخلافة لقال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى» فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا، وإنما أراد أنني استخلفتك على أهلي في حياتي وغيوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة ربه. وقد قيل: إن هذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبي ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك استخلف علياً عليه السلام في المدينة على أهله وقومه، فأرجف به أهل النفاق وقالوا: إنما خلفه بغضاً وقلَى له، فخرج علي فلحق بالنبي ﷺ وقال له: إن المنافقين قالوا كذا وكذا فقال: «كذبوا بل خلقتك كما خلف موسى هارون». وقال «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»⁽²⁾.

وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك علياً في هذه الفضيلة

(1) راجع البخاري جـ 5 ص 151 طبعة الشعب ومختصر صحيح مسلم جـ 2 ص 333 تحقيق الشيخ الألباني.

(2) أنظر البخاري جـ 6 ص 3 طبعة الشعب - مختصر صحيح مسلم جـ 2 ص 194 .

غيره، لأن النبي ﷺ استخلف في كل غزاة غزاها رجلاً من أصحابه، منهم: ابن مكتوم، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه، على أن مدار هذا الخبر على سعد ابن أبي وقاص وهو خبر واحد. وروى في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه. وروى أن النبي ﷺ لما أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له: ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال: «إنهما لا غنى بي عنهما إن منزلتهما مني بمنزلة السمع والبصر من الرأس». وقال: «هما وزيراي في أهل الأرض».

وروي عنه عليه السلام أنه قال: (أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى). وهذا الخبر ورد ابتداءً، وخبر عليّ ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة، والله أعلم⁽¹⁾.

أما علم الكلام أو الاتجاهات الاعتقادية، فإن شيخنا الجليل قد نال نصيباً وافياً منها، إذ ألم بمذاهبها وأصولها المختلفة، وعرف ما قام منها على الحق وما بنى على الباطل، فجرد سيف لسانه وقلمه في مناصرة الحق وأهله، ومناهضة الباطل وأنصاره ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾⁽²⁾. ذلك أنه لا يجوز لحامل الدعوة أن يجهل ما عند خصومه من نظريات وأفكار، هي في حقيقة أصلها تخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها، وتصطدم مع حقائق الإسلام التي يجب على البشرية جميعاً الإيمان بها واتباعها، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى⁽³⁾.

وفي هذا السياق يذكر العلامة ابن خلدون أن علم الكلام: فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها⁽⁴⁾. كما أننا نجد يعرف هذا العلم فيقول: «هو علم يتضمن الحجج

(1) الجامع ج 1 ص 267، 268.

(2) الاسراء الآية 81.

(3) راجع ص 235 من هذا الكتاب.

(4) تأريخ ابن خلدون ج 1 ص 390.

عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد»⁽¹⁾. ولكي نعرف مدى انطباق هذا التعريف على عقلية القرطبي العلمية، نرى أنه لا بد من التوغل في أعماق تفسيره الجامع لأحكام القرآن، فنقتبس منه الأمثلة التي توضح لنا منهجه في المعرفة الاعتقادية، وموقفه من أولئك الذين وصفهم ابن خلدون - رحمه الله تعالى - بأنهم مبتدعة ومنحرفون عن عقائد أهل السنة.

وقبل أن نذكر تلك الأمثلة نرى أنه من الضروري الإشارة إلى أن صاحبنا قد اتخذ مذهب أهل السنة أساساً لاعتقاده، ولهذا نراه يؤيد كل من نهج منهجه هذا، ويصفه بأنه سيف السنة ولسان الأمة ومن أهل الحق. ويرفض ما يخالفه من مذاهب المتكلمين، المتعددة الاتجاهات، ويصف أصحابها بأنهم من أهل الزيغ والنفاق والضلال.

وقد أسهب في حديثه عن الفرق الكلامية، فلا يكاد جزء من أجزاء جامعته يخلو من ذكرها وبيان أصولها، ونقدها بمعايير أهل السنة والحق⁽²⁾. كما أنه لم ينس أن يتعرض في نقده للمتصوفة الذين يقتحمون المهامه والقفار، دون اتخاذ الزاد في الأسفار، زعماً منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار⁽³⁾، ويصفهم بأنهم الجهلة الأغمار⁽⁴⁾، والرعاغ الذين لا يرون حفظ أموالهم وتنميتها. فيخرجون عن جميعها، ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعبالهم، وإذا احتاجوا يتعرضون لمن الإخوان، أو يأخذون من أرباب الدنيا وظلمتهم. وهذا الفعل مذموم منهي عنه⁽⁵⁾.

(1) المرجع السابق ج 1 ص 382 .

(2) أنظر مثلاً ج 1 ص 193 ، ج 4 ص 106 - 160 إلى 164 ، ج 7 ص 277 ، ج 5 ص 125 .

(3) ج 11 ص 13 .

(4) قال الزمخشري: «فلان غمر ومغمر، غير مجرب، وهم أغمار» أساس البلاغة 686 طبعة الشعب

سنة 1960 م.

(5) ج 3 ص 417 .

ومن الأمثلة التي نسوقها لبيان ما سلف، وما أشرنا إليه، هو أنه عند تفسير قول الله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾. يذكر في المسألة الثالثة أن بعض المتأخرين والمتقدمين من المتكلمين ذهبوا إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه وهو كافر، فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأول من يبدأ بتكفيره أبأوه وأسلافه وجيرانه. ثم تولى الرد على هؤلاء، وإبطال ما ذهبوا إليه فقال: «قلت: وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه، لأنه ضيق رحمة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلمين، واقتحموا في تكفير عامة المسلمين. أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه لبيول، وانتهره أصحاب النبي ﷺ: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً. فقال النبي ﷺ: (لقد حجرت واسعاً) خرج به البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة. أتري هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان؟ وأن رحمته وسعت كل شيء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان. بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك. ألا تراه لما قال للسوداء: «أين الله؟» قالت: في السماء قال: «ومن أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: (اعتقها فإنها مؤمنة)⁽²⁾. ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة. والله أعلم⁽³⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾⁽⁴⁾ يتحدث القرطبي

(1) الأعراف الآية 185 .

(2) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 95 .

(3) ج 7 ص 332، 333 - راجع أيضاً ج 2 ص 214 .

(4) النساء الآية 17 .

عن مذهبي أهل السنة والمعتزلة فيما يتعلق بـ «توبة العبد المذنب» فيبين أن الأمة اتفقت على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾⁽¹⁾ وتصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه - خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب. ولا فرق بين معصية ومعصية - وهذا هو مذهب أهل السنة. ويقرر أن العبد إذا تاب فإن الله سبحانه وتعالى بالخيار إن شاء قبلها، وإن شاء لم يقبلها. وليس قبول التوبة واجباً على الله من طريق العقل كما قال المخالف، لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم، والمكلف لهم، فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه، تعالى عن ذلك، غير أنه قد أخبر سبحانه وهو الصادق في وعده بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾⁽³⁾. وقوله: ﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾⁽⁴⁾. فأخبره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء. والعقيدة أنه لا يجب عليه شيء عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب. ثم يذكر أن الله عز وجل وعد بقبول التوبة، ولا يخلف في وعده إذا كانت بشروطها المصححة لها، وهي أربعة:

الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله تعالى لا من غيره، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. ولا خلاف فيما أعلمه أن التوبة لا تسقط حداً⁽⁵⁾.

(1) النور من الآية 31 .

(2) الشورى الآية 25 .

(3) التوبة من الآية 104 .

(4) طه الآية 82 .

(5) ج 5 ص 90، 91 .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾⁽¹⁾ يقول في المسألة الثانية:

﴿متجاورات﴾ أي قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات ثم تتفاوت في الثمار والتمر، فيكون البعض حلواً، والبعض حامضاً، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والارشاد لمن ضل عن معرفته، فإنه نبه سبحانه بقوله: ﴿يسقى بماء واحد﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف⁽²⁾.

ثم أخذ في بيان ما يدعيه الملحدون القدماء - وقد تبعهم المحدثون بعد ذلك من إنكار وجود الله ووحدانيته، وآمنوا بأن الطبيعة هي صانعة كل شيء، فتفاعل عناصرها بعضها ببعض. فتخلق ما يسمى إنساناً أو حيواناً أو شجرة. تعالى الله عما يقول الجاحدون علواً كبيراً. يقول صاحبنا في ذلك: «ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وادعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأغراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأغراض فاعلاً، والدليل على أن الحادث لا بد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مخصص خصصه به، ولولا

(1) الرعد الآية 4 .

(2) ج 9 ص 281 .

تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، واستيفاء هذا في علم الكلام»⁽¹⁾ .

وفي موضع آخر من تفسيره، وفي هذا السياق، يؤكد هذه القضية الإيمانية بالأدلة العقلية التي لا ينكرها إلا جاهل أو جهول، ويزيدها بياناً وإيضاحاً فيقول في المسألة الثالثة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة﴾⁽²⁾ «في هذه أدلة ثلاثة، أحدها ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير. الثاني على المنة منه سبحانه علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداءً، لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجني الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها أهل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب كلاً لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية»⁽³⁾ .

وهكذا سار الإمام القرطبي على هذا المنهج العقلي المحض، في جل قضايا الاعتقاد التي ناقشها في تفسيره العظيم، فأقام البراهين المنطقية على صحة عقيدة الإسلام وإبطال وهدم عقائد الكفر. فماذا يا ثرى سيقول، لو قُدِّر له أن يعيش في عصرنا الحاضر، الذي امتلأ بالمذاهب الإلحادية والاتجاهات الكافرة كالوجودية والقاديانية والبهائية وغيرها من الاتجاهات التي تقوم على أساس عبودية البشر للبشر، والتقدیس المطلق للأفكار البشرية التي أثبت العقل السليم النزيه، إبطالها وإفلاسها،

(1) جـ 9 ص 282 .

(2) الأنعام من الآية 141 .

(3) جـ 7 ص 99 .

وعدم صلاحيتها لحياة الناس جميعاً. إنه لا شك - لو عاش - لخاض مع هؤلاء كلهم في معمة فكرية عنيفة، كما خاضها مع متصوفي عصره، وأصحاب المذاهب الهدامة السابقين لهم على صفحات تفسيره: الجامع لأحكام القرآن.

أما الحركة الفقهية فقد كان لشيخنا حظه الأوفى منها، إذ برز فيها، وأصبح علماً من أعلام الفقه الإسلامي، بما آتاه الله من فكر ثاقب، وعقلية ناضجة، ومقدرة عجيبة على فهم آيات الأحكام، لهذا فلا غرو إذا عرف لدى الباحثين والعلماء في العالم الإسلامي بأنه أحد جهابذة الفقهاء المجتهدين الذين أسهموا في إثراء الفقه الإسلامي وازدهاره، بما خلفوه لإخوانهم في العقيدة من كتب الأحكام الفقهية والأصولية وغيرها.

وعلم الفقه الذي اهتم به صاحبنا - كغيره من علماء الإسلام هو «معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكرهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة. فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها: فقه»⁽¹⁾.

وتبدو شخصيته النقدية للحركة الفقهية واضحة في الأمثلة التالية، التي اخترناها - نماذج - من مواضع مختلفة من جامعة لأحكام القرآن. لنبرهن على رسوخ قدمه، وندلل على طول باعه في مجال الفقه الإسلامي المتشعب الأصول والفروع. فنقول وبالله التوفيق:

إن الإمام الفقيه القرطبي قد تحدث عن اختلاف العلماء في إمساك النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه - عليه الصلاة والسلام - بنفاقهم. وذكر أنهم اختلفوا على أربعة أقوال: وفي القول الأول نقل عن بعض العلماء أن النبي ﷺ لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه. وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإنما اختلفوا في سائر الأحكام. ثم نقل - أيضاً - عن القاضي أبي بكر بن

(1) تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 372 .

العربي وجهة نظره الفقهية حيال هذا الموضوع فقال:

«قال ابن العربي: وهذا منتقض، فقد قتل بالمجذّر بن زياد الحارث بن سويد ابن الصامت، لأن المجذّر قتل أباه سويد يوم بعث، فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله، فأخبر به جبريل النبي ﷺ فقتله به، لأن قتله كان غيلة، وقتل الغيلة حد من حدود الله»⁽¹⁾. وبعد ذلك أورد رأيه ونقده لما صرح به القاضي ابن العربي - رحمه الله تعالى - فقال:

«قلت: وهذه غفلة من هذا الإمام، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر، لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي ﷺ وانقطاع الوحي، وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين بوحي، فلا يحتاج بها أو منسوخة بالإجماع. والله أعلم»⁽¹⁾.

ومثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾⁽²⁾ نجده ينقد قول ابن عطية إن زكاة بني إسرائيل هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يتقبل، ولا تنزل على ما لم يتقبل، ولم تكن كزكاة أمة محمد ﷺ. عندئذ قال: «قلت: وهذا يحتاج إلى نقل، كما ثبت ذلك في الغنائم. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص»⁽³⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَلِئِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾⁽⁴⁾. يذكر في المسألة السادسة أن جمهور العلماء ذهبوا إلى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يقيم البيعة على قتله، ثم نقل عن الإمام الأوزاعي قوله: يعطاه بمجرد دعواه، وليست البيعة شرطاً في الاستحقاق، بل إن اتفق ذلك فهو الأولى دفعاً

(1) ج 1 ص 198 .

(2) البقرة من الآية 83 .

(3) ج 2 ص 17 .

(4) الأنفال من الآية 41 .

للمنازعة. ألا ترى أن النبي ﷺ أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين. وبعد ذلك يقرر أنه سمع من شيخه المنذري خلاف ما صرح به الأوزاعي فيقول: «قلت: سمعت شيخنا الحافظ المنذري الشافعي أبا محمد عبد العظيم يقول: إنما أعطاه النبي ﷺ السلب بشهادة الأسود بن خزاعي وعبدالله بن أنيس وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال، ويطرد الحكم»⁽¹⁾.

ومثلاً عندما فسر قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجْلِ مَسْمِيٍّ فَاتَّكَبُوهُ وَكَلِمَتُكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ﴾⁽²⁾. يبين أن الإمام أبا حنيفة - رضي الله عنه - لا يرى بأساً في قبول شهادة كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر وإن كان مجهول الحال، فهو عنده عدل، وهذا فيما يخص المدائنة. كما أنه يرى أن النكاح ينعقد بشهادة فاسقين، دون أن يتحقق الرضا والعدالة في الشهداء. والمقصود بالعدالة هنا هي الاعتدال وفي الأحوال الدينية، وذلك يتم بأن يكون متجنباً للكبائر محافظاً على مروءته وعلى ترك الصغائر، ظاهر الأمانة غير مغفل. وما ذهب إليه أبو حنيفة لم ينل رضا وموافقة القرطبي، فأخذ في نقد ما ذهب إليه هنا وبيان ضعفه فقال: «قلت: قول أبي حنيفة في هذا الباب ضعيف جداً، لشرط الله تعالى الرضا والعدالة، وليس يعلم كونه مرضياً بمجرد الإسلام، وإنما يعلم بالنظر في أحواله حسب ما تقدم. ولا يغتر بظاهر قوله: أنا مسلم. فربما انطوى على ما يوجب رد شهادته، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾⁽³⁾. إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ﴾. وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتُمْ تَعْجَبُكُمْ أَجْسَامُهُمْ﴾⁽⁴⁾ الآية»⁽⁵⁾.

(1) ج 8 ص 8، 9.

(2) البقرة من الآية 282.

(3) البقرة الآيتان 204 - 205.

(4) المنافقون الآية 4.

(5) ج 3 ص 395، 396، 397.

وعلى الرغم من أن مذهب صاحبنا الفقهي - كما قلنا - هو مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، إلا أنه لم يكن مناصراً ومؤيداً لكل ما يقرره المذهب بل إنه يتميز باتباع الدليل الشرعي، فما يراه المذهب ولم يقم عليه دليلاً، فإنه يرفضه إذا كان لديه دليل على صحة الرأي الذي لم يأخذ به المذهب المالكي ولكي يتضح هذا الأمر نذكر قوله الذي نص عليه في المسألة الرابعة عشر، من أنه «لا يركع من دخل المسجد والإمام يخطب، عند مالك رحمه الله. وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره. وفي الموطأ عنه: فخرج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام. وهذا مرسل⁽¹⁾. وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ: (إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما). وهذا نص في الركوع. وبه قال الشافعي وغيره»⁽²⁾. فقوله: «وهذا نص في الركوع» يدل على أنه يخالف ما ذهب إليه المذهب من إبطال الصلاة والكلام أثناء الخطبة. ويضاف إلى دليله الذي ساقه دليل آخر وهو قوله ﷺ فيما رواه عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: (أصليت)؟ قال: لا قال: (قم فصل ركعتين)⁽³⁾.

وفي موضع آخر نجده يؤيد ما ذهب إليه الإمام مالك، ويعارض ما رآه الإمام الشافعي - رضي الله عنهم جميعاً - من أنه على المسلم أن يترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ ما وقع من ذلك من البيع في وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة، خلافاً لما في المذهب الشافعي من أن البيع عنده في هذا الوقت ينعقد ولا يفسخ. ثم ينقل عن تفسير الزمخشري - تأييداً للشافعي - قوله: إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدي إلى فساد البيع، لأن البيع لم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن

(1) الموطأ ج 1 ص 96 طبعة سنة 1370 هـ.

(2) ج 18 ص 117 .

(3) البخاري ج 2 ص 15 طبعة الشعب - مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 114 .

الواجب، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب. ثم نقل - أيضاً - عن بعض الناس أنه فاسد. وبعد هذا كله يدعم الإمام القرطبي ما رآه مذهبه بالدليل الشرعي، ويعتبره القول الصحيح فيقول: «قلت: والصحيح فساده وفسخه، لقوله عليه الصلاة والسلام: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)»⁽¹⁾ أي مردود. والله أعلم»⁽²⁾.

بعد هذه الأمثلة تتضح لنا شخصية القرطبي الفقهية بشكل لا يدع مجالاً لقادح من أنه كان رجلاً جامعاً وناقلاً، أكثر من أنه كان مجتهداً يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية. فهذه الأمثلة - وغيرها كثير - تبين مكانته من الفقه الإسلامي، وهي حجة له في تبوئه هذه المكانة العلمية العظيمة. وأنه رجل لا يعرف التعصب المذهبي إلى قلبه سبيلاً. فهو - كما قلنا - مع الدليل الشرعي حيثما كان. وبعبارة أوضح فهو لا يرتبط بالأشخاص لمجرد أشخاصهم وذواتهم، وإنما يرتبط بالفكر الصحيح الذي يستند إلى أدلة صحيحة قوية.

ولما كان إمامنا الفاضل قد اتخذ الإسلام مصدر تفكره، والواقع الذي كان يعيشه موضع تفكيره، بمعنى أنه قد استمد آراءه وأفكاره وأحكامه فيما يتعلق بنظام حياته الخاصة والعامة من عقيدته ودينه. فهو حيثما كان الشرع كان تفكيره ووجهة نظره، وبمعنى آخر فإنه قد ربط تفكيره بعقيدته، فحيثما كانت عقيدته وجه أعماله وسلوكه وفقاً لمقتضياتها ودوافعها. أما الواقع الذي عاصره، وخالط أهله واتجاهاتهم الفكرية المختلفة، فكان له أثره الكبير على نفسيته وتفكيره. وليس معنى هذا أنه قد استمد تفكيره وقوانين حياته من أعراف الناس وعاداتهم وأوضاعهم بصفة عامة، التي لا تقوم على أساس من الإسلام وأحكامه، وإنما كان ينظر إليها بمنظار دقيق ومنهج

(1) البخاري ج 9 ص 132 - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 95 صدر الحديث فيهما «من عمل عملاً... الخ».

(2) ج 18 ص 108 .

واضح محدد لديه، إنه الإسلام وحده. لهذا فهو يؤيد ويقف مسانداً لكل اتجاه أو فكرة أو رأي لا يصطدم مع أحكام الإسلام وحقائقه. كما أنه ينقد ويقف - بكل جرأة وإخلاص - ضد الاتجاهات المخالفة للإسلام - سواء أكانت هذه الاتجاهات في المجال السياسي أو الاجتماعي أو الحربي، فهو يبين عيوب مجتمعه ومساوئه، ويضع العلاج الذي يراه ناجعاً ومفيداً. وهو علاج قد استمد أصوله من الإسلام الذي قال الله عنه: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾⁽¹⁾.

وكانت ثورته النقدية التي أعلنها وبين معالمها في تفسيره العظيم، مبنية على إيمانه بأن المسلم لم يخلق في هذه الحياة ليعبث ويلهو، كما يفعل الملحدون الذين يقولون ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾⁽²⁾ وإنما خلق من أجل أداء رسالة مقدسة، هي تبليغ الناس للحق الذي ما بعد حق ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾⁽³⁾ وتوجيههم الوجهة التي فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة، وتوعيتهم على واقعهم الذي يعيشونه، فيحافظون على ما فيه من محاسن وأفكار وسلوك قائم على أسس الإسلام، ويغيرون ما يرونه من منكر وضلال، هو أقرب ما يكون من شرعة الشيطان.

وفي هذا المعنى يروى عن طارق بن شهاب أنه قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة؟ فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)⁽⁴⁾.

(1) آل عمران الآية 85 .

(2) الجاثية من الآية 24 .

(3) يونس من الآية 32 .

(4) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 16 .

وقد التفت القرطبي نفسه - رحمة الله تعالى عليه - إلى ما نحن بصدد الحديث عنه من اتخاذ الإسلام مصدراً للتفكير والواقع موضعاً له. فهو يقرر أنه يجب على المسلم أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله تعالى مراده وما فرض عليه، ويعرف المكّي من المدني ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخره، وما افترض في أوله وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، وينظر في السنن المأثورة الثابتة عن النبي ﷺ، فبها يصل إلى مراد الله عز وجل، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً⁽¹⁾. وينبغي أن يكون عالماً بأهل زمانه متحفظاً من سلطانه⁽²⁾.

وعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾⁽³⁾ نلاحظ عليه ربط تفكيره بعقيدته وتغيير ما يراه الإسلام منكرأ. فهو يقرر أن دخول المرأة المسلمة للحمام العمومي للتطهر والغسل أمر لا ينبغي لها فعله، بل الأولى بها والأفضل أن يكون ذلك في بيتها، لما رواه سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول: لقيني رسول الله ﷺ وقد خرجت من الحمام فقال: (من أين يا أم الدرداء؟) فقالت: من الحمام، فقال: (والذي نفسي بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمهاتها إلا وهي هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن عز وجل).

وبعد أن استمد شيخنا الجليل الحكم الشرعي في هذه المسألة من الإسلام نظر إلى ما يحيط به من أوضاع اجتماعية تخالف أحكام الإسلام فقال:

«قلت: أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين، لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمام رموا مآزرهم، حتى يرى

(1) التذكار ص 58، 59 .

(2) المرجع السابق ص 62 .

(3) النور الآية 30 .

الرجل البهي ذو الشبية قائماً منتصباً وسط الحمام وخارجه بادياً عن عورته ضمناً بين فخذه ولا أحد يغير عليه. هذا أمر بين الرجال فكيف من النساء! لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم⁽¹⁾.

ولكي تتبلور تلك الثورة التقديية - التي أشرنا إليها - وتتضح رؤية أحكام الإسلام للذين جعلوها وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وعبدوا المجتمع وجعلوه حجة على الشرع وحاكماً عليه، في الوقت الذي جاء الإسلام ليكون حاكماً عليه لا محكوماً به. نذكر - على سبيل المثال لا الحصر - أمثلة اخترناها من جامعه لأحكام القرآن. وقبل عرضها نوجز نقده للمجالات الثلاث - التي سبق ذكرها - ففي المجال السياسي نجده ينقد الحكام الذين اتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين، يفاوضونهم في الآراء ويسندون إليهم أمورهم ويقبلون انحناء الرعية عند تقائهم بهم، وإنزال الهوان والذلة والبطش بها، وإقرارهم للقراء الذين يقرؤون أمامهم ليأخذوا الأجور والجوائز منهم، وقبولهم للرشوة التي وصف النبي ﷺ فاعلها بأنه ملعون فيروى عن عبدالله بن عمرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لعنة الله على الراشي والمرتشي) رواه الخمسة إلا النسائي وصححه الترمذي⁽²⁾.

وفي المجال الحربي يبين ما آلت إليه حال المسلمين من حب الدعة وترك القتال الأمر الذي نتج عنه ذلتهم وذهاب أمرهم، وسيطرة الكفار عليهم، وإهلاك وسبي بعضهم لبعض، وفقدان التحريض على القتال، وعدم الاقتداء بأولئك الذين حملوا أرواحهم على أكفهم لينالوا إحدى الحسينيين: الشهادة أو النصر المظفر على الأعداء من الصحابة والمجاهدين الأولين.

وفي المجال الاجتماعي ينقد الأوضاع والأحوال الاجتماعية التي عاصرها

(1) جـ 12 ص 224 .

(2) الشوكاني: نيل الأوطار جـ 8 ص 267 - الطبعة الأولى سنة 1357 هـ - القاهرة.

وشاهدها بأمر عينيه فيذكر ما أحاط بجهلة المتصوفة من السجود لمشايخهم، واتباعهم لسلوك ما أنزل الله به من سلطان من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام، والإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من المعازف والأوتار. ويبين ما أحدثه المسلمون من تلقاء أنفسهم في الدين خلافاً لما جاء به كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فضلوا وأضلوا، وما زخرت به الأسواق من النساء المتبرجات اللاتي فقدن الحياء والإيمان.

ففي باب (كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها وما يحرم) يبين أن ترديد الأصوات وكثرة الترجيعات في قراءة القرآن، إذا أدت إلى عدم فهمه، فذلك حرام «كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم، وخاب عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجترار على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلاً بدينهم، ومروقاً عن سنة نبيهم، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعاً إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإننا لله وإنا إليه راجعون! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ: «وهو قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو عبدالله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول» اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإيّاكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»⁽¹⁾.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ...﴾⁽²⁾ ذكر أن المعنى: لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا

(1) الجامع ج 1 ص 16، 17 - التذكار ص 120، 121 .

(2) البقرة من الآية 188 .

لكم على أكثر منها. وقد رجح ابن عطية هذا المعنى لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل. ثم علق القرطبي على قول ابن عطية بقوله:

«قلت: فالحكام اليوم عين الرشاء لا مظنته، ولا حول ولا قوة إلا بالله!»⁽¹⁾.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾ أورد أقوالاً صحابية تفيد أنه يجب على الحاكم المسلم أن يستعين على أمور رعيته بالذين يخشون الله تعالى، ولا يجوز له استكتاب أهل الذمة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم. ثم تحدث عما شاهده في مجتمعه الذي كان يعيش فيه فقال:

«قلت: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كنية وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى)⁽³⁾. وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: (لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم غريباً) فسره الحسن بن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم محمداً. قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ﴾⁽⁴⁾ الآية.

وعندما تناول تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ﴾⁽⁵⁾ ذكر أن

(1) ج 2 ص 340 .

(2) آل عمران الآية 118 .

(3) البخاري ج 9 ص 95 طبعة الشعب.

(4) ج 4 ص 179، 180 .

(5) الشعراء الآية 130 .

البطش هو السَّيْطْرَة والأخذ بالعنف وأنه يكون باليد وأقله الوكر والدفع، ويليهِ السوط والعصا، ويليهِ الحديد، والكل مذموم إلا بحق. ثم بين أن هذه الصفات موجودة في المجتمع الذي عاصره، والذي كان يحكمه المماليك البحرية الذين ساد عهدهم شيء من العنف والتسلط، كما حدث مع شجرة الدر حين قتلت المعز عزالدين أيك التركماني شر قتلة سنة 655 هـ⁽²⁾. وكما حدث لها على يد ابنه المنصور علي بن المعز⁽³⁾. وفي السنة التي تولى فيها المماليك حكم مصر وهي سنة 648 هـ كثر ضررهم ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال، وسبوا الحرير وبالغوا في الفساد⁽⁴⁾. وفي سنة 652 هـ استفحل أمر الفارس أقطاي الجمدار، وانحازت إليه البحرية فأخذت أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر أحد أن يمنعهم من ذلك. وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غضباً⁽⁵⁾. ولعل إمامنا القطري استنكر - لهذا السبب - دخول المرأة المسلمة للحمامات، حفاظاً على عرضها وكرامتها. كما أشرنا إلى ذلك⁽⁶⁾.

وهذه التصرفات المملوكية لم ترضه، بل أعلن سخطه عليها، وبين سوء حكمهم للرعية فقال:

«قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية، فييطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون

(1) الشعراء الآية 130 .

(2) أنظر تحفة الناظر 129 طبعة سنة 1303 هـ.

(3) أنظر النجوم الزاهرة ج 7 ص 175 .

(4) المقرئزي - السلوك ج 1 القسم الثاني 380 .

(5) المقرئزي - السلوك ج 1 القسم الثاني ص 389, 390 .

(6) أنظر ص 270 من كتابنا هذا.

بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»⁽¹⁾ .
 وخرج أبو داود من حديث⁽²⁾ ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا تبايعتم بالعينة⁽³⁾) وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)⁽⁴⁾ .

وعند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سَجْدًا﴾⁽⁵⁾ يذكر أنه قد قيل في معنى السجود أنه كان انحناء كالركوع، ولم يكن خروراً على الأرض. وهكذا كان سلام وتحية الملوك في زمن يوسف عليه الصلاة والسلام بالتكفي والانحناء. بعد أن ذكر ما خص به قوم يوسف عليه السلام، أورد انطباعات عما يدور في مجتمعه بين الحكام ورعاياهم فقال: -

«قلت: هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صارت عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى أن أحدهم إذا لم يقيم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثية مستقرة، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نكبوا عن السنن، وأعرضوا عن السنن. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: لا، قلنا: أفيعتق بعضنا بعض؟ قال: (لا) قلنا:

(1) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 128 .

(2) قال عنه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: أنه حديث صحيح لمجموع طرقه - أنظر كتابه: سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول ص 15 رقم الحديث (11) .

(3) العينة: أن تباع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بعثها به. وقد كره العينة أكثر الفقهاء. وروى فيها النهي عن عائشة وابن عباس. لسان العرب ج 17 ص 181 - الطبعة المصورة عن طبعة بولاق.

(4) ج 13 ص 124، 125 .

(5) يوسف من الآية 100 .

أفصاف بعضنا بعضاً؟ قال: (نعم) خرج أبو عمر في التمهيد⁽¹⁾ .

ويلاحظ أن صاحبنا - رحمه الله تعالى - لا يترك مناسبة لها علاقة بالوضع السياسي إلا ربط ذلك بواقعه وحكام عصره، ناقداً ومبيناً ما آل إليه حالهم من التدهور والضعف وتغيير حكم الله وتبديله. فمن ذلك أنه لما ذكر قول أبي ذر رضي الله عنه: «يوشك أن يأتي على الناس زمان يغبط فيه خفيف الحاذ كما يغبط اليوم أبو عسرة ويغبط الرجل باختفائه عن السلطان وجفائه عنه كما يغبط اليوم بمعرفته إياه وكرامته عليه وحتى تمر الجنازة في السوق على الجماعة فينظر إليها الرجل تهتز بهذا رأسه فيقول يا ليتني مكان هذا» قال (عبدالله بن الصامت) قلت: يا أبا ذر وإن ذلك من أمر عظيم قال: «أجل يا ابن أخي عظيم عظيم»⁽²⁾ ثم يعلق على هذا بقوله: «هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق فباعوا الأحكام ورضي بذلك منهم الحكام فصار الحكم مكساً والحق عكساً لا يوصل إليه ولا يقدر عليه. بدلوا دين الله وغيروا حكم الله ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ و﴿والظالمون﴾ و﴿والفاسقون﴾⁽³⁾ في الكفار خاصة، وقيل عامة فيمن بدل حكم الله وغيره. قال رسول الله ﷺ: «لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال: «فمن»⁽⁴⁾ ولقد أحسن ابن المبارك حيث يقول في أبيات له:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها⁽⁵⁾

(1) جـ 9 ص 265 - أورد الشيخ الألباني في سلسلته: الأحاديث الصحيحة حديثاً يتفق معنى

ويختلف لفظاً مع ما خرج ابن عبد البر. المجلد الأول رقم الحديث (160) .

(2) القرطبي - التذكرة 631 .

(3) المائدة الآيات 44، 45، 47 .

(4) المنذري - مختصر صحيح مسلم جـ 2 ص 291 - البخاري جـ 9 ص 126 .

(5) التذكرة 631، 632 .

وفي موضع آخر من (التذكرة) يذكر ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال بينا نحن عند رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه. فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم بل لم يسمع ما قال. حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة؟ قال ها أنا يا رسول الله ﷺ قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قال: وكيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله) أي أسند وجعل إليهم وقلدوه. بمعنى الإمارة كما في زماننا اليوم، لأن الله ائتمن الأئمة والولاة على عباده وفرض عليهم النصيحة لهم لقوله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)⁽³⁾ فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر في أمور الأمة. فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي فرض الله عليهم. وخرج مسلم من حديث جبريل الطويل وفيه قال: أخبرني عن الساعة قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) قال: فأخبرني عن أماراتها قال: (أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان)⁽⁴⁾ (5) وإتماماً لهذا المعنى فقد نقل عن قتادة معنى قوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾⁽⁶⁾ ﴿صم﴾ عن استماع الحق، ﴿بكم﴾ عن التكلم به، ﴿عمي﴾ عن الإبصار له. ثم قال:

«قلت: وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي ﷺ ولاة آخر الزمان في

(1) التذكرة 631، 632 .

(2) صحيح البخاري جـ 1 ص 23 طبعة الشعب مع وجود اختلافات بسيطة بين الروايتين.

(3) البخاري جـ 9 ص 77 - مختصر صحيح مسلم جـ 2 ص 87 بزيادة (ألا) في كل منهما.

(4) أنظر البخاري جـ 1 ص 20 . المعنى واحد واللفظ مختلف.

(5) التذكرة 641، 642 .

(6) البقرة الآية 18 .

حديث جبريل: (وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها). والله أعلم⁽¹⁾.

أما حديثه عن الجهاد في سبيل الله، وعما أحاط بالمسلمين من الحروب والتشريد وسقوط بلدانهم في أيدي الكفار، فقد كان حديثاً مرأً، مؤلماً، ذا أثر عميق في نفسه، فهو يتألم لما أصابهم، ويبين الأسباب التي ضعفت أمرهم، وأذهبت ريحهم ويضع - في الوقت نفسه - العلاج، لمواجهة هذه الكوارث ما ظهر منها وما بطن. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾⁽²⁾ ينقل عن أبي عبيدة قوله: «وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم»⁽³⁾ ثم يعقب عليه بقوله:

«قلت: وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟ وأسر وقتل وسبي واسترق، فإننا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته»⁽³⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾⁽⁴⁾ فبعد أن ذكر أن هذه الآية جاءت تحرض المسلمين على القتال والاستشعار للصبير، والافتداء بمن صدق ما عاهد الله عليه، يقول:

«قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما

(1) الجامع جـ 1 ص 215 .

(2) البقرة الآية 216 .

(3) الجامع جـ 3 ص 39 .

(4) البقرة من الآية 249 .

تقاتلون بأعمالكم⁽¹⁾ وفيه مسند أن النبي ﷺ قال: (هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم) فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله﴾⁽²⁾ وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾⁽³⁾ وقال: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾⁽⁶⁾. فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ومن الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، براً وبحراً، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم⁽⁷⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾⁽⁸⁾ فيعد أن بين أن الله سبحانه وتعالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهاوا عن المنكر ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾⁽⁹⁾ يقول: «قلت: ويدل عليه قوله عليه السلام في حديث ثوبان (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً

(1) البخاري ج 4 ص 24 .

(2) آل عمران من الآية 200 .

(3) المائدة من الآية 23 .

(4) النحل الآية 128 .

(5) الحج من الآية 40 .

(6) الأنفال من الآية 45 .

(7) ج 3 ص 255 .

(8) النساء من الآية 141 .

(9) الشورى من الآية 30 .

ويسبي بعضهم بعضاً⁽¹⁾ وذلك أن (حتى) غاية، فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض، وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين، فغلظت شوكة الكافرين واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقله، فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه⁽²⁾ .

أما ملاحظاته وانطباعاته عن الحياة الاجتماعية فإنه - كعادته - لم يعجبه ما يستقبحه الشرع الإسلامي ويراها منكراً، فنبه إليه وحذر المسلمين منه. فمثلاً عندما ذكر حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه في سننه والبيهقي في صحيحه عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا» فقال: يا رسول الله، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك، قال: «فلا تفعل فإنني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها لو سألها نفسها وهي على قتب⁽³⁾ لم تمنعه⁽⁴⁾ لفظ البستي بعد ذلك قال: «قلت: وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذته جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وإستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه، ضل سعيهم وخاب عملهم⁽⁴⁾» .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾⁽⁵⁾ يذكر أن الله سبحانه

(1) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 2 ص 291 .

(2) ج 5 ص 420 .

(3) القتب: معناه أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة. ج 1 ص 293 .

(4) ج 1 ص 293, 294 .

(5) الأنفال الآية 2 .

وتعالى قد وصف عباده المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه» فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾⁽¹⁾ فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقته، فمن كان مستناً فليستنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أحسنهم حالاً، والجنون فنون.... روى الترمذي في صحيحه عن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب⁽²⁾. الحديث. ولم يقل: زعقنا ولا رقصنا ولا زفتنا⁽³⁾ ولا قمنا⁽⁴⁾.

وعند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوكَ مِنْ دُونِهَا لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾⁽⁵⁾ ينقل عن ابن عطية قوله: «تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم يبين بطلان هذا التعلق وسقمه فيقول:

(1) المائدة الآية 83 .

(2) ذكره ابن عبد البر في جامعه ج 2 ص 222 .

(3) زفن (من باب ضرب): رقص، وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل: كما يفعل الراقص. المحقق ج 7 ص 366 (هامش).

(4) ج 7 ص 365, 366 .

(5) الكهف الآية 14 .

«قلت: وهذا التعلق غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان، هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء»⁽¹⁾.

ومثلاً عندما فسر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لَمْ يَلْحَقْ بِهِ سَخِيمَةٌ أَوْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾ ذكر ما روي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار)⁽³⁾ ثم علق الإمام القرطبي على هذه الرواية بقوله: «قلت: هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكباً على الظلم! حريصاً عليه لا يقلع، والسبحة في يده زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف. وفي التنزيل ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾⁽⁴⁾»⁽⁵⁾.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾⁽⁶⁾ نقل عن القاضي ابن العربي قوله: «أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها، لأن ذلك

(1) ج 10 ص 366 .

(2) آل عمران الآية 135 .

(3) ج 4 ص 210 .

(4) البقرة من الآية 231 .

(5) ج 4 ص 211 .

(6) الفرقان الآية 20 .

إسقاط للمرءة وهدم للحشمة»⁽¹⁾ بعد أن نقل هذه الفقرات من أحكام القرآن لابن العربي⁽²⁾ عقب على ذلك بقوله:

«قلت: ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعماً هو، فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهم، إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه»⁽¹⁾.

هذا هو موقف إمامنا الجليل - القرطبي - من الآخرين، ونقده السياسي والحربي والاجتماعي اللاذع الذي سلط فيه الأضواء على ما شاهده من تصرفات وأعمال يستنكرها الإسلام ويستقبحها. وينبغي للعالم المسلم ألا يقف صامتاً، لا يحرك ساكناً إزاءها، بل عليه توعية المسلمين وتحذيرهم من مغبة نتائجها وهذا ما فعله صاحبنا بدافع تقوى الله تعالى ومحبه ومرضاته. وكان في نقده لتلك الأوضاع - على جميع المستويات - دلالة قوية على أنه لم يخش في تبليغ الحق وبيان مساوئ بعض معاصريه لومة لائم. ونحن لا نعلم ماذا جر عليه هذا النقد البناء، الهادف من مخاطر ومتاعب، كما لا نعلم أن تفسيره قد ذاع صيته واشتهر ذكره في حياته وعرف الناس ما يحتويه. والذي نعلمه أن هذا التفسير قد كتب سنة (766 هـ) في حياة ابنه شهاب الدين أحمد في عصر المماليك البحرية الذين ظل حكمهم لمصر من سنة (648 هـ) إلى سنة (784 هـ).

وعلى الرغم مما وصفه من بطش الحكام وانتشار الفساد والرشوة وتبرج النساء في المجتمع، إلا أننا لا نميل إلى القول بأن نظام الإسلام كان مفقوداً فقداناً تاماً من حياة المسلمين. والذي يذهب هذا المذهب عليه أن يثبت النظام البديل لنظام

(1) جـ 13 ص 17 .

(2) القسم الثالث 1403 الطبعة الأولى 1377 هـ - 1958 م.

الإسلام. فإساءة الفهم في التطبيق ووجود انحرافات لدى بعض الحكام والولاة - وهذا أمر طبيعي - لا يجعلنا نحكم بأن نظاماً غير نظام الإسلام كان مطبقاً وسائداً في حياة المجتمع الإسلامي. فالقرطبي الذي نقد المماليك البحرية نجده يشي ويقدر الموقف الخطير الذي واجهه الملك المظفر سيف الدين قطز حين قابل الجيوش التترية المدمرة، فحمى أعراض المسلمين من الهتك والذلة، وبلادهم من السقوط والخراب. كما سبق أن بينا ذلك فيما مضى من أبحاث⁽¹⁾. كما أن بعض حكام عصر القرطبي كان يستشير العلماء في حل مشاكل الرعية وأزماتها. ويذلل قصارى جهده في استتباب الأمن وتوفير ما يلزم من متطلبات الحياة ومستلزماتها. كما مر ذلك بشيء من التفصيل والبيان⁽²⁾. وليس معنى هذا أننا نتصور المجتمع الإسلامي - في ذلك الوقت - مجتمعاً ملائكياً لا يخطيء فيه الإنسان ولا تقع منه بعض الاتجاهات والتيارات المنحرفة، ويسير في حياته مستقيماً كالسطرة لا تميل به الأهواء ولا تتجاذبه الميول والرغبات الشريرة. ليس الأمر كذلك، بل هو مجتمع مكون من مجموعات بشرية تتصف بالجهل والضعف والعجز، وإنما الذي نريد أن نؤكد أنه الإسلام هو الذي كان يسود في معظم شؤون حياة المسلمين.

ومن طبيعة العلماء والدعاة المخلصين أن يستنكروا ظلم الظالم وبشاعة السلوك الخاطيء، ويعلنوا مقتهم وغضبهم على كل ذلك. والقرطبي كان أحد هؤلاء العلماء الذين شعروا بواجبهم نحو ربهم وأمتهم، فاستنكروا ما رأوه منكراً، وشرعوا في تغييره امتثالاً لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)⁽³⁾ ولا شك في أنه كان لهذا أثره البالغ في حياة مجتمعه.

وماذا يا ترى لو قدر للقرطبي أن يعيش حياتنا الحاضرة التي ظهر فيها الفساد في البر والبحر والجو؟ ماذا سيقول، وبما يصف هذه الحياة التي كادت أن تنعدم فيها

(1) انظر ص 63 - 64 - 68 من هذا الكتاب .

(2) انظر ص 81 من هذا الكتاب .

(3) المنذري - مختصر صحيح مسلم ج 1 ص 16 .

تقوى الله تعالى ومراقبته في السراء والضراء، والتزام أحكامه في جميع شؤون الحياة؟ إنه سيكون أشد ألماً وحسرة على ما أصاب المسلمين من الضياع والفراغ الفكري والبعد عن الإسلام، وتسלט أفكار الكفر على أدمغة الكثيرين ممن ينتسبون إلى الإسلام بشهادات ميلادهم دون أن يزكوا ذلك بشيء في حياتهم العملية يؤكد انتسابهم للإسلام ويقيم دليلاً عملياً على صحة دعواهم.

**مكانة تفسير القرطبي عند المفسرين
وأثره فيمن جاء بعده منهم**

مكانة تفسير القرطبي عند المفسرين وأثره فمن جاء بعده منهم

إن القرطبي - رحمة الله تعالى عليه - قد أضاف بتأليفه لكتاب التفسير لبنة صلبة في بناء المدرسة الإسلامية التي أنجبت كبار العلماء وجهابذة المنكرين، وأساطين العلم والمعرفة الذين أسهموا بدور عظيم في تقدم الإنسانية وازدهارها.

هذا وينبغي أن نذكر أنه قد أضاف إلى التفسير القرآني أشياء تميزه عن غيره من المفسرين. منها: أنه قد فصل تفصيلاً مسهباً في تفسير آيات الأحكام. فعلى الرغم من أن كتابه الجامع أعده لتفسير القرآن الكريم، إلا أن ما أورده فيه من أحكام الفقه الإسلامي يكاد يدل على أن كتابه هذا كتاب فقه، يغني الباحث عن مراجعة أمهات كتب الفقه ومذاهبه المتعددة. فما من آية من آيات الله البينات التي لها علاقة بالأحكام، إلا وأسهب فيها القول والبيان متحدثاً عنها في المذاهب الفقهية المختلفة، ومناقشاً أصحابها، ومبيناً وجهات نظرهم، مرجحاً لبعضها، وناقداً لبعضها الآخر. وهو في هذا كثير الاستشهاد بأقوال مذهبه المالكي. ولا يكاد يخلو جزء من أجزاء تفسيره من ذكر مسائل فقهية وأحكام شرعية: في الصلاة والزكاة والصيام والحج والارث واللقطة والمزارعة والخلافة. وغير ذلك من موضوعات الفقه الإسلامي التي تناولها في تفسيره، والتي بقيت - إلى أن وصلت إلينا - لتدل على مكانته الفقهية ومقدرته الفائقة في عرض الأحكام الشرعية واستنباطها من أدلتها التفصيلية.

وكذلك فإنه كان جريئاً في هدم ما يراه مخالفاً لعقيدة أهل السنة، فنراه يرد بشيء من العنف على بعض الفرق الكلامية والفلسفية. الأمر الذي يعطيه صفة العالم الواعي على عقائدها، والمدرك لما تضمنته من اتجاهات وأفكار.

ومن الأمور التي أضافها صاحبنا إلى التفسير ربطه للواقع الذي كان يعيشه بالآيات التي يتناولها بالتفسير والبيان. فهو - كما رأينا - ينقد ما يراه الإسلام منكراً وخروجاً عن الجادة المستقيمة التي رسمها لأتباعه، سواء أكان ذلك في المجال السياسي، أو المجال الحربي أو الاجتماعي. وهو في ربطه هذا يلتزم بالمنهج الإسلامي الذي يحدد الطريق الذي يجب أن يسلكه المسلمون ويسيروا عليه. فهو يعرض الحكم الشرعي ثم يتبعه بتعليق على ما كان يشاهده في مجتمعه وأهل زمانه. ونلاحظ أنه يقيم - في أغلب الأحيان - الحجة والبينة على كل ما يستنكره الإسلام ويراه انحرافاً عما سنه لأتباعه من أحكام وآداب. وقد أشرنا إلى ذلك بشيء من البيان والتفصيل - مع ضرب الأمثلة المتنوعة من تفسيره - في الباب الخامس: (القرطبي الناقد).

وقد نال تفسير القرطبي العظيم مكانة مرموقة لدى العلماء والباحثين الذين استفادوا منه فائدة كبيرة في مسائل الفقه والحديث ومعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والاعراب... الخ وجعلوه على قائمة كتب التفسير المفضلة لديهم، ذلك لأنه «من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً»⁽¹⁾ وقد سارت به الركبان وذاعت شهرته بين علماء الإسلام - قديماً وحديثاً - وما ذلك إلا أن مؤلفه كان حراً في بحثه، نزيهاً في نقده، عفا في مناقشته وجدله، ملماً بالتفسير من جميع نواحيه، بارعاً في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه⁽²⁾.

ووصف الأستاذ أحمد عبد العليم البردوني أهمية هذا التفسير العظيم الشأن بقوله: «ولقد رأى القراء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلفه فيه من جهد كبير، وعناية فائقة، يدلان على عمقه في البحث، ومقدرته على فهم كتاب الله، وإلمامه بأصول علوم الشريعة وفروعها، من لغة وأدب وبلاغة. يتجلى كل ذلك

(1) الداودي - طبقات المفسرين 213 مخطوط.

(2) محمد الذهبي - التفسير والمفسرون ج 3 ص 130 الطبعة الأولى 1381 هـ.

في استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة، حتى ليكاد يستغني به القارئ عن دراسة كتب الفقه، ثم في استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها، مما يشهد له بطول الباع وسعة الأفق⁽¹⁾ وقد رأينا كل ذلك مفصلاً في الأبواب السابقة من هذا الكتاب.

لهذا كله فقد اعتنى المفسرون والعلماء بتخصيص أبحاث ودراسات عن الإمام القرطبي وتفسيره الشهير. فنقلوا عنه كثيراً واعتمدوا عليه في مؤلفاتهم وتفاسيرهم. وقد اختصره الشيخ سراج الدين عمر بن علي ابن الملحق الشافعي المتوفي سنة (804 هـ)⁽²⁾. وجاء في هامش إحدى النسخ المخطوطة من كتاب الذيل والتكملة لابن عبدالله المراكشي تعليق نصه: «هذا هو أبو عبدالله المفسر مصنف التفسير والأحكام، أحكام القرآن الذي لا نظير له، فضله أشياخنا المتأخرون على أكثرها بالأيدي من التفاسير»⁽³⁾.

وكان له أثر كبير على مؤلفي التفاسير القرآنية الذين جاءوا بعده، فنقلوا عنه وأشاروا إلى أهميته وعظم فائدته، إيماناً منهم بقيمته، وشهادة منهم بأن له مكانة علمية رائعة عند الباحثين والمفكرين. ومن هؤلاء:

قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي العلامي الشافعي المولود بشيراز سنة (634 هـ) والمتوفي في 24 رمضان سنة (710 هـ) صاحب تفسير «فتح المنان في تفسير القرآن» وهو كبير في نحو أربعين مجلداً. انتخبه من كتب التفاسير المعتبرة⁽⁴⁾. وقد اشتهر هذا التفسير بـ «تفسير العلامي».

ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بالمصري، وهو يعتمد كثيراً على القرطبي.

(1) الجامع لأحكام القرآن - مقدمة الطبعة الثانية ج 1 .

(2) حاجي خليفة - كشف الظنون ج 1 ص 534 .

(3) نقلاً عن كتاب الذيل والتكملة 585 طبعة 1965 م.

(4) فهرس دار الكتب المصرية ج 1 ص 186 - تفسير. أنظر أيضاً كشف الظنون ج 2 نهر 1235 .

وتفسيره أربع مجلدات⁽¹⁾ .

وصالح بن عمر الكنانى العسقلانى القاهرى (791 هـ / 848 هـ) وتفسيره فى ثلاثة عشر مجلداً⁽²⁾ .

وأبو حفص سراج الدين عمر بن على بن عادل الحنبلى الدمشقى من علماء القرن التاسع الهجرى، صاحب تفسير «اللباب فى علوم الكتاب» (كتب فى آخر سورة من تفسيره أنه فرغ من تأليف تفسيرها فى خامس عشر رمضان سنة 880 هـ أوله: الحمد لله نحمده ونستعينه. تكلم فىه أولاً على الاستعاذة وما يتعلق بها وأكثر فىه من الفصول وطريقته فىه أن يقول عند ذكر الآية أو الآيات قوله تعالى كذا ثم يشرع فى تفسير الآية مبيناً سبب النزول والنسخ وأوجه الأعراب وغير ذلك)⁽³⁾ . من هذا التفسير نسخة فى ثمان مجلدات بدار الكتب المصرىة. بيد أن حاجى خليفة ذكر أنه فى ست مجلدات⁽⁴⁾ .

وابن قيم الجوزىة (691 هـ / 751 هـ) نقل عنه ما يتعلق بموضوع الاستواء فى كتابه: الصواعق المرسله على الجهمة والمعطلة⁽⁵⁾ .

وعماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير، الشافعى المتوفى سنة (774 هـ) وتفسيره المسمى بـ «تفسير القرآن العظيم» وهو فى أربعة أجزاء.

ومحمد بن على الشوكانى (1173 هـ - 1250 هـ) صاحب تفسير (فتح القدير: الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير) فى خمسة أجزاء.

(1) فهرس الدار ج 1 ص 151 تفسير.

(2) عبد الرحمن السخاوى (ت 902 هـ) بغية العلماء والرواة ص 145 طبعة 1360 هـ.

(3) فهرس الدار 196 .

(4) كشف الظنون ج 2 نهر 1543 .

(5) أنظر ج 2 ص 324 طبعة سنة 1380 هـ - أنظر أيضاً الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 219 .

ومحمد بن أحمد الشرييني الخطيب المتوفي سنة (977 هـ) صاحب تفسير «السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير»⁽¹⁾ المعروف بتفسير الخطيب الشرييني. وهو في أربعة أجزاء. طبع بمصر سنة 1285 هـ وتحديث مؤلفه عن المصادر التي اعتمد عليها في تفسيره واستقى منها ثقافته التفسيرية فقال: «وقد تلقيت التفسير - بحمد الله - من تفاسير متعددة⁽²⁾ رواية ودراية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم، واشتهرت وانتشرت مآثرهم جمعني الله وإياهم والمسلمين في مستقر رحمته»⁽³⁾.

وسليمان بن عمر بن منصور العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفي سنة (1204 هـ). وتفسيره «الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية» المعروف بحاشية الجمل، وهو في أربعة أجزاء وقد طبع بمصر سنة 1282 هـ. وأبو الطيب صديق حسن خان القنوجي الهندي المتوفي سنة (1307 هـ) له تفسير «فتح البيان في مقاصد القرآن»⁽⁴⁾.

وهذه التفاسير جميعها قد تأثرت بتفسير إمامنا الجليل ونقلت عنه كثيراً في مجالات علوم القرآن والحديث واللغة والفقه والنحو وأسباب النزول. ولكي يتبين لنا ذلك التأثير والاستفادة - بكل وضوح وجلاء - ننقل - فيما

(1) لمعرفة المزيد عن هذا التفسير ومؤلفه يراجع كتاب: التفسير والمفسرون - محمد الذهبي ج 1 ص 338 - الطبعة الأولى سنة 1381 هـ.

(2) كالقرطبي والزمخشري وابن عطية والواحدي... الخ.

(3) المقدمة ج 1 ص 2، 3.

(4) أنظر التفاسير التالية: أبو حيان الأندلسي - البحر المحيط ج 7 ص 100، 129 طبعة 1328 هـ،

أحمد دم السنغالي - ضياء النيرين الجامع بين علوم الطائفتين ج 2 ص 209، 210، 211،

إسماعيل حقي - تفسير القرآن المسمى روح البيان ج 1 ص 72، 74، 82، 774 طبعة 1264 هـ،

محمد القاسمي - تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل الأجزاء: ج 3 ص 380، 639، ج

4 ص 840، ج 9 ص 3399، ج 13 ص 4659، ج 15 ص 5419، 5559.

يلي - نصوصاً من بعض تلك التفاسير لندرك أهمية تفسير القرطبي، ومدى اقبال علماء الإسلام عليه وتفاعلهم الفكري معه.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾⁽¹⁾ نجد الخطيب الشربيني يفسر لفظ (المنتهى) تفسيراً مماثلاً لما جاء في تفسير القرطبي. ثم استدل - بعد ذلك - بما أورده القرطبي، تأكيداً للمعنى وتدعيماً له، فيقول:

«المنتهى» أي الانتهاء برجع الخلائق ومصيرهم إليه فيجازيهم بأعمالهم وقيل منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الأمل⁽²⁾. وروي أبو هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإن الله تعالى لا يحيط به فكر» وفي رواية «لا تفكروا في الله فإنهم لن تقدروا قدره» قال القرطبي: «ومن هذا المعنى قوله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول⁽³⁾ من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله تعالى)⁽⁴⁾ ولقد أحسن من قال:

ولا تفكرون في ذي العلا عز وجهه فإنك تُردى إن فعلت وتخذل

ودونك مخلوقاته⁽⁵⁾ فاعتبر بها وقل مثل ما قال الخليل المبجل⁽⁶⁾

ويلاحظ أن الإمام الشربيني عند نقله عن القرطبي ينقل عنه - أحياناً - كلاماً قد نقله عن غيره، ونسبه إليه فيقول:

«قال القرطبي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ

(1) النجم الآية 42 .

(2) في القرطبي الأمان ج 17 ص 115 .

(3) وفي جامعه ج 7 ص 348 (فيقول له من خلق كذا... الخ).

(4) البخاري ج 4 ص 149 كتاب بدء الخلق برواية مختلفة وزيادة «وليبته».

(5) في القرطبي مصنوعاته ج 17 ص 116 .

(6) السراج المنير ج 4 ص 137 .

بالبر وتنسون أنفسكم»⁽¹⁾ ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾⁽²⁾ ﴿ويأبىها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾⁽³⁾ . وهذا الكلام نقله القرطبي عن النخعي⁽⁴⁾ فكان ينبغي على الشرييني - رحمه الله تعالى - أن يقول: قال القرطبي نقلاً عن النخعي، مراعاة للدقة وإسناد الأقوال لأصحابها، لأن ذلك من بركة العلم كما يقول القرطبي نفسه. وقد ورد عنده (أن أقص) بدل (أن أفضى).

وفي تفسير سورة «الضحى» يذكر الشيخ الشرييني مسألة التكبير بين كل سورتين ويناقشها، ويبين آراء المجيزين له والمخالفين لذلك خشية من أن يكون ذريعة إلى الزيادة في القرآن. ثم يختتم مناقشته هذه برأي للإمام القرطبي، فيقول:

«قال القرطبي: القرآن ثبت نقله بالتواتر⁽⁵⁾ سورة وآياته وحروفه بغير زيادة⁽⁶⁾ ولا نقصان فالتكبير⁽⁷⁾ ليس بقرآن»⁽⁸⁾ .

أما الشيخ سليمان الجمل فهو يكثر - أيضاً - من النقل في تفسيره «الفتوحات الالهية» عن القرطبي، لذا فقد اعتمد عليه المحققون للجامع لأحكام القرآن، كما اعتمدوا على تفسيري ابن عادل والعلامي، حيث كانوا يراجعونها كلما أبهم عليهم شيء من الأصل.

فمثلاً عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فتين التقتا﴾⁽⁹⁾ .

(1) البقرة من الآية 44 .

(2) هود من الآية 88 .

(3) الصف الآية 2 .

(4) السراج المنير ج 4 ص 273 - الجامع لأحكام القرآن ج 18 ص 80 .

(5) في القرطبي متواتراً.

(6) في القرطبي لا زيادة فيه بدل (بغير زيادة).

(7) في القرطبي: فالتكبير على هذا...

(8) السراج المنير ج 4 ص 554 - الجامع لأحكام القرآن ج 20 ص 103 .

(9) آل عمران من الآية 13 .

ينقل المفسر عن قاموس المصباح وتفسير القرطبي المعنى الذي تدل عليه كلمة «فتين» فيقول: «في المصباح: والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها وجمعها فتات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص ا. هـ. وفي القرطبي: سميت الجماعة من الناس فئة لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة ا. هـ.»⁽¹⁾ .

ونجده - أيضاً - ينقل عن القرطبي سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا هل أدلكم على تجارة...﴾⁽²⁾ فيقول:

«وفي القرطبي ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا هل أدلكم على تجارة﴾ قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون، وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت فطلقت خولة، وترهبت واختصيت وحرمت اللحم، ولا أنام الليل أبداً، ولا أفطر نهراً⁽³⁾ أبداً! فقال ﷺ: ⁽⁴⁾ (إن من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وخصاء أمتي الصوم. ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني) فقال عثمان: وددت ⁽⁵⁾ يا نبي الله أن أعلم أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها فنزلت. وقيل: «أدلكم» أي سأدلكم، والتجارة الجهاد، قال اله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾⁽⁶⁾ الآية. وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب ا. هـ.»⁽⁷⁾ .

وقد ختم الشيخ سليمان الجمل فتوحاته الالهية بخاتمة تحدث فيها عن الآداب التي ينبغي أن يراعيها قارئ القرآن، حين يلتقي مع ربه، ويناجيه ويخاطبه بكلامه

(1) الحاشية ج 1 ص 295 - الجامع ج 4 ص 25 .

(2) الصف من الآية 10 .

(3) في القرطبي بنهار ج 18 ص 87 .

(4) في القرطبي فقال رسول الله...

(5) في القرطبي: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله...

(6) التوبة من الآية 111 .

(7) الحاشية ج 4 ص 394, 395 - الجامع ج 18 ص 87 .

العزیز، ویتلو کتابه الکریم. ونقل تلك الآداب القرآنية من الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي قائلاً: قال القرطبي في مقدمة تفسيره: «باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن واحترامه»⁽¹⁾ وأخذ في سردها ومنها: أن لا يمسك القارئ كتاب الله تعالى إلا طاهراً، وأن يستعيز بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ، ويقرأه على تودة وترتيل، ويستعمل فيه ذهنه وفكره حتى يعقل ما يخاطب به... الخ. وقد أوصل تلك الآداب نحو الأربعين مع ملاحظة أنه توجد اختلافات بسيطة بين فتوحات الجمل وبين النسخة الموجودة لدينا من جامع القرطبي من حيث التقديم والتأخير والحذف في بعض الأحيان»⁽²⁾.

ومن المفسرين الذين نقلوا عن تفسير القرطبي واستفادوا منه الإمامان الجليلان: ابن كثير والشوكاني. فعند قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسُّلُوبَ كَلِمَاتٍ مِّن طَبَاطِبَةٍ﴾⁽³⁾ ينقل المفسر ابن كثير عن ابن عطية تفسيره لمعنى كلمة (السلوى) ثم يبين ما ذكره القرطبي في هذا الخصوص فيقول:

«قال ابن عطية (السلوى) طير بإجماع المفسرين. وقد غلط الهذلي في قوله إنه العسل. وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتمم ألدّ من السلوى إذا ما نشورُها

قال: فظن أن للسلوى عسلاً. قال القرطبي: دعوى الإجماع لا يصح، لأن المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال إنه العسل، واستدل بيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلي به ومنه عين سلوان. وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد بيت الهذلي أيضاً. والسلوانة (بالضم) خرزة كانوا يقولون إذا

(1) الجامع ج 1 ص 27 - 31 - وكذلك في التذكار 122 - 137 .

(2) الحاشية ج 4 ص 733 - 736 .

(3) البقرة من الآية 57 .

صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماءً مزنةً فلا وجديد العيشِ بأمي ما أسلو
واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم، السلوان دواء يسقاه الخزين فيسلو،
والأطباء يسمونه المقرح، قالوا والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضاً كما يقال سُمانى
للمفرد والجمع ودفلى كذلك، وقال الخليل واحدة سلواة، وأنشد:

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر
وقال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوي. نقله كله القرطبي⁽¹⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ
بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽²⁾ فبعد أن
ذكر ابن كثير أن لبن الميتة ويضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره لأنه جزء
منها. واعتبره مالك في رواية أنه طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة. وكذلك أنفحة الميتة
فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة. وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من
جين المجوس. بعد ذلك نقل عن صاحبنا قوله:

«قال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل
النجاسة إذا خالطها الكثير من المائع...⁽³⁾ وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن
الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً فقال لا
تؤكل لأنها ذبحت لصنم. وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما
يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين. فقالت ما ذبح لذلك اليوم فلا
تأكلوا منه واكلوا من أشجارهم...⁽⁴⁾ وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: «فمن

(1) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج 1 ص 97 طبعة 1356 هـ / 1937 م مع شيء من التصرف في
النقل - راجع ج 1 ص 407، 408 تفسير القرطبي.

(2) البقرة الآية 173 .

(3) تفسير القرطبي ج 2 ص 221 .

(4) القرطبي ج 2 ص 224 .

اضطر» أي أكره على ذلك بغير اختياره»⁽¹⁾ .

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾⁽²⁾ يقول ابن كثير: «قال مجاهد ﴿أوحى لها﴾ أي أمرها. وقال القرطبي أمرها أن تنشق»⁽³⁾ وما نقله ابن كثير هنا عن القرطبي بهذا اللفظ لا وجود له في تفسيره. ولعله نقل عنه بالمعنى، أو أن النسخة التي نقل عنها تختلف عن النسخة المطبوعة، المتداولة بيننا إذ ورد عند القرطبي ما نصه: «وقيل المعنى يوم تكون الزلزلة، واخراج الأرض أنقالها تحدث الأرض أخبارها، ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. وروي ذلك عن الثوري وغيره»⁽⁴⁾ .

أما الشوكاني فهو ينقل عن صاحبنا كثيراً حيث اعتمد على تفسيره اعتماداً كبيراً. ويبدو لنا ذلك واضحاً في الأمثلة التي نسوقها من تفسيره: (فتح القدير) فمثلاً في سياق حديثه عن معنى (الفاتحة) وأسمائها وعدد آياتها، ينقل عن الإمام القرطبي قوله: «وقد ذكر القرطبي في تفسيره للفاتحة اثني عشر اسماً...»⁽⁵⁾ وقال القرطبي أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست وهو شاذ⁽⁶⁾ وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية، فهي عنده⁽⁷⁾ ثمان وهو شاذ⁽⁸⁾ انتهى»⁽⁹⁾ .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله

(1) ابن كثير ج 1 ص 205 - القرطبي ج 2 ص 225 .

(2) الزلزلة الآية 5 .

(3) ابن كثير ج 4 ص 539 .

(4) ج 20 ص 149 .

(5) القرطبي ج 1 ص 111 .

(6) في القرطبي: ورد (هذا) في الموضعين بدلاً من (هو).

(7) في القرطبي: وهي على عده ثماني آيات، وهذا شاذ. ج 1 ص 114 .

(8) الشوكاني ج 1 ص 6 .

وبالوالدين إحساناً⁽¹⁾ فبعد أن ذكر الإمام الشوكاني قول قطرب والمبرد من أن جملة قوله تعالى: ﴿لا تعبدون﴾ جملة حالية، إذ التقدير أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين نقل عن القرطبي فقال:

«قال القرطبي وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحزمة والكسائي ﴿يعبدون﴾ بالياء التحتية⁽²⁾ ثم نقل عن الفراء والزجاج وجماعة أن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا الله وبأن تحسنوا بالوالدين وبأن لا تسفكوا الدماء ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها، ثم ذكر أن المبرد خطأ هذا الفهم، لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً. بعد ذلك نقل نقد القرطبي لما أورده المبرد فقال: «قال القرطبي ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد: ⁽³⁾

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغا⁽⁴⁾ وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
بالنصب لقوله أحضر وبالرفع⁽⁵⁾ .

وعندما تناول قوله تعالى: ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم...﴾⁽⁶⁾ بالتفسير ذكر قول أبي عبيدة من أنه يجوز أن يكون (البعض) بمعنى (كل) وأنشد:

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضِهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفُوسِ حَمَائِهَا
بعدئذ نقل عن الإمام القرطبي فقال:

(1) البقرة من الآية 83 .

(2) في القرطبي بالياء من أسفل جـ 2 ص 13 .

(3) في القرطبي سيبويه.

(4) في القرطبي الوغي جـ 2 ص 13 .

(5) الشوكاني جـ 1 ص 90، 91 - ورد عند القرطبي: «فالنصب على اضمار أن، والرفع على حذفها» جـ 2 ص 13 . ولعل الشوكاني اكتفى بما يؤكد ما سبق الكلام من أجله. أو أن النسخة التي نقل عنها تختلف عما في أيدينا.

(6) آل عمران من الآية 50 .

«قال القرطبي وهذا القول غلط عند أهل النظر واللغة، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل. ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرّمته عليهم التوراة، فإنه لم يحلل القتل ولا السرقة ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة في الإنجيل مع كونها ثابتة في التوراة. وهي كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين. ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة كقول الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهو من بعض
أي بعض الشر أهون من كله»⁽¹⁾.

أما صاحب تفسير «فتح البيان في مقاصد القرآن» فقد استفاد من تفسير القرطبي أيضاً حيث نقل عنه في تفسيره. فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾⁽²⁾ نقل عنه قوله:

«وفي هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب إليم﴾⁽³⁾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)⁽⁴⁾ (وهذا محمول على العزم المصمم. وأما ما يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤخذ به) قاله القرطبي»⁽⁵⁾.

(1) الشوكاني ج 1 ص 311 - القرطبي ج 4 ص 96 . مع وجود اختلافات بين النصين حيث تصرف الشوكاني في نقله فحذف وأثبت بعض الألفاظ. وإن كانا يتفقان في المعنى.

(2) القلم الآيات 17، 18، 19 .

(3) الحج من الآية 25 .

(4) البخاري ج 9 ص 5 كتاب الديات.

(5) صديق حسن خان - فتح البيان ص 30 (تفسير الجزأين: عم وتبارك).

وهذا النص يختلف عن النسخة الموجودة لدينا، إذ ورد فيها (ونظير هذه الآية) بدل (ونظيره) وأن الفقرة التي بين القوسين ليس لها وجود في نسختنا التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة⁽¹⁾. وهي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

وعند قوله تعالى: ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾⁽²⁾ يذكر المفسر قول القشيري: «هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت»⁽³⁾ ثم ينقل رأي القرطبي فيقول: «وقال القرطبي والأول أظهر» ولم يبين حجته في هذا الترجيح. وهي التي ذكرها القرطبي نفسه بقوله:

«قلت: والأول أظهر، لما خرج ابن ماجه في سننه من حديث الزهري، حدثني أبو عبدالله الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»⁽⁴⁾.

هذه بعض التفاسير - التي عثرنا عليها - والتي عنى أصحابها بالنقل عن القرطبي. ولعل ما ذكرناه من النصوص والنقول تلقي أضواء ساطعة عن أهمية الجامع لأحكام القرآن، وتقييم دليلاً على رسوخ قدم مؤلفه ونبوغه في مجال التفسير القرآني. أما الباحثون المعاصرون فقد جذبتهم دقة القرطبي في تفسيره، وعنايته بذكر قضايا متعددة من قضايا الفكر والعلم. فاستفاد منه المحدث والفقهاء والنحوي واللغوي والأديب. ووضعوه في مقدمة أمهات المراجع والمصادر الإسلامية. لهذا كله فإن بعض هؤلاء الباحثين قد خصص دراسات وأبحاثاً عن القرطبي. نذكر منهم:

(1) الجامع ج 18 ص 241 .

(2) القيامة الآية 13 .

(3) فتح البيان 153 .

(4) الجامع ج 19 ص 99 .

1 - الشيخ محمد بهجت البيطار: كتب بحثاً عن الجامع لأحكام القرآن، بعد أن هيا الله له من قام بتحقيقه وطبعه لتعم فائدته المسلمين جميعاً. قال في مقدمة هذا البحث: «كنا نسمع بهذا التفسير الجليل، قبل أن نراه، فلما طبع أقبلنا عليه نتصفح أجزاءه، لنقف على خصائصه ومزاياه»⁽¹⁾ ثم أخذ يعدد تلك المزايا والخصائص، التي لفتت انتباهه، من الطبع الأنيق، والورق الجيد، ومقدمته الحافلة ببيان فضائل القرآن وآداب حملته، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به. وطريقة المؤلف في التفسير المتمثلة في أنه يورد الآية أو الآيات ويفسرها بمسائل يجمعها في أبواب. ثم قال: «ينقل المؤلف في هذه المباحث أو المسائل من تفسير المفردات اللغوية وإيراد الشواهد الشعرية إلى بحث اشتقاق الكلمات ومآخذها إلى تصريفها وإعلالها إلى تصحيحها وإعرابها، إلى ما قاله أئمة السلف فيها، إلى ما يختاره المؤلف - أحياناً - من معانيها. أحسن المؤلف كل الإحسان بعزو الأحاديث إلى مخرجيها من أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وقد يتكلم على الحديث متناً وسنداً، قبولاً ورداً، وهو يسند الأقوال إلى قائلها أيضاً (ومن بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله)»⁽²⁾.

2 - الأستاذ أحمد أحمد بدوي: نشر مقالة قيمة عن القرطبي وتفسيره الجليل، عنونها بقوله: (من المفسرين في عصر الحروب الصليبية: القرطبي) وبدأ بترجمة موجزة لحياته، تكلم فيها عن مولده وثقافته وآثاره العلمية وشيوخه ورحلته إلى مصر، وشهادة المؤرخين والمترجمين له. ثم أخذ في وصف منهجه فقال: «وهو لا يقف في تفسير القرآن عندما روى من ذلك عن الرسول والسلف الصالح، بل يتخذ ما أوتيته من أدوات العلم وسيلة يستعين بها على فهمه، وإن كان يعد

(1) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - المجلد العشرون 562 سنة 1945 م تحت عنوان: «مخطوطات ومطبوعات».

(2) المرجع السابق ص 565 .

معرفة ما أثر من ذلك ضرورياً لفهم كتاب الله⁽¹⁾ ووصفه بأنه عالم مجتهد «يعمل فكره في الاستدلال والاستنباط، لا لمجرد الهوى، ولكن اعتماداً على قوانين العلوم، ووقوفاً عند حدودها، وأخذاً عن السلف ما يرى ضرورة الأخذ به من تفسير المجمل وحل المشكل»⁽¹⁾ واستطرد الأستاذ بدوي في حديثه عن التفسير فذكر المنهج الذي اختاره القرطبي عند تأليفه للتفسير، وحدده في مقدمته. وأنه صدر جامعه بعدة أبواب جمعت بعض علوم القرآن: كجمعه وترتيب سوره وآياته واعجازه، ومناقشة قوله ﷺ: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه)⁽²⁾.

وختم الأستاذ بدوي مقالته هذه بقوله: «وينقل القرطبي كثيراً عن ابن عطية الذي لخص تفاسير من سبقه ممن يرون ضرورة معرفة آراء السلف، واقتدى به في ذلك القرطبي»⁽²⁾.

3 - الدكتور محمد حسين الذهبي: نشر دراسة مفيدة عن تفسير الجامع لأحكام القرآن وصاحبه فبدأ بترجمة حياة المؤلف والتعريف بتفسيره وطريقته فيه⁽³⁾. ثم تطرق في حديثه إلى الأحكام الشرعية التي تناولها الإمام القرطبي فقال: «وأما من ناحية الأحكام، فإننا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة لكل قول»⁽⁴⁾ وقد وصفه بقوله: «وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيّاً كان قائله»⁽⁴⁾ ثم أخذ في ذكر أمثله تشهد بصحة ما أورده وتدعمه⁽⁵⁾. كما أنه تعرض لموقفه من حملات ابن

(1) الرسالة العدد 856 المجلد 2 السنة (17) 1369 هـ / 1949 م ص 1703.

(2) الرسالة ص 1704, 1705.

(3) التفسير والمفسرون ج 3 ص 123, 124 - الطبعة الأولى سنة 1381 هـ.

(4) المرجع السابق ص 125.

(5) المرجع السابق ص 125, 126, 127, 128.

العربي المفسر على مخالفيه، فقال: «كذلك نجد القرطبي - رحمه الله - كثيراً ما يدفعه الانصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحياناً، على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين، الداهيين إلى ما لم يذهب إليه»⁽¹⁾ وبعد ذلك ضرب أمثلة ليؤكد ما ذهب إليه ويدعم ما رآه بالشواهد والحجج.

وختتم الدكتور الذهبي دراسته بقوله: «وعلى الجملة: فإن القرطبي - رحمه الله - في تفسيره هذا، حرر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه. أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذبوع بين أولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه»⁽²⁾.

4 - الأستاذ أحمد أمين: كتب في كتابه (ظهر الإسلام) أن علماء الإسلام بالأندلس اهتموا بدراسة تفسير القرآن الكريم، وبغيره من الدراسات الإسلامية واشتهر عندهم تفسير القرطبي الذي اتبع فيه ذكر الآيات، ثم يذكر ما فيها من اللغة ووجوه الإعراب، والمعنى العام. وما يستنبط منها من أحكام... الخ. وقد جمع فيه بين المنهجين: منهج الرواية كالطبري، ومنهج الدراية كالزمخشري، وشاع الانتفاع به في العالم الإسلامي»⁽³⁾.

(1) التفسير والمفسرون ج 3 ص 125,126,127,128.

(2) المرجع السابق ص 130 .

(3) ج 3 ص 53 - الطبعة الثانية سنة 1959 م.

الخاتمة

عرضنا في أبواب كتابنا هذا الظروف القاسية، والمحن المؤلمة التي مرت بغرب بلاد الإسلام وشرقها في عصر الإمام القرطبي. ففي الغرب الإسلامي تألبت دول الكفر المسيحية جميعها على حرب الإسلام والمسلمين، ومناسبة العداء لهم. فكان ما شاهدناه من تشتت الكلمة وضعف العزيمة، وسقوط قواعد الإسلام واحدة بعد الأخرى في أيدي الأعداء، ونفى أهلها وتشريدهم ظلماً وعدواناً، لا لشيء اقترفوه سوى أنهم قالوا ربنا الله لا نعبد إلا إياه، ولا نقبل لدينه بديلاً.

أما الشرق الإسلامي فكان في حال لا يحسد عليه، إذ كانت الحملات الصليبية الغادرة تشن عليه وتوجه إليه الطعنات والضربات المتتالية التي أنهكت قواه فساعدت على إضعافه واضطرابه وانقسامه ثم أعقبتها تلك الجيوش البربرية الوحشية التي لا تبقى أمامها شيئاً ولا تذر إلا دمرته. بيد أن من رحمة الله تعالى ولطفه بالشرق وأهله، إذ هبأ له رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فجاهدوا في سبيل الله، وصبروا وصابروا وربطوا وخاضوا معهم معارك عنيفة، انتهت بانتصار الإيمان على الكفر، والحق على الباطل، وأنقذت مدنه وقواعده من السقوط في أيدي أعدائهم، فحالوا دون انزال كارثة أندلسية أخرى به.

وعلى الرغم من الحن والفتن الداخلية والخارجية التي مرت بها البلاد الإسلامية - غرباً وشرقاً - إلا أنه قد وجدت حياة علمية مزدهرة نبغ فيها علماء ومفكرون في شتى مجالات المعرفة والعلم وتركوا لنا أفضل ميراث يرثه الخلف عن السلف، ذلك هو العلم النافع الذي اعتبره رسول الله ﷺ أنه من الأعمال التي يؤجر عليها ابن آدم فتنفعه في حياته وبعد وفاته.

وكانت تلك التركة العظيمة التي ورثناها عن علمائنا وجهابذة الفكر الإسلامي تتمثل في التفسير وعلومه، والحديث ومصطلحاته، والفقه ومذاهبه، والعربية ومدارسها المختلفة، والطب والهندسة والجغرافية والتاريخ والفلك وعلم النبات والكيمياء وغيرها من العلوم والمعارف التي شهد لهم الأعداء بتفوقهم ونبوغهم فيها، فكانوا أرقى شعوب الأرض حضارة وثقافة، ومدنية وعلماء. وعاشت البشرية المعذبة - الآن - في كنفهم وتحت رعاية دولتهم الإسلامية في أمن وسلام ورخاء.

وكان من أولئك العلماء الذين أسهموا في تسيير وتقدم الحياة العلمية - وقتئذ - إمامنا الجليل أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي الذي كانت حياته عامر بالتأليف والعبادة فكانت رحلاته العلمية المتعددة في الأندلس ومصر، عاملاً مهماً من عوامل تكوين شخصيته العلمية، حيث التقى بكبار علماء الإسلام والعربية هناك بقرطبة - مسقط رأسه .. وفي الاسكندرية ومنية بني الخصيب - مقر مثواه الأخير - فتلقى على أيديهم ثقافته في الاعتقاد والتفسير والحديث والفقه والعربية... الخ وكان آية من آيات النبوغ والتفوق في هذه الميادين العلمية وغيرها. وقد لمسنا ذلك حينما عرضنا اتجاهاته العلمية وآثاره الثقافية التي تدل على سعة اطلاعه وطول باعه ورسوخ قدمه في تلك الميادين العلمية المختلفة. فرأينا الأمانة العلمية والموضوعية الصادقة، والتحري للحق، والدقة الرائعة فيما تناوله من بحوث ودراسات، واتباعه لمنهج علمي محدد في تأليفه، فجاءت هذه الدراسات وتلك البحوث مركزة مدعمة - في أغلب الأحيان - بالحجة والأدلة النقلية والعقلية.

ولعل الباب الذي عقدناه بعنوان «القرطبي الناقد» ألقى أضواء كاشفة على

شخصيته العلمية ومدى مقدرته واستعداده لما عاجله من قضايا الفكر والمعرفة. فهو لم يكن مجرد ناقل، بل كانت له شخصيته المستقلة التي تبدو واضحة في نقده النزيه لما أخذه على بعض العلماء والمفكرين.

وينبغي أن نذكر أنه كان جريئاً لا يخشى في الحق وتبليغه للناس لومة لائم. فهو قد تصدى في تفسيره الجامع لأحكام القرآن لبعض الظواهر السياسية والاجتماعية والحرية التي شاهدها في مجتمعه ومعاصريه. فبين أن حكام عصره قد أهملوا شؤون الأمة وأسندوا أمورها لغير أهلها، فنشروا الرعب والفرع في صفوفها، وقبلوا أخذ الرشوة، واستعانوا بأهل الكتاب حيث أخذوهم كتبه وأمناء، واستولى الباطل على الحق، وتغلب العبيد على الأحرار فغيروا حكم الله تعالى وبدلوا. وتركوا الجهاد وجبنوا عن ملاقات الأعداء وقتالهم، فكثرت الفرار منهم ووقعت بلادهم في أيديهم، وانتشرت الفتن والقتال بينهم، فغلظت شوكة الكافرين وكان لهم ما أرادوا من ذلة المسلمين وإضعافهم. وكان - أيضاً - ثائراً وناقداً لما يعيشه مجتمعه من تبرج نسائه وانتشار الفساد والنفاق فيه، وعدم الاعتصام بالكتاب والسنة، واتباعه للبدع والأهواء التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان في نقده هذا يمثل مرحلة هامة من مراحل تفسيره العظيم. فهو يرى أن مهمة المؤلف العالم لا تقتصر على تكديس الأفكار والمعلومات بعضها على بعض دون أن يوجه عنايته واهتمامه بمشاكل مجتمعه وما يحيطه من ظواهر وأمر. فهو يربط تفسيره لآيات الله تعالى بالواقع الذي كان يعيشه، وهو في هذا يكاد يتميز عن غيره من مفسري القرآن الكريم. وهذه لفنة طيبة منه وإدراك لرسالة الإسلام في حياة المجتمعات البشرية، وشعور بالمسئولية الملقاة على كواهل العلماء الذي ورثوا هذا الجانب الخطير - وهو تبليغ الدعوة - عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولهذا يقول رسول الله ﷺ في حديث أبي الدرداء: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل

العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر⁽¹⁾.

وهكذا كان إمامنا القرطبي صادقاً في طلبه للعلم، مخلصاً في خدمة دينه وأمته، رافعاً لواء الحق والعدل في المجتمع، وذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى. فرحمة الله تعالى عليه، وتولى الله عن المسلمين جزاءه وإكرامه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(1) ابن عبد البر - جامع بيان العلم وفضله ج 1 ص 42 - الطبعة الثانية 1388 هـ - أنظر صحيح البخاري ج 1 ص 26 طبعة الشعب.

المصادر والمراجع

- 1 - ابن الأبار: أبو عبدالله (المتوفي 659 هـ) - التكملة لكتاب الصلة الجزء الأول - تحقيق السيد عزت العطار الحسيني 1375 هـ - 1956 م.
- 2 - ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد (555 هـ - 1160 م/630 هـ - 1234 م) النهاية في غريب الحديث والأثر. الجزآن الثاني والثالث المطبعة العثمانية مصر سنة 1311 هـ.
- 3 - ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (703 هـ/777 هـ) - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. الجزء الأول - الطبعة الثانية 1322 هـ مطبعة التقدم. الناشر: مصطفى فهمي الكتبي بمصر.
- 4 - أبو حيان الأندلسي: أثير الدين محمد بن يوسف (654 هـ - 745 هـ) - البحر المحيط. الجزء السابع. المطبعة الأولى 1328 هـ - مطبعة السعادة بمصر.
- 5 - أبو شهبة: د. محمد بن محمد - أعلام المحدثين. الطبعة الأولى 1963 م مطابع دار الكتاب العربي. الناشر: مركز كتب الشرق الأوسط بمصر.
- 6 - ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (813 هـ - 874 هـ) - النجوم الزاهرة. الجزء السابع. الطبعة الأولى 1357 هـ/1938 م مطبعة دار الكتب المصرية. والطبعة المصورة عن هذه الطبعة التي نشرتها: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر.
- 7 - ابن تغرى بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. الجزء الأول. طبعة دار

الكتب المصرية 1956 م.

8 - ابن تيمية: أحمد عبد الحلیم (المتوفى 728 هـ) - مقدمة في أصول التفسير - تحقيق جميل أفندي الشطى. الطبعة الأولى 1355 هـ/1936 م مطبعة الترقى بدمشق.

9 - ابن الجوزي: شمس الدين يوسف (المتوفى 654 هـ) - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. القسم الثاني من الجزء الثامن. من وقائع سنة 590 هـ إلى سنة 654 هـ الطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية بحيدر آباد الدكن - الهند 1371 هـ/1952 م.

10 - ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد (773 هـ - 852 هـ) - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. الجزآن الثالث والرابع.

11 - ابن الحسين العراقي: الحافظ زين الدين عبد الرحيم (725 هـ/806 هـ) - التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح. تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان. الطبعة الأولى 1389 هـ - 1969 م مطبعة العاصمة القاهرة. الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

12 - ابن خلدون: عبد الرحمن (المتوفى 808 هـ) المقدمة، المطبعة الأزهرية 1311 هـ ومطبعة التقدم 1322 هـ القاهرة. ومطبعة دار الطباعة الخديوية ببولاق القاهرة 1284 هـ (مقدمة تاريخه الكبير - الجزء الأول).

13 - ابن خلكان: أحمد بن محمد (608 هـ - 681 هـ) - وفيات الأعيان. الأجزاء: الأول، الثاني، الثالث، تحقيق محيي الدين عبدالحميد. الطبعة الأولى 1367 هـ - 1948 م - مطبعة السعادة بمصر. الناشر: مكتبة النهضة المصرية.

14 - ابن الزبير: أبو جعفر أحمد - صلة الصلة. وهو ذيل للصلة بالشكوالية الناشر: أ. لا في بروفنسال (مصورة عن الأصل) الجزائر نوفمبر سنة 1937. مكتبة خياط - بيروت.

- 15 - ابن سلامة: أبو القاسم هبة الله (المتوفي 410 هـ) - النسخ والنسخ مطبوع على هامش كتاب: أسباب النزول للواحدى. مطبعة هندية بمصر 1315 هـ.
- 16 - إسماعيل حقي: تفسير القرآن المسمى روح البيان الجزء الأول طبعة 1264 هـ.
- 17 - ابن شاكر: محمد الكتبي (المتوفي 764 هـ) - فوات الوفيات. الجزآن: الأول والثاني. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر. الناشر: مكتبة النهضة المصرية.
- أشباح: يوسف - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة الأستاذ محمد عبدالله عنان - الجزء الثاني مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1360 هـ - 1941 م.
- 18 - ابن شريفة: د. محمد - أبو المطرف أحمد بن عميرة الخزومي: حياته وآثاره. مطبعة الرسالة - الرباط 1385 هـ - 1966 م.
- 19 - ابن عاشور: الشيخ محمد الفاضل (المتوفي 1390 هـ - 1970 م) - التفسير ورجاله. الطبعة الأولى 1966 م. الشركة التونسية لفنون الرسم نشر وتوزيع دار الكتب الشرقية بتونس.
- 20 - ابن عبد البر: أبو عمر يوسف (363 هـ - 463 هـ) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله. الجزآن: الأول والثاني. تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان. الطبعة الثانية 1388 هـ - 1968 م مطبعة العاصمة - القاهرة. الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- 21 - ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير. تحقيق د. شوقي ضيف مؤسسة التحرير للطباعة والنشر 1386 هـ - 1966 م القاهرة نشرته لجنة احياء التراث الإسلامي.
- 22 - ابن عبد البر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب. الجزء الثالث. مطبوع بأسفل كتاب: الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر. مطبعة مصطفى محمد بمصر. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى 1358 هـ - 1939 م.

- 23 - ابن عبد الله: محمد بن محمد - كتاب الضياء المنتشر في وفيات أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1349 هـ.
- 24 - ابن عبد الملك المراكشي: أبو عبد الله - كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. السفر الأول - القسم الثاني. تحقيق د. محمد بن شريفة مطابع دار الكتب - بيروت. الناشر: دار الثقافة.
- السفر الخامس - القسم الأول والثاني. تحقيق د. إحسان عباس مطابع سميا - الناشر: دار الثقافة - بيروت 1965 م.
- 25 - ابن العربي: القاضي أبو بكر (468 هـ - 543 هـ) أحكام القرآن القسم الأول والرابع. تحقيق علي محمد البجاوي. الناشر: دار احياء الكتب العربية - القاهرة. القسم الأول طبعة 1387 هـ/1967 م.
- القسم الرابع طبعة 1367 هـ/1958 م.
- 26 - ابن العماد: عبدالحى (المتوفى 1089 هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب. الأجزاء: الخامس، السادس، السابع. الناشر: مكتبة القدسي. القاهرة 1351 هـ والمكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- 27 - ابن فرحون: برهان الدين ابراهيم بن علي - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. الطبعة الأولى 1351 هـ. طبعه بمصر عباس بن عبدالسلام بن شقرون. مطبعة المعاهد.
- 28 - ابن قيم: الجوزية (691 هـ - 751 هـ) مختصر: الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله. جزآن في مجلد واحد. مطبعة الإمام. القاهرة طبعة سنة 1380 هـ.
- 29 - ابن كثير: عماد الدين اسماعيل (700 هـ - 774 هـ) تفسير القرآن العظيم الجزآن: الأول والرابع. مطبعة مصطفى محمد بمصر. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى 1356 - 1937 م.
- 30 - ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ الجزء الثالث عشر. الطبعة الأولى 1966 م طبعته مكتبتا المعارف ببيروت، والنصر بالرياض. وطبعة السعادة بمصر.

- الألباني: محمد ناصر الدين - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. المجلد الأول (1 - 500) منشورات المكتب الإسلامي بدمشق 1378 هـ.

31 - ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (630 هـ - 711 هـ) - لسان العرب الجزء السابع عشر. الطبعة المصورة عن طبعة بولاق. الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

32 - امين: أحمد - ظهر الإسلام الجزء الثالث الطبعة الثانية 1959 م مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

33 - ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (المتوفي 213 - أو 218 هـ/833 م) السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - القسم الأول يشمل الجزأين: الأول والثاني. الطبعة الثانية 1375 هـ - 1955 م مطبعة الحلبي - القاهرة.

34 - ابن الوردي: زين الدين عمر (المتوفي 749 هـ) - تتمة المختصر في أخبار البشر - المعروف بتاريخ ابن الوردي - المطبعة الوهبية بالقاهرة 1285 هـ.

35 - البتنوني: محمد لبيب - رحلة الأندلس. الطبعة الثانية. مطبعة مصر - القاهرة (كانت رحلته هذه حوالي 1926 م).

36 - البخاري: أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (194 هـ - 256 هـ) الجامع الصحيح. المشهور بـ «صحيح البخاري» الأجزاء: الأول، الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، الثامن، التاسع. طبعة دار الشعب - القاهرة.

37 - بدران: د. بدران أبو العينين - مع القرآن الكريم. المكتب المصري للطباعة والنشر باسكندرية 1388 هـ - 1969 م.

38 - بدوي: د. أحمد أحمد - الحياة الأدبية في عصر الحروب الطليبية بمصر والشام. الطبعة الأولى 1954 م مطبعة نهضة مصر. الناشر: مكتبة نهضة مصر. القاهرة.

- 39 - بدوي: د. أحمد أحمد - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. مطبعة نهضة مصر. الناشر: مكتبة نهضة مصر. القاهرة.
- 40 - بروكلمان: كارل - تأريخ الشعوب الإسلامية (2) الامبراطورية الإسلامية وانحلالها. الجزء الثاني. ترجمة د. نبيه أمين فارس ومدير البعلبكي. الطبعة الأولى 1949 م مطابع الآداب - بيروت. دار العلم للملايين.
- 41 - بروكلمان: كارل - تأريخ الأدب العربي - باللغة الألمانية - الجزء الأول وملحقه ليدن 1943 م. ترجم البحث المتعلق بالقرطبي د. عبدالرحمن بدوي.
- 42 - البغدادي: إسماعيل صفي الدين بن عبد المؤمن (المتوفي 739 هـ) - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق علي محمد البجاوي. الجزء الثالث - الطبعة الأولى 1373 هـ - 1954 م دار إحياء الكتب العربية للحدابي.
- 43 - البغدادي: إسماعيل باشا - هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. المجلد الثاني الطبعة الثالثة 1387 هـ - 1957 م طبعته بالأوفست مكتبة الإسلامية والجعفرى تبريزي بطهران.
- 44 - البغدادي: اسماعيل باشا - ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. المجلد الأول طبعته وكالة المعارف الجليلة 1364 هـ - 1945 م والثاني 1366 هـ - 1947 م. وطبعته 1378 هـ - 1967 م المكتبة الاسلامية بطهران.
- 45 - تسيهر: جولد - المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن. الطبعة الأولى 1363 هـ - 1944 م مطبعة العلوم. ترجمة د. علي حسن عبدالقادر.
- 46 - التهانوي: محمد علي (المتوفي في القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي) كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق د. لطفي عبدالبديع مطبعة السعادة 1382 هـ - 1963 م الناشر: مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- 47 - الجزري: شمس الدين محمد بن محمد (المتوفي 833 هـ) غاية النهاية في طبقات القراء نشره ج. برجستراسر. الناشر: مكتبة المثنى ببغداد 1351 هـ -

1932 م الجزآن: الأول والثاني.

48 - جفري: آرثر: - مقدمتان في علوم القرآن وهما: مقدمة كتاب المباني في نظم المعاني، ومقدمة ابن عطية. تحقيق جفري. مطبعة السنة المحمدية - الناشر: مكتبة الخانجي 1954 م القاهرة.

49 - الجمل: الشيخ سليمان بن عمر (المتوفي 1204 هـ) - الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. الجزآن: الأول والرابع. طبعة 1282 هـ. المشهور بـ «حاشية الجمل».

50 - حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مجلدان. طبعته وكالة المعارف الجلييلة 1360 هـ - 1941 م حققه محمد شرف الدين ورفعت بلكه. والطبعة الثالثة بالأوفست 1378 هـ 1967 م بطهران.

51 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي (446 هـ - 516 هـ) - مقامات الحريري - طبعة المكتبة التجارية.

52 - حسن: د. حسن ابراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. الجزء الرابع. الطبعة الأولى 1967 م مطبعة السنة المحمدية - الناشر: مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

53 - حسين: د. علي صافي - الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري الناشر: دار المعارف بمصر 1964 م.

54 - حمزة: د. عبداللطيف - الأدب المصري: من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية. مطابع دار القلم بالقاهرة. الناشر: مكتبة النهضة المصرية.

55 - حمزة: د. عبداللطيف - الحركة الفكرية في مصر في العصرين: الأيوبي والمملوكي الأول. الطبعة الأولى 1947 م. الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.

56 - حمودة: د. علي محمد - تاريخ الأندلس السياسي والعمرائي والاجتماعي الطبعة الأولى 1376 هـ - 1957 م مطابع دار الكتاب العربي بمصر.

- 57 - خليل: د. السيد أحمد - نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن الطبعة الأولى 1373 هـ - 1954 م الناشر: الوكالة الشرقية للثقافة بإسكندرية.
- 58 - خليل: د. السيد أحمد - دراسات في التشريع الإسلامي مطبعة دار نشر الثقافة بإسكندرية. الناشر: دار المعارف 1967 م.
- 59 - خليل: د. السيد أحمد - دراسات في القرآن - مطابع دار المعارف بمصر 1972 م. الناشر دار المعارف.
- 60 - الخطيب الشربيني: الإمام محمد بن أحمد (المتوفي 977 هـ) - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. المعروف بتفسير الخطيب الشربيني. الجزآن: الأول والرابع. طبعة دار الطباعة العامرة ببولاق مصر 1285 هـ.
- 61 - الخوري: سليم جبرائيل - كتاب آثار الأدهار - القسم التاريخي. الطبعة الأولى 1293 هـ - 1877 م المطبعة السورية.
- 62 - الخولي: أمين - دائرة المعارف الإسلامية. المجلد الخامس. ترجمة عبدالحמיד يونس وآخرين. مادة (تفسير).
- 63 - الداودي: محمد بن علي (المتوفي 945 هـ) - طبقات المفسرين. مخطوطة مصورة بالميكروفلم بدار الكتب المصرية تحت رقم (32) تاريخ 1950 م.
- 64 - الذهبي: شمس الدين محمد (المتوفي 748 هـ - 1347 م) تذكرة العبر في خبر من غير الجزء الخامس تحقيق د. صلاح الدين المنجد 1386 هـ - 1966 م مطبعة حكومة الكويت.
- 65 - الذهبي: شمس الدين محمد - تذكرة الحفاظ الجزء الرابع الطبعة الثالثة مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند 1377 هـ - 1958 م.
- 66 - الذهبي: شمس الدين محمد - كتاب دول الإسلام الجزء الثاني الطبعة الثانية مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بالهند 1365 هـ.

- 67 - الذهبي: شمس الدين محمد - العلو للعلی الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان. الطبعة الثانية مطبعة العاصمة. الناشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة 1388 هـ - 1968 م.
- 68 - الذهبي: د. محمد حسين - التفسير والمفسرون. الجزآن: الأول والثاني الطبعة الأولى 1381 هـ - 1961 م مطابع دار الكتاب العربي بمصر. الناشر: دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- 69 - الرازي: الشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر - مختار الصحاح الطبعة الخامسة المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة 1358 هـ - 1939 م.
- 70 - الراغب الأصفهاني: أبو القاسم (المتوفى 500 هـ) - مقدمة التفسير مطبوعة مع كتاب: تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار بن أحمد الهمداني المتوفى 410 هـ الطبعة الأولى 1329 هـ المطبعة الجمالية بمصر. الناشر: المكتبة الأزهرية.
- 71 - الرافعي: مصطفى الصادق - اعجاز القرآن. الطبعة الثامنة 1384 هـ - 1965 م مطبعة الاستقامة بالقاهرة. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى.
- 72 - الرعيني: علي بن محمد بن علي - برنامج شيوخ الرعيني (حوالي 646 هـ) المطبعة الهاشمية بدمشق 1381 هـ - 1962 م.
- 73 - الزركلي: خير الدين - الأعلام الأجزاء: الأول، الرابع، الخامس، السادس، العاشر. الطبعة الثانية 1374 هـ 1955 م مطبعة كوستاتوماس وشركاه. والجزء الثالث طبعته 1347 هـ - 1928 م المطبعة العربية بمصر.
- 74 - الزمخشري: محمود بن عمر (467 هـ - 538 هـ) - أساس البلاغة - دار ومطابع الشعب - القاهرة 1960 م.
- 75 - سالم: د. السيد عبد العزيز - تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي الطبعة الثانية 1969 مطبعة معهد دون بوسكو - اسكندرية الناشر: دار المعارف.
- 76 - السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (المتوفى 771 هـ) طبقات الشافعية

- الجزء الخامس. الطبعة الأولى. المطبعة الحسينية المصرية. القاهرة 1324 هـ.
- 77 - سر كيس: يوسف اليان - معجم المطبوعات العربية والمعربة. وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية، مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم. وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية 1339 هـ - 1919 م الجزء السابع. مطبعة سر كيس. طبع بمصر 1347 هـ - 1929 م.
- 78 - السكندري: أحمد بن عطاء الله (حوالي 658 هـ - 709 هـ/ حوالي 1260 م - 1310 هـ كتاب لطائف المنز في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن المكتبة العلامة بمصر والطبعة الأولى طبعة الدولة التونسية 1304 هـ .
- 79 - سليم: محمود رزق - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد الثالث وهو القسم الأول من الجزء الثاني المطبعة النموذجية بالقاهرة 1368 هـ - 1949 م - المجلد الرابع طبعة 1369 هـ - 1951 م - القسم الثاني من الجزء الأول والثاني مطبعة التوكل بالجماميز 1366 هـ - 1947 م الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز القاهرة.
- 80 - السندوبي: حسن - أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالإسكندرية مطبعة دار الكتب المصرية 1944 م القاهرة.
- 81 - السنغالي: أحمد دم بن محمد الأمين - تفسير القرآن المسمى ضياء التبيين الجامع بين علوم الطائفتين. الجزء الثاني. مطابع شركة الاعلانات الشرقية بمصر.
- 82 - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (المتوفي 919 هـ) - طبقات المفسرين - الطبعة الأوروبية.
- 83 - السيوطي: الاتقان في علوم القرآن: الجزآن الأول والثاني.
- 84 - السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. الجزء الأول. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مطبعة الحلبي 1384 هـ - 1964 م.

- 85 - السيوطي: حسن المحاضرة - الجزء الأول مطبعة ادارة الوطن 1299 هـ.
- 86 - السيوطي: فهرس تاريخ الخلفاء، أمراء المؤمنين، القائمين بأمر الأمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف 911 هـج نشرته للمرة الأولى ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة.
- 87 - شحاته: عبدالله محمود - منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم - دار ومطابع الشعب - القاهرة 1382 هـ/1963 م.
- 88 - الشرقاوي: عبدالله - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين مطبوع على هامش كتاب: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول لمحمد عبدالمعطي بن علي الاسحاقى المنوفى. المطبعة الشرقية بمصر 1303 هـ.
- 89 - الشعرائى: عبد الوهاب بن أحمد (898 هـ - 973 هـ) - مختصر تذكرة أبي عبدالله القرطبي المطبعة اليوسفية. الناشر: مكتبة الجمهورية العربية - مصر.
- 90 - شلتوت: الشيخ محمود - تفسير القرآن الكريم. الطبعة الثالثة 1965 م - مطابع دار القلم بالقاهرة.
- 91 - الشوكانى: محمد بن علي (1173 هـ - 1250 هـ) - فتح القدير: الجامع بين فني الرواية من علم التفسير. الجزء الأول. الطبعة الأولى مطبعة الحلبي سنة 1349 هـ - القاهرة.
- 92 - الشوكانى: نيل الأطار الأجزاء الخامس، السادس، الثامن. الطبعة الأولى - المطبعة العثمانية المصرية سنة 1357 هـ.
- 93 - الشيال: د. جمال الدين - أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامى مطابع دار المعارف بمصر 1965 م الناشر: دار المعارف.
- 94 - صديق حسن خان: أبو الطيب (المتوفى 1307 هـ) - فتح البيان في مقاصد القرآن - تفسير الجزأين (عم وتبارك) مطبعة العاصمة. القاهرة.

- 95 - الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفي 764 هـ) - الوافي بالوفيات الجزء الثاني. الطبعة الثانية باعثناء هلموت ريتز 1381 هـ - 1961 م. الناشر: فرانز شتايز بئيسبان - ايران.
- 96 - الضباع: علي محمد - المطلوب في بيان الكلمات المختلف فيها عن أبي يعقوب مطبوع في مقدمة المصحف الشريف برواية نافع بمطبعة الحلبي بمصر 1349 هـ - 1930 م.
- 97 - طاش كبرى زادة: أحمد بن مصطفى (المتوفي 962 هـ) - مفتاح السعادة ومصباح السيادة. الجزء الأول.
- 98 - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (224 هـ - 310 هـ/839 - 922 م) جامع البيان في تفسير القرآن. الجزء الأول. الطبعة الأولى 1323 هـ. المطبعة الأميرية. الناشر: عمر الخشاب الكتبي بمصر.
- 99 - عبد الباقي: محمد فؤاد المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. الطبعة الأولى 1364 هـ مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة. وطبعة دار الشعب.
- 100 - عنان: محمد عبدالله - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس - الطبعة الأولى 1383 هـ - 1964 م مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
- 101 - عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المستنصرين - الطبعة الثالثة 1386 هـ - 1966 م مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
- 102 - عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال - دراسة تاريخية أثرية - الطبعة الأولى - 1375 هـ - 1956 م مطبعة مصر - القاهرة.
- 103 - فنديك: ادوارد - كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التأليف العربية في المطابع الشرقية والغربية. صححه محمد علي البيلوي. طبع بمطبعة التأليف (الهلال بمصر) 1313 هـ - 1896 م.

- 104 - القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد (المتوفي 671 هـ) - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. تحقيق أحمد محمد مرسي. جزآن في مجلد واحد. طبع بمطابع مذكور وأولاده بالقاهرة.
- 105 - القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد - التذكار في أفضل الأذكار - الطبعة الأولى 1355 هـ الناشر: محمد أمين الخانجي - القاهرة.
- 106 - القاسمي: محمد جمال الدين (1283 هـ/1332 هـ - 1866 م/1914 م) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل. الأجزاء: الثالث، الرابع، التاسع، الثالث عشر، الخامس عشر.
- 107 - القمي: عباس بن محمد رضا - كتاب هدية الأحاب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب (صورة بخط المؤلف) طبعت في المطبعة المرتضوية في النجف الأشرف 1349 هـ.
- 108 - الكافيحي: الإمام محي الدين - كتاب التيسير في قواعد علم التفسير - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (707) مصر.
- 109 - الكتاني: السيد الشريف محمد بن جعفر (المتوفي 1345 هـ) - الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة
- 110 - كحالة: عمر رضا معجم المؤلفين - تراجم مصنفي الكتب العربية - الأجزاء: الثاني، الثالث، الخامس، الثامن، الثالث عشر. مطبعة الترقى بدمشق 1376 هـ - 1957 م وطبعة 1377 هـ - 1958 م التي نشرتها المكتبة العربية بدمشق. وطبعة 1378 هـ - 1959 م التي طبعها رفعت رضا كحالة.
- 111 - كنون: عبدالله - النبوغ المغربي في الأدب العربي. الجزء الأول - الطبعة الثانية 1961 م دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر - بيروت.
- 112 - كيلاني: محمد سيد - الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام. مطبعة دار الكتاب العربي. الناشر: مكتبة مصر - القاهرة.
- 113 - مالك: بن أنس (95 هـ - 179 هـ) - الموطأ مطبعة الحلبي 1348 هـ موطأ

- الإمام مالك وشرحه تنوير الحوالك - لجلال الدين السيوطي (المتوفي سنة 911 هـ) جزآن. الطبعة الأخيرة 1370 هـ - 1951 م مطبعة الحلبي بمصر.
- 114 - مخلوف: محمد بن محمد - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. المطبعة السلفية ومكنتها بمصر 1349 هـ.
- 115 - مسلم بن الحجاج: الإمام أبو الحسين (المتوفي 261 هـ) صحيح مسلم بشرح النووي (631 هـ - 676 هـ) الأجزاء: العاشر، الحادي عشر، الثاني عشر، الثالث عشر، الخامس عشر. السادس عشر، المطبعة المصرية ومكنتها طبعة 1349 هـ.
- 116 - مظهر: د. علي - محاكم التفتيش باسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها - مطبعة أنصار السنة المحمدية 1366 هـ - 1947 م.
- 117 - المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي (المتوفي 845 هـ) - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. الجزء الأول - القسم الأول والثاني تحقيق محمد مصطفى زيادة مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1355 هـ - 1936 م وطبعة 1934 م.
- 118 - المقززي: الخطط المقرئزية، الجزء الأول مطبعة الساحل الجنوبي - لبنان - وطبعة النيل بمصر 1324 هـ.
- 119 - المقرئي: أحمد بن محمد (المتوفي 1041 هـ) - نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب. الأجزاء: الأول، الثاني، الثالث - الطبعة الأولى 1302 هـ - المطبعة الأزهرية المصرية - الطبعة الأولى 1367 هـ - 1949 م تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.
- 120 - المنذري: أبو محمد زكي الدين عبد العظيم (581 هـ - 1185 هـ / 656 هـ - 1258 م) كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف مقدمة الجزء الأول. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى 1379 هـ - 1960 م مطبعة السعادة بمصر. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى.

- 121 - المنذري: مختصر صحيح مسلم. جزآن. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني
الطبعة الأولى 1388 هـ - 1969 م بإشراف الدار الكويتية للطباعة والنشر
والتوزيع.
- 122 - المنذري: مختصر سنن أبي داود. الجزآن: الرابع والسابع تحقيق محمد حامد
الفاقي - مطبعة السنة المحمدية 1368 هـ - 1949 م.
- 123 - المودودي: أبو الأعلى - المبادئ الأساسية لفهم القرآن - تعريب خليل
الحامدي. الطبعة الثانية 1389 هـ - 1969 م الناشر: الدار الكويتية للطباعة
والنشر والتوزيع.
- 124 - النسفي: أبو حفص نجم الدين عمر (المتوفي 537 هـ) - كتاب التيسير في
التفسير مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (61) تفسير.
- 125 - النعيمي: عبد القاهر بن محمد (المتوفي 927 هـ) - الدارس في تاريخ المدارس
تحقيق جعفر الحسني 1370 هـ - 1951 م.
- 126 - النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد - تفسير غرائب القرآن ورغائب
الفرقان. مطبوع على هامش تفسير الطبري (المتوفي 310 هـ) الطبعة الأولى -
المطبعة الأميرية بمصر 1323 هـ الناشر: عمر الخشاب الكتبي بمصر.
- 127 - هارون: عبد السلام محمد - تحقيق النصوص ونشرها. الطبعة الثانية مطبعة
المدني - القاهرة 1385 هـ - 1965 م مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .
- 128 - هلال: د. جودة - قرطبة في التاريخ الإسلامي - نوفمبر 1962 م - الناشر: دار
القلم بالقاهرة.
- 129 - الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد - أسباب النزول. طبع في مطبعة هندية
بمصر 1315 هـ.
- 130 - اليونيني: موسى بن محمد (المتوفي 726 هـ - 1326 م) - ذيل مرآة الزمان.
المجلد الأول من وقائع 654 هـ إلى 662 هـ الطبعة الأولى 1374 هـ - 1954 م
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند.

المجلات العلمية وفهارس دور الكتب

- 1 - آداب اسكندرية - العدد العشرون 1966 م مطبعة جامعة الاسكندرية. الموضوع: اللغة بين الأدب والتشريع - للدكتور السيد أحمد خليل.
- 2 - البلاغ العراقية. العدد الرابع، السنة الثانية صفر 1388 هـ. الموضوع: من المخطوطات الأندلسية في الخزائن العراقية - للدكتور محسن جمال الدين.
- 3 - الرسالة. العدد (856) المجلد الثاني السنة (17) صفر 1369 هـ نوفمبر 1949 م. الموضوع: من المفسرين في عصر الحروب الصليبية (القرطبي) للأستاذ أحمد أحمد بدوي.
- 4 - الشهاب. العدد الأول 1367 هـ - / 1947 م - القاهرة. الموضوع: الحضارة الإسلامية للأستاذ أحمد مظهر العظمة.
- 5 - الفكر التونسية العدد (8) مايو 1959 م السنة (4) .
- 6 - فهرس دار الكتب المصرية الجزء الأول الطبعة الثانية سنة 1310 هـ - القاهرة.
- 7 - فهرس الخزانة التيمورية الجزء الأول: التفسير الجزء الثاني: مصطلح الحديث الجزء الثالث: أسماء المؤلفين. مطبعة دار الكتب المصرية 1367 هـ / 1948 م.
- 8 - فهرس دار الكتب الظاهرية بدمشق - علوم القرآن - طبعة 1381 هـ / 1962 م اعداد الأستاذ عزة حسن.
- 9 - فهرس مكتبة البلدية بالاسكندرية - كتب الشريعة الإسلامية - 1344 هـ / 1926 م اعداد الأستاذ أحمد أبو علي.

- 10 - فهرس مخطوطات المسجد الأحمدى بطنطا. الجزء الثانى والعشرون (آداب وفضائل) مطبعة جامعة الاسكندرية 1384 هـ / 1964 م - اعداد الدكتور عبده الراجحى وجماعة.
- 11 - مجمد اللغة العربية بالقاهرة. الجزء الرابع والعشرون شوال 1388 هـ - يناير 1969 م الموضوع: التراث العلمى العربى / للدكتور عبد الحليم منتصر.
- 12 - المجمع العلمى العربى بدمشق. الجزآن: الحادى عشر والثانى عشر. المجلد العشرون 1364 هـ / 1945 م. الموضوع: تفسير الإمام أبى عبدالله القرطبى المتوفى سنة 671 هـ وهو المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» للشيخ محمد بهجت البيطار.
- 13 - الوعى الإسلامى الكويتية. العدد الأربعون. السنة الرابعة 1388 هـ / 1968 م الموضوع: الإمام القرافى - للأستاذ عبد المجيد وافى. العدد (129) الموضوع: ابن جرير الطبرى / للشيخ عبد المنعم النمر. العدد (130) الموضوع: أبو حيان الأندلسى نحوى عصره ومفسره - للدكتور عبد المجيد المحتسب 1389 هـ / 1969 م.

الفهرست

المقدمة	5
تمهيد: الحياة السياسية والعلمية في الأندلس ومصر في عصر الإمام القرطبي ...	7
الباب الأول: حياة القرطبي	83
الباب الثاني: ثقافة القرطبي وآثاره العلمية واتجاهه فيها	117
الباب الثالث: تفسير القرطبي ومصادره فيه	151
الباب الرابع: منهج القرطبي في التفسير القرآني	213
الباب الخامس: القرطبي الناقد	237
الباب السادس: مكانة تفسير القرطبي عند المفسرين وأثره فيمن جاء بعده منهم ...	287
الخاتمة	306
المصادر والمراجع	310